المكتبة الأدبية

عبقرية الشريف الرضي

تأليف
الدكتور زكي مبارك

الجزء الثاني

الناشر
مكتبة الثقافة الدينية

obeikandl.com

الأصدقاء والأعداء
في حياة الشريف الرضي

أيها السادة ..

رأيتم فيما سلف أن الشريف الرضي كان يهجم على أقربائه في بعض الأحيان، وعرفتم تفسير هذه الظاهرة النفسية؛ فقد كان الشريف رجلًا موصول الأواصر بالحياة الاجتماعية والسياسية، كان رجل فعل Homme d'action وكانت هذه الصفة تمنحه الفرص الثمينة لامتحان الرجال.

ولكن هل معنى ذلك أنه لم يكن يعرف المودة والقرابة إلا لغايات نفعيَّة؟

لا؛ ولكن معناه أنه كان ينتظر من الصديق والقريب أن يكون ساعده الأيمن في جميع الأحوال، وقد كانت المكاره لا تغزوه إلا من الثغور السياسية والاجتماعية، فكان من المعقول أن تكون المناصرة في حروب المجتمع هي أساس ما يرجوه من الأقارب والأصدقاء.

ويمكن الحكم بأن الشريف تفرَّد من بين الشعراء بالإسراف في الكلام عن العدو والصديق، كما تفرَّد بالإكثار من شرح العواطف البنوية، وهذه نوازع يرجع بعضها إلى بعضٍ، وإن اختلفت أصولها في مشاعر الوجدان.

وإلحاح الشريف في الكلام عن العداوة والصداقة يشعرنا بأنه كان في نفسه أعنف عدو، وأكرم صديق.

وأشعاره تحدثنا بأنه كان يعرف في نفسه طهارة القلب، وعذوبة الروح، وإنه ليخاطب أحد أصدقائه فيقول:

سألقاك بالعهد عن المشيب ... وهأنا في حلية الأمرد

وإني إذا لم أجد ناصرًا ... وجدتك أنصر لي من يدي

خذ الوقت واعلم بأن اللبيـ ـب يأخذ من يومه للغد
فما ينفع المرء بعد المنو ن قول النوادب لا تبعد[1]
على أنني تحفة للصدق يروح بنجواي أو يغتدي
وإني ليأنس بي الزائرو ن أنس النواظر بالإثمد[2]
تغمض لي أعين الحاسدين كالشمس في ناظر الأرمد
فلا دخل البعد ما بيننا ولا فك منا يدًا عن يد
وطول أيامنا بالمقا م في ظل عيش رقيق ندي

وهذه القطعة صريحة بأنه كان يعرف في نفسه بشاشة القلب، وبهجة الروح.

وهذا الشعور هو الذي كان يدفعه إلى التألم لغربة قلبه بين القلوب كأن يقول:

كفى حزنًا أني صديق وصادق ومالي من بين الأنام صديق
فكيف أريغ الأبعدين لخلة وهذا قريب غادر وشقيق؟!

وكان يتلهف إلى الصديق المنشود:

من لي بغرة صاحب لا يستطيل عليه عاب؟[3]
ما حارب الأيام إلا كان لي وله الغلاب
هيهات أطلب ما يطو ل به بعاد واقتراب
قلَّ الصحاب فإن ظفر ت بنعمة كثر الصحاب
من لي به سمحًا إذا صفرت من القوم الوطاب[4]

(١) من البعد وهو هنا الهلاك.
(٢) الإثمد: بكسر الهمزة هو الكحل.
(٣) العاب: لغة في العيب.
(٤) صفرت: خلت، الوطاب: الأوعية.

من لي بـه يـا دهـر والأيـام كالحـة غـضاب[1]

وهذه من نفثات القلوب الظماء إلى موارد الود الرفيق.

وكان الشريف الرضي يطرب لاجتماع إخوانه عنده، ويرى أنسه بلقائهم من فرص العيش، وكان يرى إدارة الأحاديث الشبيهة بإدارة الكئوس كأن يقول وقد اجتمع في بيته خمسة من الأصفياء:

نظمنا نظم العقد ودًّا وألفة وكان لنا البتيّ سلك نظام
أخي وابن عمي وابن جد فإنه تباريح قلبي خاليًا وغرامي
وسادسنا الأزدي ما شئت من أب جواد ومن جد أغر همام
أحاديث تستدعي الوقور إلى الصبا وتكسو حليم القوم ثوب عرام
فنضحى لها طربى بغير ترنم ونمسي لها سكرى بغير مدام[2]
تعالوا نول اللائمين تصاميا ونعصِ على الأيام كل ملام
ونغتنم الأوقات إن بقاءها كمر غمام أو كحلم منام
من الله أستبقي صفاءً يضمنا وطاعة أيام ودار مقام
وأستصرف الأعداء عنّا فإننا مذ اليوم أغراض لكل مرام

وكان الشريف يعرف جيدًا كيف يحفظ عهد الصديق وكان له أصدقاء يواسونه أيام البؤس وفي أحدهم يقول:

يا ذاكر النعماء إن نسيت ومجدد المعروف إن درسا
ومنبه الآمال إن رقدت بالطول لا أغفى ولا نعسا
نصل إذا وقف النصول مضى جبل إذا اضطرب الجبال رسا

---

(١) كالحة: عابسة.
(٢) طربى: جمع طربان، وهو كالطروب.

لله بحـــر مـــا هتفـــت بـــه ... حتـــى اســـتهل عـــليّ وانبجـــسا[1]
أجمعـــت جمتـــه ففـــاض بهـــا ... يطـــأ الربـــا ويبلـــل اليبـــسا[2]
زخـــــرت غواربـــــه إليّ ولم ... يقـــل الرجـــاء لعلـــما وعـــسى[3]
وأغـــر مختـــلس مكارمـــه ... إن الكـــريم يـــرى النـــدى خلـــسا
غـــرس الـــصنائع ثـــم عـــاد بـــه ... عـــود النـــدى فـــسقى الـــذي غرســـا

وله عبارات جيدة في تصوير الوداد، كأن يقول:

لقـــد حـــل ودُّك مـــن مهجتـــي ... بحيـــث يقيـــل الأســـى والأُســـا[4]

وكأن يقول:

فلقـــد حللـــت مـــن الفـــؤاد محلـــة ... في حيث ليس من الورى لك جار
فلـــئن وفيـــت فـــما الوفـــاء ببدعـــة ... إن الوفـــاء لـــذي الـــصفاء شـــعار
ولـــئن غـــدرت ولا عجيـــب إنـــه ... بعـــض الزمـــان ببعـــضه غـــدار
نفـــسي فـــداء الغـــادرين تباعـــدوا ... أو قـــاربوا أو أنـــصفوا أو جـــاروا

وقد أهدى إليه أحد أصدقائه رداءً فلم يقبله، فعتب عليه ذلك الصديق، فكتب إليه الشريف:

عقيـــد العـــلا لازلـــت تـــستبعد العـــلا ... وتعتـــق منهـــا رق كـــل أســـير[5]

---

(١) انبجس الماء: سال وتدفق.
(٢) الجمة: بضم الجيم معظم الماء، والربا جمع ربوة وهي المكان المرتفع.
(٣) غوارب الماء: أعالي موجه.
(٤) الأسى: بفتح الهمزة الحزن، والأسا: جمع أسوة بضم الهمزة وهي العزاء، ويقيل: ينزل ويحل.
(٥) العقيد والمعاقد: هو المعاهد، أي الذي يعهد الشي ويلزمه، فيقال: عقيد الكرم وعقيد العلا: أي الذي يلزم هذه الخلال.

لئن خف من ضافي ردائك عاتقي ... فودُّك يخطو في رداء قتيري[١]
ستعلم أن الثوب يدثر رسمه ... ورسم الهوى في القلب غير دثور[٢]
فلا تشمتن الحاسدين فسرهم ... يشفي لظني من وراء أمور

وقد يشتاق الشريف إلى إخوانه عند البعد ويحن إليهم أرق الحنين، ويظهر أن بغداد على خشونتها في ذلك العهد لم تبخل عليه كل البخل، فكان له فيها إخوان أوفياء، وإلا فكيف صحَّ له أن يقول:

أخلائي ببغداد ... جنى دونكم الرمل
وحالت دون لُقياكم ... زحاليق النقا الزل[٣]
لقد كنت شديد الظن ... أن ينقطع الحبل
وأن ينصدع الشعب ... الذي لوئم والشمل[٤]
ولكني رعيت الأر ... ض ما طاب لي البقل
وعجلت النوى لما ... فشا اللأواء والأزل[٥]
نداماي على الهم ... سقى عهدكم الوبل
وحياكم بريّاه ... جديد النور مخضل[٦]
تذكرتكم والدمع ... لا وبل ولا طل
فما أخلفكم جار ... من الماقين منهل

(١) الضافي: الطويل، والقتير: الشيب.
(٢) يدثر: يبلى.
(٣) في بعض نسخ الديوان (القنا) وفي بعضها (اللقا) وقد آثرنا كلمة (النقا) والزل: بالضم المكان الذي يزل فيه، يريد وعورة الطريق.
(٤) الشعب: بالفتح معناه هنا الجمع.
(٥) اللأواء: الشدة، والأزل: الضيق.
(٦) النور: بفتح النون هو النوار بضمها وهو الزهر أو الأبيض منه، والمخضل المندى.

وفي الأيـــام مـــا يـــسلي ولكـــن أيـــن مـــن يـــسلو[١]

أيها السادة ..

ذلكم إحساس الشريف بقيمة الصداقة والأخوة؛ ولكن هل هذا كل ما يملك ذلك القلب الطروب؟ هيهات، ففي قلب الشريف بقايا من الشوق العاصف، الشوق إلى الأصدقاء الأصفياء، هو شوق لا نعرفه في هذه الأيام؛ لأننا نعيش في زمنٍ عابسٍ متجهم لا نكاد نرى فيه الناس حتى نتخير الأصدقاء في قلب الشريف بقايا من الحنان لا يعرفها غير ذلك القلب، وأمثال ذلك القلب، إن كان له أمثال.

هل سمعتم بأخبار أبي الحسن البتي؟ إنه كاتب من كبار الكتاب الذين أنجبهم العراق في القرن الرابع، وقد نزلت مودته إلى الأعماق من قلب الشريف الرضي، وحسبكم أن تعرفوا أن آخر شعر نظمه الشريف الرضي هو أبياته في رثاء ذلك الصديق، وأكاد أجزم بأن موت أبي الحسن البتي هو السبب في موت الشريف الرضي؛ يشهد بذلك قوله في ذلك الرثاء:

مـــا للهمـــوم كأنهـــا نـــار عـــلى قلبـــي تـــشب
والـــدمع لا يرقـــى لـــه غـــرب كـــأن العـــين غـــرب[٢]
لـــوداع إخـــوان الـــشبا ب مـــضت مطايـــاهم تخـــب
فـــارقتهم والعـــين عـــ ـــين بعـــدهم والقلـــب قلـــب[٣]
مـــا كنـــت أحـــسب أننـــي جلـــد عـــلى الأرزاء صـــعب

(١) في الديوان (ما يسلو) وهو تحريف.
(٢) الغرب: عرق في العين يسيل منه الدمع، والغرب أيضًا الدلو العظيمة، وفي البيت جناس.
(٣) العين: هي الباصرة، وهي أيضًا الينبوع، والقلب: الفؤاد وهو أيضًا اسم ماء، وبمراعاة الجناس يفهم البيت.

أو أنني أبقى وظهـ ... ـري بعد أقراني أجب[1]
لا الوجد منقطع الوقـ ... ـد ولا مزار الدار غب[2]
ما أخطأنك النائبات ... إذا أصابت من تحب

وقد صحت فراسة الشريف؛ فإن النائبات لم تخطئه حين أصابت من يحب، فمات بعد موت ذلك الصديق المحبوب بأشهرٍ معدودات، وغربة القلوب تقتل الرجال فإن سألتم: وأين شعره في التشوق إلى ذلك الصديق؟

فإنَّا نقدم إليكم تلك البائية النفيسة التي نعرف بها كيف تسري المودة في القلب مسرى السحر في العيون، وتجول في شعاب الروح كما يجول الصبا في قدود الملاح، وتدخل على أصحاب الأذواق دخول البُشرى بالأمن بعد الخوف، وأنس اللقاء بعد وحشة الفراق، وتصافح الأنفس مصافحة الأماني العذاب، وتعاقر أفواه المنشدين فتذكرهم معاقرة الرضاب، قصيدة لا يقولها غير الشريف الرضي، ولا يقدِّر قيمتها غير أرباب القلوب.

هات يا أبا الحسن ما قلت في أبي الحسن، فقد اشتقنا إليه وإليك.

أبا حسن أتحسب أن شوقي ... يقل على معارضة الخطوب
وأنك في اللقاء تهيج وجدي ... وأمنحك السلو على المغيب
وكيف وأنت مجتمع الأماني ... ومجنى العيش ذي الورق الرطيب
يهش لكم على العرفان قلبي ... هشاشته إلى الزور الغريب[3]
وألفظ غيركم ويوسغ عندي ... ودادكم مع الماء الشروب
ويسلس في أكفكم زمامي ... ويعسو عند غيركم قضيبي[4]

---

(١) من الجبب بالتحريك وهو قطع السنام.
(٢) المزار الغب: هو القريب.
(٣) الزور: بفتح الزاي: الزائر.
(٤) يعسو: من قولهم عسا النبات إذا يبس.

ولي شـــوق إليـــك أعـــلّ قلبـــي ... ومـــا لي غـــير قربـــك مـــن طبيـــب
أغـار عليـك مـن خلـوات غـيري ... كـــما غـــار المحـــب عـــلى الحبيـــب
ومـــا أحظـــى إذا مـــا غبـــت عنـــي ... بحـــسن للزمـــان ولا بطيـــب
أشـــتق إذا ذكرتـــك مـــن بعيـــد ... وأطـــرب إن رأيتـــك مـــن قريـــب
كأنـــك قدمـــة الأمـــل المرجـــى ... عـــليَّ وطلعـــة الفـــرج القريـــب
إذا بـــشرت عنـــك بقـــرب دار ... نـــزا قلبـــي إليـــك مـــن الوجيـــب[1]
مـــراح الرَكـــب بـــشر بعـــد خمـــس ... ببارقـــة تـــصوب عـــلى قليـــب[2]
أســـالم حـــين أبـــصرك الليـــالي ... وأصـــفح للزمـــان عـــن الـــذنوب
وأنـــسى كـــل مـــا جنـــت الرزايـــا ... عـــليّ مـــن الفـــوادح والنـــدوب[3]
تميـــل بـــه الـــشكول إليـــك حتـــى ... أميـــل إلى المقـــارب والنـــسيب[4]
وتقـــرب في قبيـــل الفـــضل منـــي ... عـــلى بعـــد القبائـــل والـــشعوب
أكـــاد أريـــب فيـــك إذا التقينـــا ... مـــن الأنفـــاس والنظـــر المريـــب
وأيـــن وجـــدت مـــن قـــبلي شـــبابًا ... يحـــن مـــن الغـــرام عـــلى مـــشيب؟
إذا قـــرب المـــزار فأنـــت منـــي ... مكـــان الـــروح مـــن عقـــد الكـــروب
وإن بعـــد اللقـــاء عـــلى اشـــتياقي ... ترامقنـــا بألحـــاظ القلـــوب[5]

---

(١) نزا القلب: وثب، والوجيب: الخفوق.

(٢) المِراح: بكسر الميم هو النشاط والتبختر، والقليب: البئر، والمعنى أنه يفرح حين يبشر بقرب صديقه كما يفرح الركب الظامئ حين يبشر بقرب الماء بعد أن يطول ظمؤه خمسة أيام، وهو خيال بدوي.

(٣) الندوب: جمع ندب بفتح النون وهو الجرح.

(٤) في الديوان (أشكوك) وهو تحريف، والشكول: الأمثال، قال المتنبي: ليالي بعد الظاعنين شكول. وقد وردت صوابًا في الدالية التي رثى بها الصابئ (فقدت ملاءمة الشكول بفقده).

(٥) في مثل هذه المعاني يقول التوحيدي:

إذ تلاحظنـــا تـــساقينا كـــأس المـــودة ... وإذا تـــصادمنا تناجينـــا بلـــسان الثقـــة

وهذا القلب الألوف كان يحمل الشريف الرضي على انتهاب أيام التلاقي خوفًا من عدوان الزمان، وإنا لنراه يتعجل لقاء بعض إخوانه فيقول:

أأخـيّ مـا اتـسع الزمـا ... ن عـلى جماعتنـا وضـاقا
إلا ليعقبنـا اجـتما ... عًـا بالنوائـب وافتراقـا
سـابق فلـيس نـال أغـ ... ـراض المنـى إلا سـباقا
مـن قبـل أن تـرد الخطـو ... ب عـلى مودتنـا طراقـا[1]
فأزيـد بعـدًا مـن لقـا ... ئـك كلـما ازددت اشـتياقا
وأرك تمنحنـي الـصدو ... د وبعـد لم أنـو انطلاقـا
إن كـان ذا خـوف الفـرا ... ق فقـد تعجلـت الفراقـا

وهذا القلب الألوف هو الذي كان يقفه موقف الصابر المتخشع وهو يعاني تقلبات القلوب، وإلا فكيف جاز لمثله على إبائه أن يقول:

عزيـزي ممـن ذم عهـدي وقـد نبـا ... مـرارًا وقلبـي وادع لا يذمـه
تجـرّم لمـا لم يجـد لي زلـة ... وأقـصدني بـاللوم والجـرم جرمـه[2]
تعمدت بعـدي عنـه مـن غير سلوة ... ليعلمنـي يـوم النـوى كيـف طعمـه
وأجمتـه لا عـن غنـاء وإنـما ... لأشربـه في حـر خطـب أجمـه[3]
وإني وإن والى عـلى القلـب حربـه ... لمنتـصر أن يعقـب الحـرب سـلمه
ولا تيأسـن مـن عفـو حـر فـإنما ... تحلمـه بـاق إذا ضـاع حلمـه
أأطمـع أن أنـساك يومًـا وإنـما ... هـواك ضـجيج القلـب منـي وحلمـه
يقـر بعينـي منظـر أنـت قيـده ... ويعتـق قلبـي مطلـب أنـت غنمـه

انظر ص١٤٢ من الجزء الثاني من كتاب (النثر الفني).

(١) الطراق: بالكسر التتابع.

(٢) تجرم: تجبى.

(٣) أجمته: تركته يجم ويغزر، أصل العبارة في الماء ثم نقلت إلى الود والمعروف.

وللشريف أشعار كثيرة في الصفح عن ذنوب الأصدقاء؛ ولكن الدهر كان يبتليه أحيانًا بإخوان لا تغفر لهم ذنوب، إخوان يميلون عليه مع الزمان فيسقونه كأس العلقم والصاب فنراه يتوجع بمثل هذا الشعر الحزين:

أمسى عليَّ مع الزمان أخ ... قد كنت آمل يومه لغد
من كان أحنى عند نائبة ... من والديَّ وأبر من ولدي؟
لم يثمر الظن الجميل به ... فقدي من الظن الجميل القدى[1]
لو كان ما بيني وبينكم ... بيني وبين الذئب والأسد
لأويت من هذا إلى حرم ... ولجأت من هذا على عضد
ولأصبحا في الروع من عددي ... كرما وفي اللأواء من عددي
ولمانعًا عني إذا جعلت ... نوب الزمان تهيض من جلدي[2]
أو كان ما قدمت من مقة ... سببًا إلى البغضاء لم يزد[3]
بل لو قذفت بمدحتي لكم ... في البحر ذي الأمواج والزبد
لرمى إليَّ أشف جوهرة ... وسقى بأعذب مائه بلدي
فلأجعلنَّ عقوبتي أبدًا ... أن لا أمد يدي إلى أحد
فتكون أول زلة سبقت مني ... وآخرها إلى الأبد

وهذه الزارة تنقلنا إلى أشعاره في الثورة على الغادرين، فنراه أحيانًا يقف موقف اليائس من صحة الود فيقول:

تجاذبني يد الأيام نفسي ... ويوشك أن يكون لها الغلاب
وتغدر بي الأقارب والأداني ... فلا عجب إذا غدر الصحاب

أو يقول:

---

(١) قدي: حسبي، وكفى.
(٢) تهيض: تكسر وتجرح.
(٣) المقة: بكسر الميم الحب وهي من ومق.

لأي حبيب يحسن الرأي والود ... وأكثر هذا الناس ليس له عهد؟
أكل قريب لي بعيد بوده ... وكل صديق بين أضلعه حقد؟

أو يقول:

أشكو النوائب ثم أشكر فعلها ... لعظيم ما ألقى من الخلان
وإذا أمنت من الزمان فلا تكن ... إلا على حذر من الإخوان
كم من أخ تدعوه عند ملمة ... فيكون أعظم من يد الحدثان!!

وكان للشريف أصدقاء تعوزهم شجاعة الرجال، فيسمحون لزوارهم باغتيابه، وكانت الأخوة توجب أن يدفعوا عنه أوضار الاغتياب، وقد وجه الكلام إلى أحد هؤلاء فقال:

ما رفع الواشون فيّ ولفقوا ... قل لي فأما حاسد أو مشفق[1]
في كل يوم ظهر داري مغرب ... لكلامهم وجبين دارك مشرق
وإلى متى عودي على أيديهم ... ملقى ينيب دائمًا ويحرّق[2]
كم يسبك الذهب المصفى مرة ... قد لاح جوهره وبان الرونق
يحلو لهم عرضي فيسترطونه ... ويصل عرضهم الذليل فيبصق[3]
نفضوا عيوبهم عليّ وإنما ... جدوا مصحافي الأديم فمزقوا[4]
من لي بمن إن بان عيب خليله ... غطاه من شانيه أو من يصدق؟
وإذا الحليم رمى بسر صديقه ... عمدًا فأولى بالوداد الأحمق
جار الزمان فلا جواد يرتجى ... للنائبات ولا صديق يشفق

---

(١) الإشفاق: هنا هو الحنين.
(٢) ينيب: يعض بالأنياب.
(٣) يسترطونه: يبتلعونه، وسرطه كذلك، ويصل: ينتن، يقال: صل وأصل؛ والمعنى أن لحمي طاب؛ فأكلوه، وأنتنت لحومهم فبصقها الناس.
(٤) الأديم الجلد: ولا يمزق إلا الجلد الصحيح.

وطغى علي فكل رحب ضيق إن جُلت فيه وكل حبل يخنق[1]

والشريف الذي يجيد حوك العتاب كان في بعض أحواله يكره العتاب.

أعني: إنه ينكر على إخوانه أن يعاتبوه، وهذا وجه آخر من صور النفس، كأن الشريف كان يرى نفسه فوق العتاب، أو كأنه كان يرى أن مثله لا يحتاج في رعاية الود إلى عتاب؛ ولكن الحالة التي سنشير إليها ويختلط فيها العتب بالوعيد، وهي تشرح أصول العداوات التي عانها الشريف، والظاهر أنه كان كأكثر الناس يبغض من حيث كان يحب، فأكثر أعدائه هم في الأصل أصدقاء قدماء، ولا يبتلى الرجل بمحنة أشق من معاداة إنسان كان يراه قبلاً بعين الصديق.

وشواهد هذه الحالة النفسية كثيرة في شعر الشريف؛ ولكنا نكتفي بالقطعة الآتية:

نهنه عتابك إلا إن هفا جرم بعض العتاب على الإخلاص متهم
ما لي أقول فلا تصغي بسامعة تصامم بك عن ذا القول أم صمم
رفقًا بأنفك لا تشمخ على مضر وانظر بعينك من زمّوا ومن خطموا[2]
فلست أوّل من راقت له حلل ولست أوّل من راحت له نعم
من أضمر الصد عمن ليس يضمره بغيًا مشى في نواحي سره الندم
من أنهضته لقطع الود غدرته كان المذمم منه الكف والقدم
من ساء ظنًا بما يهواه فارقه وحرضته على إبعاده التهم
متى تجهم غدرًا سر عهدكم فإن عهدي على غدر بكم حرم

(١) في الديوان (قلت فيه) والأصوب ما أثبتناه.
(٢) زم الأنف وخطمه ضرب عليه الزمام والخطام، يصف مضر بقوة البأس.

أيها السادة ..

لقد ساقنا الكلام إلى ضجر الشريف الرضي من الناس، فلنتذكر أن هذا الرجل عانى في دهره أشق العداوات، وابتلته الحوادث بضروب من لؤم الخلائق؛ ولكنه تماسك وقارع خصومه قراع الفحول، وكان مع ذلك يعود إلى نفسه فيدرسها من حين إلى حين فيرى نفسه أعدى الأعداء، فهو بذلك من أحكم الناس إذ يقول:

أروم انتصافي من رجال أباعد ... ونفسي أعدى لي من الناس أجمعا

إذا لم تكن نفس الفتى من صديقه ... فلا يحدثن في خلة الدهر مطمعا[1]

ولو أنه ألح في ترديد هذا المعنى لكان له مكان بين أساتذة الأخلاق؛ ولكن يكفي أنه تنبه إلى هذا المعنى، فهو كان يدرك بوحي الفطرة أننا نؤذي أنفسنا قبل أن يؤذينا الناس، وأن الشر لا يسقط علينا سقوط المطر من السماء، وإنما نستدعي الشر عامدين بما نسرف في مكايدة الأنداد والنظراء، هو كان يفهم أنه يتطلع إلى انتهاب ما في أيدي الناس من المناصب العالية، كان يفهم أنه يحاول أمورًا لو طاعت له؛ لتبدلت في الجو السياسي والاجتماعي رسوم وشئون، كان يفهم أن أعلام الناس في عصره ليسوا أغبياء إلى الحد الذي يسمح بأن يجهلوا ما ينطوي عليه مثل صدره من غرض مبيت وسر مكنون.

والثورة على العيش الضيق وعلى حياة الخمول هي بداية الحرب بيننا وبين المجتمع، فمن شاء أن يعيش في سلام مطلق؛ فليكتف بأكل العشب في البيداء ثم ليحترس أيضًا؛ ففي البيداء خلائق تغار على ما فيها من مساقط الغيث ومنابت الأعشاب.

وكذلك نرى الشريف يتنبه إلى أسباب العداوة بينه وبين الناس ونراه

---

(١) الخُلة: بضم الخاء الصداقة المتينة.

يداري الأعداء خوفًا من عواقب اللجاجة في تهييج الضغائن والحقود، وهو الذي يقول:

تجـاف عـن الأعـداء بقيـا فـربما ... كفيـت ولم تعقـر بنـاب ولا ظفـر[1]
ولا تـبر مـنهم كـل عـود تخافـه ... فـإن الأعـادي ينبتـون مـع الـدهر
إذا شـئت أن تبقـى خليًـا مـن العـدا ... فعش عيش خـال مـن عـلاء ومـن وفـر
إذا أنـت أفنيـت العـرانين والـذرى ... رمتـك لليـالي عـن يـد الخامـل الغمـر[2]
وهبك أنقيت السهم من حيث ينقى ... فمن ليـدٍ ترميـك مـن حيـث لا تـدري؟

فهو بهذه الأبيات يقرر أن سبب العداوة هو بسطة الجاه والمال ويشير بمداراة الأعداء؛ لأن العداوة كالنار قد تخمد بعض الخمود إن سكتت عنها الريح أو تناستها أفواه النافخين، ويذكر أن الذي ينتصر على الأقوياء من الأعداء قد ترميه الليالي بأيد الضعفاء.

ولو كنَّا نعرف مصادر المخاوف في كل وقت؛ لدفعناها ولكن المخاوف تخفى مصادرها في كثير من الأحايين، فمن الحزم أن لا نعرِّض أنفسنا للعداوات وهي أسباب المعاطب والحتوف.

وفي هذه القطعة إشارة إلى معانٍ كثيرة. وليت الشريف احتفل بهذه المعاني كما يتفق له ذلك في كثيرٍ من الأغراض؛ ولكن هذه الإشارة تفهمنا أنه كان يخاف الضعفاء أكثر مما يخاف الأقوياء؛ لأن الأقوياء شرهم هين، إذ كانوا يحاربون بأسلحة الرجال، أما الضعفاء فشرهم أخطر وأفظع إذ كانوا يدبون بالوشايات والنمائم كما تدب العقارب في حلك الظلام، والعدو الضعيف مخلوق خطر؛ لأن الضعف علَّمه الدهاء، وبصره بأساليب الختل والخداع،

---

(١) البقيا: بمعنى الاستبقاء، وهو هنا صيانة النفس.

(٢) العرانين: جمع عرنين بالكسر وهو الأنف أو ما هو صلب من عظمه، والعرانين هنا الأشراف، والذرى: جمع ذروة وهي أعلا الشيء والغمر من لم يجرب الأمور.

وكان من السهل أن يعمد الأعداء الضعفاء إلى تهوين قدر الشريف في أنفس أهل العراق. ومثل الشريف كان يعتمد في حياته السياسية على قوتين: القوة الذاتية وحسن السمعة بين الناس.

وأعيذكم أن تظنوا أني أتكلف هذا الافتراض، ففي ديوان الشريف شواهد نعرف بها أنه كان مبتلى بأقوام يقرضون عرضه في الخفاء، وإلا فكيف نفسر سكوته عن وصف الخمر مع أن وصفها كان من المذاهب التي سنها شعراء العراق، وكان الشاعر العراقي يصف الخمر وإن لم تمسسها شفتاه؟ والشريف وصف الخمر فعلًا؛ ولكن ينص في صلب الديوان على أنه سئل وصفها فأجاب.

ولا تنسوا أن الشريف غلبت عليه الصفة الأدبية -بالرغم من منزلته العلمية التي قضت بأن يكون له مدرسة فيها طلاب يتلقون دروسه في الصباح والمساء- والصفة الأدبية حين تغلب على رجل؛ تعرِّض سمعته لسيئات الظنون، فقد كان شاع في البيئات العراقية أن الأدباء والشعراء قوم لا يهمهم غير الهيام بأودية الشياطين.

ولم يكن يَسُرُّ الشريف الرضي أن يقال: إنه يتخلق بأخلاق الشعراء؛ لأنه كان يرشح نفسه لمناصب دينية لا يصلح لها إلا المعرفون بطهارة السر والعلانية والمشهورون بالتقى والعفاف، وحسبكم أن تذكروا أنه كان يرشح نفسه لنقابة الأشراف وإمارة الحج وتولي القضاء، وهي مناصب شائكة توجب على من يسمو إليها أن يتخوف عواقب الأقاويل والأراجيف.

قد تسألون: وهل كان الشريف يكتم هذه المعاني؟

ونجيب بأنه كان يصرح بها في بعض الأحيان، كأن يقول:

وإني إذا أبدى العدو سفاهة ... حبست عن العوراء فضل لسانيا[١]
وكنت إذا التاث الصديق قطعته ... وإن كان يومًا رائحًا كنت غاديا[٢]

وكان يقول:

وإن مقام مثلي في الأعادي ... مقام البدر تنبحه الكلاب
رموني بالعيوب ملفقات ... وقد علموا بأني لا أعاب
وأني لا تدنسني المخازي ... وإني لا يروّعني السباب
ولما لم يلاقوا فيَّ عيبًا ... كسوني من عيوبهم وعابوا

وكأن يقول:

وجاهل نال من عرضي بلا سبب ... أمسكت عنه بلاعي ولا حصر
حميته عني المخازي أن أعاقبه ... كذاك تحمى لحوم الذرد بالدبر[٣]

وكان الشريف قد امتحن بجماعة من أقربائه يناصبونه العداء، ونحن نعرف أسباب تلك العداوة، فقد كانت هناك مناصب موقوفة على الأشراف، وكانت الحرب على تلك المناصب التي لا تنفك مسعرة الضريم، والهجوم على الأخوة وبنى الأعمام باب معروف في الشعر العربي، ولا يكاد يخلو منه ديوان فالشريف الرضي لا يبتدع هذا الفن؛ ولكنه مع ذلك لا يفتعل هذا الفن، ولا يقف فيه موقف المحاكين لعواطف القدماء، وإنما يعبر عن عواطف ذاتية أنبتها في صدره عنف الأهل ولؤم الزمان ولولا ذلك ما صح له أن يقول:

إذا أشر القريب عليك فاقطع ... بحد السيف قربى الأقرباء[٤]
وكن إن عنَّك القرباء ممن ... يميل على الأخوة للإخاء

---

(١) العوراء: الكلمة الفاحشة.
(٢) التاث الصديق: تغير وده.
(٣) الذود: جماعة الإبل، والدبر: بالتحريك قرحة تصيب الدواب.
(٤) أشر: هنا معناها حقد.

فـــرب أخ خليـــق بالتقـــالي ومغـــترب جـــدير بالـــصفاء

وأن يقول:

وقـــل لبنـــي عمنـــا الواجـــدين بنـــى عمنـــا بعـــض هـــذا الغـــضب[١]
أمـــا آن للراقـــد المـــستمر في ظلـــم الغـــيّ أن يـــستهب
سرحـــتم ســـفاهتكم في العقـــوق ولم تحلفـــوا الحلـــم لمـــا غـــرب[٢]
ولمـــا أرنـــتم إران الجمـــوح ومـــاج بكـــم حـــبلكم واضـــطرب[٣]
أقمنـــا أنـــابيبكم بالثقـــاف وداوى الهنـــاء مطـــال الجـــرب[٤]
ويـــا ربـــما عـــاد ســـوء العقـــاب عـــلى المـــذنبين بحـــسن الأدب

وأن يقول:

ومـــولى يعـــاطبني الكئـــوس تجمـــلًا وقـــد ودَّ لـــو أن العقـــار نجيـــع[٥]
خبـــأت لـــه مـــا بـــين جنبـــي فتكـــة دهتـــه ويـــوم الغـــادرين شـــنيع

وأن يقول

غمـــست يـــدي في أرم فمـــر لي؟ وأيـــن؟ بنـــزع كفـــي وانكفـــافي
كفـــاني أننـــي حـــرب لقـــومي وذلـــك لي مـــن الـــضراء كـــافِ
حطمـــت صـــعادهم حتـــى استقاموا مجـــازرة بهـــم جنـــدُ الثقـــاف[٦]

---

(١) الوجد: هنا معناها الحقد.
(٢) غرب: غاب.
(٣) الإران: فورة النشاط.
(٤) الأنابيب: جمع أنبوب بضم الهمزة وهو كعب الرماح، والتثقف تسوية الرماح. والهناء: على وزن كتاب هو القطران وبه يداوى جرب الإبل.
(٥) النجيع: الدم المائل إلى السواد، أو هو دم الجوف.
(٦) الصعاد جمع صعدة وهي القناة المستوية تنبت كذلك.

obeikandl.com

فصرت لزمهم غرضًا رحيًا ... يرامون بمثل حصا القذاف[1]
وأكذب بالتصون مدعيهم ... وألجم قائليهم بالعفاف
ولو أني أطعت الرشد يومًا ... لأبدلت التحامل بالتجافي
وأغضيت اللواحظ عن ذنوب ... وموضعها لعيني غير خافِ
ولكنَّ الحمية فيَّ تأبى ... قراري للرجال على التكافي
وأنظر سبة وعظيم عار ... رضاي من المنازع بالكفاف
ولو أني رميت أصاب سهمي ... ولكنى ألقب عن شغافي[2]
فما سهمي السديد من النوابي ... ولا باعي الطويل من الضعاف
ولي أنف كأنف الليث يأبى ... شميمى للمذلة واستيافي[3]
وقد عرف العدا وبلوا قديمًا ... خطاي إلى المنايا وازدلافي
لي العزم الذي قد جربوه ... يقدّ مضارب البيض الخفاق
أفلوا-لا أبا لكم- وخلوا ... مطاعنة الأسنة بالأشافي[4]
فقد مدت غيابات المخازي ... على عرصاتكم مد الطراف[5]
صفوت لكم فرنقتم غديري ... وأي مضاغن رجع المصافي
ويوشك أن تقام على التقالي ... أنابيب رجعن إلى التصافي
مضى زمن التمازج والتداني ... وذا زمن التزايل والتنافي
لئن أعلى بناءكم اصطناعي ... فسوف يثل عرشكم انحرافي

---

(١) حصا القذاف -على وزن كتاب- ما يرمى بالمنجنيق. ويرامونني: يرامونني، حذفت إحدى النونين للتخفيف، وهذا كثير جدًا في أشعار الشريف كأن يقول:

سيذكروني إن نبا جانب ... من العدا وانحل عقد الزمام

(٢) الشغاف: على وزن سحاب وهي غلاف القلب.
(٣) الاستياف والسوف: الشم.
(٤) الأشافي: جمع الإشفى بكسر الهمزة وهو المثقب يخرز به.
(٥) الطراف: على وزن كتاب بيت من أدم.

أداري داءهم فيزيد خبثًا ... وليس لداء ذي البغضاء شاف
حنوت عليهم ولرب حانٍ ... على جانٍ وإن بعد التلاقي
فما تغني القوادم من جناح ... تحامل إن قعدن به الخوافي
وعندي للزمان مسوّمات ... من الأشعار تخترق الفيافي
بوارد للغليل كأن قلبي ... يعبّ بهن في برد النطاف
أسر بهن أقوامًا وأرمي ... أفيوامًا بثالثة الأثافي[1]

ويهمُّني أن أوجه أنظاركم إلى قوله في هذا القصيد:

وأكذب بالتصون مدعيهم ... وألجم قائليهم بالعفاف

فهو يؤيد ما افترضناه من قبل، ويبين لكم أن الشريف كان يعرف أن هناك جماعة من الأنذال يسوئون سمعته ويذيعون عنه الأباطيل؛ ليغضوا من قدره بين الناس، فيخلو لهم الجوّ إذ يقضي عليه التجريح لآثم بالخروج من الميدان.

أيها السادة ..

في ديوان الشريف أشعار كثيرة عن الأقارب والأصدقاء الذين يعرفون الرجل في أيام النعماء، وينكرونه في أيام البأساء، وهي أشعار جيدة؛ ولكنها في مراميها لا تُعَدُّ من المبتكرات؛ لأنها مما تعاورته سهام الشعراء في القديم والحديث.

فلنترك هذه الناحية ونقف لحظة عند الأزمة التي وقعت بين الرضي وأخيه المرتضى.

لا تحدثنا كتب التراجم عن أسباب الجفوة التي وقعت بين ذينك الأخوين

(١) المراد بثالثة الأثافي: الداهية، وثالثة الأثافي هي في الأصل الجبل؛ وذلك أنهم كانوا إذا لم يجدوا ثالثة الأثافي أسندوا القدر إلى الجبل، الأثفية: بالضم والكسر الحجر توضع عليه القدر.

ولكننا نعرف أنهما لم يكونا مؤتلفين كل الائتلاف؛ لأن مذاهبهما في الحياة كانت مختلفة بعض الاختلاف، ويمكن الحكم بأن الرضي كان جمهوره من أهل الأدب، وأن المرتضى كان جمهوره من أهل العلم، وهنا تظهر أسباب المنافسة بين الأخوين، فالرضي الشاعر كان عالمًا جليلًا، والمرتضى العالم كان شاعرًا مجيدًا، ولا ندري متى يأتي الزمن الذي يسمح بأن نحدد خصائص هذين الأخوين، ونبين ما يشتركان فيه، وما يتفرَّد به كلٌّ منهما تفردًا لا يتطرق إليه الخلاف.

ولكن لا مندوحة من تقرير الواقع المؤلم، وهو أن ذينك الأخوين عرفا كدر الأخوة بعد الصفاء، وإن جهلنا حقائق الأسباب، ولكن أي كدر؟!

تصوروا حال الشريف الرضي الذي مدح أخاه بكثير من القصائد الجياد، وامتزج بحياته البيتية امتزاج الماء بالصهباء، تصوروا حاله وهو يسمع أخاه يمسه بقوارص الاغتياب.

وهل في الدنيا وجه أقبح من وجه الأخ الذي يغتاب أخاه؟ إنها بلية دميمة لا يضن بها دهر الغادر على كرام الرجال، وقد شرب الرضي كئوس العلقم من يد الزمان، رأى من البلايا ما أنطقه بالشعر وهو في العشر من سنيه ورماه بالشيب وهو في سن العشرين!

ولكن هل تجور الدنيا إلى هذا الحد فيرى أخاه الشقيق وهو يمضغ عرضه بلا تورع ولا استحياء؟ هل تفسد الدنيا هذا الفساد فنرى المرتضى والرضي يتباغضان ويتحاقدان بعد أن جمعتهما الأيام تحت جناحي أمٍّ رَءُوم تروضهما على المودة والعطف وهي ترى الدنيا في وجهيهما حين زج زوجها في غياهب الاعتقال!

ما هي الأخيلة التي طافت برأي الشريف وهو يعادي أخاه؟

إن الجبال أخف وزنًا من الهموم التي تساور الشاعر حين يبغض من

يحب، والسم أحلى مذاقًا من ورود الشاعر بحر القطيعة، قطيعة الأخ المحبوب، فماذا صنع صديقنا الشريف الرضي في تلك الأيام السود؟!

ما الذي عاناه وهو يستعد لذلك النضال المشئوم؟!

وما هو الغم الذي سيطر عليه حتى استباح لنفسه أن يهجم على أخيه؛ وهو يعلم أن ذلك الأخ هو كل ما بقي له من الثروة الروحية في زمنٍ كان يزخر بالمهالك والخطوب؟

ولا تنسوا أيها السادة أننا نتحدث عن شاعر كان يعيش في بغداد في النصف الثاني من القرن الرابع، وهو من أقسى العصور التي عانتها بغداد؛ لأنها لم تكن تختار ملوكها ولا وزراءها في ذلك العهد، وإنما كانت تفرض عليها الملوك وفقًا لعدوان المطامع بين الديلم والأتراك، ولم يبقَ لأهل بغداد من أسباب الجاه إلا ما توارثوه من المناصب بفضل التقاليد، وكان من أهم ما توارثوه مناصب القضاء، وكانت هذه المناصب مما يملك الفقهاء البغداديون السنيون والشيعيون فلم يكن بدٌّ من أن يتعاطفوا وتشيعُ بينهم القلة الحسنة والصيت الجميل.

فإذا نقل الواشون إلى الرضي أن أخاه المرتضى يسلقه في غيبته بلسان حديد؛ فإنما يصورون له مجدًا يتقلص وملكًا يضيع.

وماذا يبقى للرضي إن ضاعت منه مودة ذلك الشقيق؟!

هو مع الملوك في حرب، ومع الخلفاء في حرب، ومع المنافسين في نضال والعراق على اتساع حواضره وبواديه يضيق عن تأسيس الثروة والمجد من جديد لأن الثورات لم تترك فيه مجالاً لأيدي الفلاحين فضلًا عن الشعراء والعلماء.

اعذروني أيها السادة إذا وقفت عند هذه المعضلة النفسية، فأنا أحب أن أعتذر عن الشريف الرضي، أحب أن أقول: إنه لم يهجم على أخيه إلا بعد أن ضاقت في وجهه مسالك الصفح الجميل، وكان في مقدوري أن أحكم بأن أهل العراق قوم تغلب عليهم دقة الإحساس، فهم يغضبون لأول بادرة؛ ولا يفكرون في العواقب عند الصيال؛ ولكن ماضي العراق يشهد بأن أهل العراق كانوا من أشوق الناس إلى درس أصول الحب والبغض، فمن العسير أن نصدق أن الرضي هجم على أخيه إلا بعد أن طفح الكيل، وعزَّ الوفاق.

ولكن ما بالنا نشغل أنفسنا بهذه الدقائق النفسية؟ يكفي أن نعرف أن الرضي عرف في حياته لونًا أسود هو الاضطغان على الأخ الشقيق، وأنه لم يرد ذلك المورد إلا وهو آسف محزون، وقد نظم في ذلك قصيدة ضادية هي أعظم ما نظم في قافية الضاد: وقد تأثر بهذه الضادية التي اختارها أبو تمام في الحماسية، فجاءت ضاديته أبلغ وأروع، والشعراء يعدي بعضهم بعضًا بالعواطف والأحاسيس، ولننظر كيف يقول:

رضيت من الأحباب دون الذي ... ودانيت من تقضي الديون ولا يقضي
وقد أنهرت فيّ الليالي جراحها ... مرارًا وأضناني من الهم ما ينضى[1]
طوى الدهر أسباب الهوى عن ... وحل الصبا عقد الرحائل عن نقضى[2]
ولم يبق لي في الأعين النجل طربة ... ولا أرب عند الشباب الذي يمضي
ضحا اليوم عن ظل الشبيبة مفرقي ... وأبدل مسودّ العذار بمبيض[3]
أتاني وممطول من النأي بيننا ... قوارص تنبو بالجفون عن الغمض[4]

---

(١) أنهر الجرح: وسَّعه. وأنضاه: أهزله وأضناه.
(٢) النِّقض: بالكسر المهزول من السير.
(٣) ضحا: برز للشمس، والمفرق بفتح الراء وكسرها وسط الرأس وهو الذي يفرق من الشعر.
(٤) القوارص: الكلمات الجافية.

ومولى ورى قلبي بلذعة ميسم ... من الكلم العوراء مضاعل مض[١]
فعذرًا لأعدائي إذا كان أقربي ... يشذبُ من عودي ويعرق من نحضى[٢]
إذا ما رمى عرضي القريب بسهمه ... عذرت بعيد القوم لما رمى عرضي
ألم يأته أني تفردت بعده ... روابي للعلياء جاش لها نهضي؟
وأني جعلت الأنف من كل حاسد ... قبالي وخدي كل مضطغن أرضى[٣]
وكم من مقام دون مجدك قمته ... على زلق بين النوائب أو دحض![٤]
وقارعتُ من أعياك قبل قراعة ... فدامجني بعد التشارر والبغض[٥]
لقد أمست الأرحام منا على شفا ... فأخلق بمشفٍ لا يعلل أن يقضى[٦]
رأيت مخيلات العقوق مليحة ... فلا تجعلن برق الأذى صادق الومض[٧]
ولا تشمتن من ودّ لو أننا معًا ... شجيجان تلطينا الجنادل بالأرض[٨]
إذا كنت أغضي والقواذع جمة ... فمثلك أرلى أن يرمَّ وأن يغضى[٩]
على غصص لو كنَّ في البدر لم ينر ... وفي العود لم يورق وفي السهم لم يمضِ
رزئتك حيًّا بالقطيعة والقلى ... وبعض الرزايا قبل يوم الفتى المفضي

---

(١) المولى: القريب، ورى القلب: كواه، والميسم: ما يكوى به.
(٢) يشذب: يقطع، والنحض: اللحم.
(٣) القبال: على وزن كتاب هو من النعل زمام بين الأصابع الوسط والتي تليها.
(٤) الدحض: قريب في معناه من الزلق.
(٥) دامجة: هنا معناه صالحه، والتشارر فك إدغامها للوزن، وهذا يقع كثيرًا جدًا في شعر الشريف، وفي نسخة الديوان (التشاور) وهو تحريف.
(٦) الشفا: حرف كل شيء؛ يريد أن الأرحام أصبحت على شفا الهاوية والمشفى المشرف على الهلاك، ويعلل: يعال، ويقضي: يموت.
(٧) المخيلات: جمع مخيلة وهي من أخيلت السماء إذا تهيأت للمطر، والمليحة من ألاح البرق إذا أومض.
(٨) الشجيجان مثنى شجيج وهو المجروح ، وفي الديوان (شحيحان) بحاءين مهملتين وهو تحريف.
(٩) يرم: يسكت.

أناديك فارجع من قريب فإنني ... إذا ضاق بي ذرعي مضيت كما تمضى[١]

لقد كان في حكم الوشائج لو رأى ... عن المجد بطيء أن يبالغ في حضى[٢]

فكيف ولم تحرج منادیح همتي ... ولا ذمت العلياء بسطي ولا قبضي[٣]

إذا هو أغضى ناظريَّ على القذى ... وكان لمثلي مسخطًا فلمن يرضي؟

خليلي ما عودي لأول غامز ... ولا زبد وطبي للمقيم على مخضى[٤]

فقل للعدا عضوا الأخامص إنكم ... تعرفتم الأيدي عليّ من العض[٥]

هن نقضوا ما قد بنى أولوهم ... وشدنا وهيهات البناء من النقض

أفي كل يوم يصبغ العار منهم ... رداء امرئ والعار باقٍ على الرحض؟[٦]

يريدون أن يخفوا النواقر بيننا ... وقد صاحت الأضغان في الحدق المرض[٧]

ذكرت حفظي والحفيظة في الحشا ... لها نغضان العرق يحفز بالنبض

دعوتكم قبل التي لا شوى لها[٨] ... وقلت لكم فيئوا إلى الخلق المرضي

ردوني نميرًا قبل أن أحمل القذى ... فلا تردوا إلا على الثمد البرض[٩]

ولسوا جميمي قبل أن يمنع الحمى ... إبائي أو يوبي على رعيكم حمضى[١٠]

---

(١) هذا بيت القصيد.

(٢) الوشائج: جمع وشيجه وهي هنا رباط القرابة.

(٣) تحرج: تضيق. وفي الديوان (تخرج) بالخاء المعجمة وهو تحريف، والمناديح: المسالك.

(٤) الغامز: الذي يختبر العود، والوطب: سقاء اللبن وهو من جلدٍ. والمخض: أخذ الزبد من اللبن.

(٥) الأخامص: جمع الأخمص وهو من باطن القدم ما لا يصيب الأرض، والتعرق: أكل اللحم.

(٦) الرحض: الغسل.

(٧) النواقر: جمع ناقرة وهي الداهية والمراد بها الحقد.

(٨) قبل التي لا شوى لها: أي قبل الضربة القاضية.

(٩) النمير: الماء الصافي، الثمد: بسكون الميم ويحرك بقية الماء، والبرض: القليل.

(١٠) اللس: الأكل واللحس ونتف الدابة الكلأ بمقدم فمها، والجميم: النبت الكثير أو الناهض المنتشر، يوبي: يفسد، والحَمض: بالفتح ما ملح وأمر من النبات وهو للإبل

ومن قبل أن يسدي المعادون بيننا ... برود الخنا ما شئت في الطول والعرض[١]
ولا تركبوا سيساء دامية القرا ... بلا حقب تطوي البلاد ولا غرض[٢]
تقوا عار حرب لا يعود مثيرها ... وإن غلب الأقران إلا على رمض[٣]
ولا تولجوا زور العقوق بيوتكم ... أناشدكم بالله في الحسب المحض
أراها بعين الظن حمراء جهمة ... ستجري إلى عار العواقب أو تفضي
تهضمني من لا يكون لغيره ... من الناس إطراقي على الهون أو غضي
أفوّق نبل القول بيني وبينه ... فيؤلمني من قبل نزعي بها عرضي[٤]
وأرجع لم أولغ لساني في دمي ... ولم أدم أعضائي بسنهش ولا عض
إذا اضطرمت ما بين جنبي غضبة ... وكان فمي يمضي من القول ما يمضي
شفعت على نفسي بنفسي فكفكفت ... من الغيظ واستعطفت بعض على بعض

ولم تطل الجفوة بين الأخوين؛ فكتب المرتضى إلى أخيه الرضي قصيدة جيدة نتخير منها الأبيات الآتية:

تكشف ظل العتب عن غرة العهد ... وأعدى اقتراب الوصل منا على البعد
تجنبني من لست عن بعض هجره ... صفوحًا ولا في قسوة عنه بالجلد
نضته يد الأعتاب عما سخطته ... كما ينتضي العضب الجراز من الغمد[٥]
وكنت على ما جرَّه الهجر ممسكًا ... بحبل وفاء غير منفصم العقد
أمين نواحي السر لم تسر غدرة ... ببالي ولم أحفل بداعية الصد

كالفاكهة للإنسان.

(١) يسدي من السدى: وهو ما مد من الثوب.

(٢) السيساء: بالكسر حارك الفرس وظهر الحمار. والقرا: الظهر، والحقب بالتحريك الحزام أو حبل يشد به الرحل. والغرض للرحل كالحزام للسرج.

(٣) تقوا: اتقوا، والرمض: شدة وقع الشمس على الرمل.

(٤) فوق النبل: رماه مسددًا.

(٥) الأعتاب: الترضية.

تلين على مس الإخاء مضاربي ... وإن كنت في الأقوام مستخشن الجد[١]

ولما استمر البين في عدوائه ... تغول عفوي أو ترقى إلى جهدي[٢]

أصاحب حسن الظن والشك مقبل ... بوجهي إلى حيث استمرت غرى الود[٣]

إذا اتسعت في خطة الصد فكرتي ... تجللني هم يضيق به جلدي

وإن ناكرتني خلة من خلاله ... تعرض قلبي بفتديها من الحقد[٤]

يخال رجال ما رأوا لضلالة ... ولن تستشف بالأعين الرمد

إذا تركت يمنى يديك تعلقي ... فيا ليت شعري من تمسك من بعدي!

إيابًا فلم تشرف على غاية النوى ... ولم تنأ كل النأي عن سنن القصد

ولو لم يلاقى الزند قدحًا بمثله[٥] ... لما انبعثت شهب الشرار من الزند

هلمَّ نعد صفو الوداد كما بدا ... إعادة من لم يلف عن ذاك من بد

ونغتم الأيام فهي طوائش ... تواتي بلا قصد وتأبى بلا عمد

ومثلك أهدى أن يقاد إلى الهدى ... وأرشد أن ينحاز عن جهة الرشد

وقد انعطف الرضي حين وصلت إليه هذه القصيدة وجنح إلى السلم؛ فأرسل إلى أخيه قصيدة طويلة؛ نكتفي منها بالقطعة الآتية:

وأعظم ما لاقيت شجوًا ولوعة ... عتاب أخ قلَّ الزمان به حدي!

أقيك الردى ما كان ما كان عن قلي ... ولكن هنات كدن يلعبن بالجد[٦]

---

(١) في الديوان (مستحسن) بالسين والحاء المهملتين وهو تحريف.

(٢) العُدَواء: بضم العين وفتح الدال، الشدة، وهي في الأصل الأرض الصلبة.

(٣) استمرت: قويت، وفي الأصل (استترت) وهو تحريف، وقد تكلف شارح الطبعة البيروتية، والصواب ما أثبتناه.

(٤) الخَلة: بالفتح الخصلة.

(٥) في الديوان: ولم لا يلاق القدح زندًا بمثله وهو شطر محرف.

(٦) في الديوان (بالجلد) وهو تحريف.

ولا تحسبن العتب جازت كلومه[1] إلى القلب إلا بعد ما حز في الجلد
منحتك ما عندي من الصد معلنًا وعقد ضميري أن أداوم على الود
وقد كنت أبغي رتبة بعد رتبة فآنف لي من أن أفوز بها وحدي
حفاظًا على القربى الرءوم وغيرة على الحسب الداني وبقيا على المجد
حسدت عليك الأجنبين محبة ونافست فيك الأبعدين على الود
وقد كان لذع فألقيت شباته بقلب على الضراء كالحجر الصلد[2]
تجلدت حتى لم تجد في مغمزًا وعدت كما عاد الجزار إلى الغمد
وهأنا عريان الجنان من التي تسوء ومنقوض الضلوع من الوجد
أفلّب عينًا في الإخاء صحيحة إذا ارتمت الأعداء بالأعين الرمد
وإني مذ عاد التودد بيننا تجلى الدجى عن ناظري ووري زندي
وعاد زماني بعد ما غاض حسنه أنيقًا كبرد العصب أو زمن الورد[3]
وكنت سليب الكف من كل ثروة فأصبحت من نيل الأماني على وعد
وفارقت ضيق الصدر عنك إلى الرضا كما نشط المأسور من حلق القد
وقد ضمني محض الصفاء وصدقه إليك كما ضمت ذراع إلى عضد

أيها السادة ..

لقد كان الرضي شاعرًا يرضى ويغضب، ويخشن ويلين، وكان يأسره الشوق إلى الصديق فيقول:

لقاؤه جرَّ عليَّ الفراق وما زادني القرب إلا اشتياقًا
جلوت عليّ هدي الوداد فأسلفتها بالقبول الصداقا[4]
وأسرفت بالبشر حتى ظننـ ـت أنك أضجعت فيه النفاقا

---

(١) الكلوم: جمع كَلم بالفتح وهو الجرح.
(٢) الشباة: إبرة العقرب وحد كل شيء.
(٣) العصب: ضرب من البرود.
(٤) الهدى: على وزن غني العروش.

وحاشاك من تهمة في المغيب ... فكيف حضور يضم الرفاقا؟
وكان الزعيم بهذا الإخا ... ء يومًا حسوناه كأسًا دهاقًا
نحرنا الدنان على صدره ... فلله أي دماء أراقا!!
شرقنا بلذاته والسرور ... يلوي إزارًا ويرخي نطاقا
سقى الله دهرًا حبانا الودا ... د مبتدها فشكرنا العراقا
وما زلت أعجب من حفظه ... لنا القرب حتى نسينا الفراقا!!
أنقتص من جسدي بالبعاد ... وما زود الباع منك العناقا

وكان يغضب على المغتابين فيقول:

وغر آكل بالغيب لحمي ... وإنَّ لأكله داء عياء
يسيء القول إما غبت عنه ... ويحسن لي التجمل واللقاء
عبأت له وسوف يعب فيها ... من الضراء آنية ملاء

وكان يوازن بين عداوة الأقارب وعداوة الأباعد فيقول:

للذل بين الأقربين مضاضة ... والذل ما بين الأباعد أروح
وإذا رمتك من الرجال قوارص ... فسهام ذي القربى القريبة أجرح

وكان يتشبث بأبناء عمه فيقول:

إذا لم يكن لي ناصر من عشيرتي ... فلي من يد المولى وإن ذلَّ ناصر[1]
وإني وإن قلُّوا لمستمسك بهم ... وقد تمسك الساق المهيض الجبائر[2]

أو يقول:

لويت إلى ود العشيرة جانبي ... على عظم داء بيننا متفاقم

---

(١) المولى: ابن العم.
(٢) الجبائر: جمع جبيرة وهي العيدان التي تجبر بها العظام.

ونمت على الأضغان حتى تلاحمت ... جرائف هاتيك الندب القدائم[1]
وقلمت أظافري وكنت أعدها ... لتمزيق قربى بيننا والمحارم
وروَّحت علمي بعد ما عزبت به ... ذنوب بني عمي عزوب السوائم
وأوطأت أفول الوشاة أخامصي ... وقد كان سمعي مدرجًا للسمائم

أو يمن عليهم بالحلم فيقول:

بني عمي وعزّ علي يميني ... من الضراء ما لقيت شمالي
أعود على عقوقكم بحلمي ... إذا خطر العقوق لكم ببالي
أروني من يقوم لكم مقامي ... أروني من يقول لكم مقالي
ومن يحمي الحريم من الأعادي ... ومن يشفي من الداء العضال
يشايح دونكم يوم المنايا ... ويرمى عنك يوم النضال[2]
وربَّ قوارص نكتت جناني[3] ... أشدُّ عليَّ من صرد النبال[4]
صبرت لها ولم أردد مقالاً ... فكان جزاء قائلها فعالي

أو يهددهم فيقول:

هبوا أصولكم أصلي على مضض ... ما تصنعون بأخلاق تنافيني؟
كم الهوان كأني بينكم جمل ... في كل يوم قطيع الذل يحدوني
لا تأمن عدوًا لان جانبه ... خشونة الصلة عقبى ذلك اللين
واحذر شرارة من أطفأت جمرته ... فالثأر غض وإن بقي إلى حين
إني تهيب بي البقايا وأتبعها ... فكم أباقي بها من لا يباقي!!
توقعوها فقد شبت بوارقها ... بعارض كضريم الليل مدخون

---

(١) الجوائف: جمع جائفة وهي طعنة تبلغ الجوف.
(٢) يشايح: يقاتل.
(٣) النكت: الضرب.
(٤) الصرد: وقع، وهو أيضًا مسمار في السنان يشك به الرمح.

إذا غـــدا الأفـــق الغـــربي مختمـــرًا ... مـــن الغبـــار فظنـــو بي وظنـــوني

أو يصارحهم بالقطيعة فيقول:

قـد يقـدع المـرء وإن كـان ابـن عـم ... ويقطـــع العـــضو الكـــريم لـــلألم

أو يعلن اليأس من الناس جميعًا فيقول:

أكـــرّ طـــرفي فـــلا أرى أحـــدًا ... إلا مغيظًـــا عـــليَّ مـــضطغنا

ينـــبض لي مـــن لـــسانه أبـــدًا ... نـــصال ذم تمـــزق الجننـــا

أيها السادة ..

تلكم صورة نفسية تمرّ بخواطر الشعراء، ولها في الشعر القديم والحديث أمثال؛ ولكن الشريف تفرد بقصيدة يتيمة لم يقل مثلها أحد من القدماء والمحدثين فكان أوحد الناس في الدعوة إلى استبقاء الصديق، إذ يقول:

وكم صاحب كالرمح زاغت كعوبة ... أبـى بعـد طـول الغمـز أن يتقوما

تقبلـــت منـــه ظـــاهرًا متبلجًـــا ... وأدمـــج دوني باطنًـــا مـــتجهمًا

فأبدى كـروض الحـزن رقـت فروعـه ... وأضـــمر كالليـــل الخـــداريّ مظلـــمًا[1]

ولـــو أنـــني كـــشفته عـــن ضـــميره ... أقمـــت عـــلى مـــا بيننـــا اليـــوم مأتمًـــا

فـــلا باســـطًا بالـــسوء إن نـــالني يـــدًا ... ولا فـــاغرًا بالـــذم إن رابنـــي فـــما

كعـضو رمـت فيـه الليـالي بقـادح[2] ... ومـــن حمـــل العـــضو الأليـــم تألمـــا

إذا أمـــر الطـــب اللبيـــبَ بقطعـــه ... أقـــول عـــسى ضـــنًّا بـــه ولعلـــما

صـبرت عـلى إيلامـه خـوف نقـصه ... ومـن لام مـن لا يرعـوي كـان ألومـا

هـي الكـف مـض تركهـا بعـد دائهـا ... وإن قطعـت شـانت ذراعًـا ومعـصما

أراك عـلى قلبـي وإن كنـت عاصـيًا ... أعـــزّ مـــن القلـــب المطبـــع وأكرمـــا

---

(١) الخداري: بالضم المظلم.

(٢) القادح: أكال يقع في الشجر والأسنان والصدع في العود.

حملتك حمل العين لجّ بها القذى ... فلا تنجلي يومًا ولا تبلغ العمى
دع المرء مطويًا على ما ذممته ... ولاتنشر الداء العضال فتندما
إذا العضو لم يؤلمك إلا قطعته ... على مضض لم تبق لحمًا ولا دما
ومن لم يوطن للصغير من الأذى ... تعرض أن يلقى أجل وأعظما[1]

(١) في الطبعة الثانية من كتاب (الموازنة بين الشعراء) بيان الأصول التي أخذ منها الشريف الرضي هذا المعنى الجميل، فليرجع إليه القارئ. إن شاء.

obeikandl.com

أسرار العلائق
بين الرضي والصابي

أيها السادة:

رأيتم في المحاضرة الماضية ألوانًا من تأثير الصداقة والعداوة في حياة الشريف الرضي، وشهدتم أننا وقفنا وقفة قصيرة عند صلته بصديقه أبي الحسن وخصومته مع أخيه الشريف المرتضى، وتذكرون أنه أشار إلى صديق اسمه ابن حمد، إذ قال في الحديث عمن اجتمعوا عنده في مجلس أنس:

أخي وابن عمي وابن حمد فإنه ... تباريح قلبي خاليًا وغرامي

فلنقل اليوم إن ابن حمد هذا كانت له مكانة في أواخر القرن الرابع، وقد رافق الرضي في طريق الحج سنة ٣٩٤ وفيه يقول:

وكنت إذا ضاقت مناديح خطة ... دعوت ابن حمد دعوة فأجابها
أخ لي إن أعيت علي مطالبي ... رمى لي أغراض المنى فأصابها
إذا استبهمت علياءُ لا يهتدى لها ... قرعت به دون الأخلاء بابها
به خف عني ثقل فادحة النوى ... وحب عندي نأيها واغترابها
ثمانون من ليل التمام نجوبها ... رفيقين تكسونا الدياجي ثيابها

وهناك صديق آخر يسمى ابن ليلى كان له في نفس الرضي أثر بليغ، وسنعرض له في غير هذا الحديث.

والمهم في هذه الليلة أن نشرح أسرار العلائق بين الرضي والصابي، فنقول: كانت صلة الصابي بأسرة الشريف الرضي قديمة العهد، وكان الرضي وهو طفل يسمع أن في دنيا الأدب والسياسة رجلًا كريم الشمائل اسمه أبو إسحاق الصابي، وكان يسمع أنه من أصدقاء أبيه الأصفياء.

وما نعرف بالضبط متى ابتدأت صداقة الصابي لأبي أحمد الموسوي والد

الشريف، ولكننا نستطيع أن نؤكد أن شواهدها القوية ظهرت سنة ٣٥٤ قبل أن يولد الشريف بأكثر من أربع سنين.

وتلك الشواهد القوية هي العواطف التي ظهرت في كتابة التقليد وهو المنشور الذي كتبه الصابي عن الخليفة المطيع لله بتقليد أبي أحمد الموسوي نقابة الطالبين.

وإليكم فقرات من ذلك المنشور لتعرفوا جوهر تلكم العواطف:

أما بعد، فإن أمير المؤمنين لما يعرفه من تيقظك وحزمك وتحفظك يرى أن ينوط بك من سنيِّ الأعمال ما يستمتع فيه بكفايتك ويستثمر معه المخيلة في دينك وأمانتك، ويفرع بك من أعلى المراتب ما يضاهي رأيه في أمثالك من أعيان دولته، وذوي التحقق بدعوته، والاعتصام بحبله، جريًا من أمير المؤمنين على شاكلته في الارتياد لمواقع معروفة، وتخير من يؤهله لتكريمه وتشريفه حتى يلبس إنعامه من يستحق أن يكون التفضل، ويحمد منه من يبين أثر التوفيق في الإحسان إليه ...

ولذلك رأى أمير المؤمنين أن يقلدك النقابة على الطالبين أجمعين من كان في مدينة السلام وفي غيرها من النواحي والأمصار، ثقةً بأنك تقع من النهوض بالأعباء بحيث تحقق ظن أمير المؤمنين فيك، وتظهر من الكفاية والغناء ما يكون لمزيدك من النعمة مقتضيًا ولمضاعفة الإحسان إليك ممتريًا.

واعلم أن أمير المؤمنين قد فضَّلك على أهل بيتك طرًّا، ورفعك فوقهم جمعًا، فجعلك واحدهم بعد أن كنت واحدًا منهم، واختصك دونهم بعد مساواتك لهم، فسر في تطبيقهم سيرته، واسلك في ترتيبهم طريقته، وأوصهم بحسن التأمل لآثار الجماعة، وكفهم عما تنكر بالهيبة والطاعة، وإنما جعلك أمير المؤمنين أمينه فيهم، وعينه عليهم، لما ضنَّ بهم عن الزلل وصابهم عن الغيِّ

والخطل، واستهد الله أولًا وآخرًا يهدك، واستكفه باطنًا وظاهرًا يكفك، واستمد منه العون يمددك، واشكر نعمه يزدك.

هذه فقرات من التقليد الذي كتبه الصابي إلى أبي أحمد الموسوي عن الخليفة المطيع، ومن هذه الفقرات ترون روح الحب الذي كان يكنه الصابي للموسوي والد الشريف.

قد تقولون: هذا كلام أذيع باسم الخليفة فهو يصوِّر عواطف الخليفة لا عواطف الصابي.

ونجيب بأنه كان مفهومًا أن الكتَّاب يسألون عما يكتبون؛ لأن الخلفاء والملوك والرؤساء لم يكونوا يملون الرسائل، وإنما كانوا يوصون بشرح الغرض، فكانت للكتاب فرص يعلنون بها ما يضمرون.

والتاريخ يحدثنا أن الخليفة المنصور حقد على ابن المقفع للأمان الذي كتبه لعبد الله بن علي، فقد جاء فيه:

ومتى غدر أمير المؤمنين بعمه عبد الله فنساؤه طوالق، ودوابه حبس، وعبيده أحرار، والمسلمون في حل من بيعته.

وكان يستطيع المنصور أن يفترض أن ابن المقفع لم يكتب غير ما أُملي عليه ولكنه كان يعرف أن الكتَّاب يتصرفون فيما يُعهد إليهم من ضروب الإنشاء، وكان جزاء ابن المقفع أن يقتل ويحرق ويذري رماده في الهواء.

والصابي نفسه أُخذت عليه عبارة كتبها عن الخليفة الطائع في شأن بختيار وهي:

وقد جدد له أمير المؤمنين مع هذه المساعي السوابق والعوالي السوامق،

التي تلزم كل دانٍ وقاصٍ، وعام وخاص، أن يعرف له حق ما كرّم به منها، ويتزحزح عن رتبة المماثلة فيها.

فقد غضب عضد الدولة من هذه الكلمة وعدَّها تعريضًا به، فلما أمكنته الفرصة نكل بالصابي أشنع تنكيل.

ونحن في هذه الأيام نسمع الرد على خطاب العرش. فهل تظنون النواب يجادلون جلالة الملك؟ لا، وإنما هم يجادلون رئيس الوزراء؛ لأن المفهوم في عرف الحياة الدستورية أن خطاب العرش من وضع رئيس الوزراء، أو هو خطاب اشترك في تدوين أصوله جميع الوزراء.

كذلك كان يُسأل الكتاب الذين يُنشئون الرسائل بأسماء الخلفاء والملوك.

وإنما سقنا هذه الشواهد لنؤكد أن الثناء على أبي أحمد الموسوي -في الخطاب الذي كتبه الصابي باسم الخليفة المطيع- يدل على المودة المتينة التي كانت بين ذينك الرجلين، وهي مودة سمع بأخبارها الشريف وهو طفل، ثم جاءت الحوادث فزادتها توكيدًا إلى توكيد.

ولكن ما هي تلك الحوادث؟

حدثناكم من قبل عن الخصومة بين بختيار وعضد الدولة وقلنا: إنها انتهت باندحار بختيار وسيطرة عضد الدولة على العراق.

فلنذكر أن عضد الدولة حين انتصر أخذ يصفي حسابه مع خصومه القدماء فنظر فرأى الصابي، وكان شيخًا له بين الكتاب مكان مرموق، ففكر في أمره غير قليل، ثم هداه الرأي إلى استخدام الصابي في تأليف كتاب يسجل به مفاخر الدولة الديلمية ويشرح ما قامت به من الحروب والفتوحات، ورآها الصابي فرصة يستلين بها عضد الدولة وينجي بها رأسه من السيف، وأخذ في

التأليف، ولكن بعض الأصدقاء دخل عليه وهو مشغول بالتسويد والتبييض فسأله عما يفعل، فأجاب وقد خانه الحظ: أباطيل أنمقها، وأكاذيب ألفقها!

ومضى ذلك الصديق الخئون فنقل العبارة إلى عضد الدولة، فثارت أحقاد ذلك الطاغية، وأمر بأن يُلقى الصابي تحت أرجل الفيلة ليقتل أشنع قتل، ولكن لطف الله بالصابي شيخ الكتاب، فقد كان في حضرة عضد الدولة جماعة يرون له الأستاذية عليهم، منهم: نصر بن هارون، والمطهر بن عبد الله، وعبد العزيز بن يوسف، فأكبوا على الأرض يقبلونها بين يدي عضد الدولة ويستشفعون إليه في أمره ويتلطفون في استهياب دمه، إلى أن أمر باستحيائه مع القبض عليه واستئصال ما يملك من عقار وأموال[1].

وهنا تذكرون أن عضد الدولة الذي نكب الصابي، هو نفسه عضد الدولة الذي أودع أبا أحمد الموسوي غياهب الاعتقال.

فإن ذكرتم ذلك فهمتم -ولا ريب- أن الاشتراك في مصدر النكبة، سيدخل ألوانًا جديدة في نفس الطفل الذي اسمه الشريف الرضي، وفهمتم أن ذلك الطفل سيجعل نكبة الصابي بابًا من التلوم على عضد الدولة الذي يضطهد أقطاب الرجال.

اعتقل الصابي سنة ٣٦٧ ولكن عضد الدولة سيموت، وسيتولى ابنه صمصام الدولة ويفرج عن الصابي في سنة ٣٧١، فليكن هذا التاريخ هو بداية الصلة الوثيقة بين أبي إسحاق الصابي والشريف الرضي، ولنعطِ الشعر فرصة يصور فيها الوداد.

أيها السادة:

---

(١) راجع يتيمة الدهر ج٢ ص٢٧.

كان الصابي كما تعلمون من أعلام الكتاب، وقد بسطت القول عنه من هذه الناحية في الجزء الثاني من كتاب النثر الفني، وكان مع ذلك من أفراد الشعراء، وهو الذي يقول:

إلى الله أشكو ما لقيت من الهوى ... بجارية أمسى بها القلب يلهج
إذا امتزجت أنفسنا بالتزامنا ... توهمت أن الروح بالروح تمزج
كأني وقد قبلتها بعد هجعة ... ووجدي ما بين الجوانح يلعج[1]
أضفت إلى النفس التي بين أضلعي ... بأنفاسها نفسًا إلى الصدر تولج
فإن قيل لي: اختر أيها شئت منهما ... فإني إلى النفس الجديدة أحوج

فيمكن القول بأن المودة بينه وبين الشريف الرضي نشأت من التوافق في المذاهب الأدبية، وذلك من أمتن الأسباب في الجمع بين قلوب الرجال، ولكن يظهر أن التوافق الأدبي لم يكن كل شيء، فقد كان الرجلان من جيلين مختلفين والألفة الذوقية توجب تقارب السن في أغلب الأحوال، وكان هذان الرجلان متباعدين في السن حين جمع بينهما الصفاء، فقد كان الشريف في مطلع العقد الثاني من عمره، وكان الصابي في أواخر العقد الثامن، وشعر الصابي نفسه يشهد بأنه كان يعظِّم الشريف قبل أوان التعظيم، أي إنه كان يراه طفلًا لولا الفراسة التي توحي بأن سيكون هذا الطفل من عظماء الرجال إذ يقول:

أبا حسن لي في الرجال فراسة ... تعودت منها أن تقول فتصدقا
وقد أخبرتني عنك أنك ماجد ... سترقى من العلياء أبعد مرتقى
فوفيتك التعظيم قبل أوانه ... وقلت: أطال الله للسيد البقا
وأضمرت منه لفظة لم أبح بها ... إلى أن أرى إطلاقها لي مطلقًا
فإن عشت أو مت فاذكر بشارتي ... وأوجب بها حقًّا عليك محققًا
وكن لي في الأولاد والأهل حافظًا ... إذا ما اطمأن الجنب في موضع النقا

(١) يلعج: يتوقد، ومنه لاعج الحب ولواعج الشوق.

وهذه الأبيات تعطينا مفتاح السر لتلك العلائق فما هي البشارة التي يسجلها الصابي ليستقضي حلاوتها في مستقبل الزمان؟

لننتظر قليلًا حتى نسمع جواب الشريف:

سننت لهذا الرمح غربًا مذلقًا[1] ... وأجريت في ذا الهندواني رونقًا
وسوَّمت ذا الطرف الجواد وإنما ... شرعت له نهجًا فخبّ وأعنقا[2]
لئن برقت مني مخايل عارض ... لينيك نقضي أن يجود ويغدقا[3]
فليس بساق قبل ربعك مربعًا ... وليس براق قبل جرك مرتقى
وإن صدّقت منه الليالي مخيلة ... تكن بجديد الماء أول من سقى
ويغدو لمن يروي جنابك مرويًا ... زلالًا وللأعداء دونك مصعقا
وإن تر ليثًا لائذًا لفريسة ... يراصد غرات المقادير مطرقا
فما ذاك إلا أن يوفر طعمها ... عليك إذا جلى عليك وحققا
وإن يرق يومًا في المعالي فإنه ... سما ليوقي وطء رجلك مزلقا
وإن يسعَ في الأمر العظيم فإنما ... سعى لك في ذاك الطريق مطرّقا[4]
وإن يصب السهم الذي راش نصله ... فما كان إلا في هواك مفوّقا[5]
وإن ينهض الغرس الذي هو غارس ... يكن لك مجنى في الخطوب معلقا
لتجنيه دون الناس ما كان مثمرا ... وتلبس ظلًا منه ما كان مورقا
فنم وادعًا واستسقني فستنتضي ... حسامًا إذا ما مر بالعظم طبقا

إلى أن يقول:

---

(١) الغرب: الحد، والمذلق: المحدد.
(٢) الطرف: بالكسر الحصان، والخبب والعنق: من أنواع السير السريع.
(٣) العارض: السحاب.
(٤) المطرق: ممهد الطريق.
(٥) مفوق: مسدد

فإن راشني دهري أكن لك بازيًا ... يسرك محصورًا ويرضيك مطلقا
أشاطرك العز الذي أستفيده ... بصفقة راض أن غنيت وأملقا
فتذهب بالشطر الذي كله غنى ... وأذهب بالشطر الذي كله شقا
وتأخذ منه ما أنام وما حلا ... وآخذ منه ما أمر أرقا
فغيري إما طار غادر صبحه ... دوين المعالي واقعين وحلقا
فإن تسلف التبجيل قبل أوانه ... أعضك به وجهًا من الود مونقا
وإن تعطني الأعظام قولًا فإنني ... سأعطيك فعلًا منه أذكى وأعبقا[1]

ومن هنا نفهم أيها السادة سر العلائق بين ذينك الرجلين، نفهم أن الصابي كان يزيِّن للشريف أن يطلب الخلافة الإسلامية، وهذا التزيين هو وحده كافٍ لأن يجعل الصابي أعز الناس على الشريف، فقد كان الشريف في بداية شبابه، والشبان يحبون من يثق بكفايتهم الذاتية ويرشحهم لجلائل الأعمال.

وهذه أيها السادة ظاهرة نفسية يدركها من يدرس نفوس الشبان، فهم يحبون أن يصلوا إلى قمم المجد في يوم وليلة، ويبحثون عمن يزكيهم ويؤيدهم ويدعي لهم التفوق، وقد تلفت الشريف وهو طفل فرأى شيخًا جليلًا يتنبأ له بمستقبل جليل فأحبه كل الحب، ومال إليه كل الميل.

والقصيدة التي سقناها من شعر الشريف تشهد بأنه انخدع كل الانخداع، فأخذ يتصور الأيام التي يقسم فيها الحظوظ والأرزاق، ويؤكد للصابي أنه سيجعله في مأمن من خطوب الزمان.

وقد ثارت الحمية في ذلك الغصن الأملود، واستكثر أن تعوقه عضاضة السن عما يريد، فاندفع يقول:

---

(١) في هذه القصيدة كثير من القعقعة، ولكن عذر الشريف أنه قالها في بداية حياته الشعرية.

فـإن قعـدت بي الـسن يومًـا فإنـه ... سـينهض بي مجـدي إليهـا محققـا
فـوالله لا كـذّبت ظنـك إنـه ... لعـار إذا مـا عـاد ظنـك محققـا
فـإن الـذي ظـن الظنـون صـوادقا ... نظـير الـذي قـوى الظنـون وحققـا

على أن الشريف لم يكن بالغافل إذ صدق فراسة الصابي، فهما أديبان، والأدباء قد يطمئن بعضهم إلى بعض، وكان الشريف يعرف أن الصابي له علاقات متينة بكثير من الرؤساء والوزراء، ولا سيما الصاحب بن عباد، وكان مفهومًا في تلك العهود أن الخلافة العباسية على شفا الهاوية، وأن الأمر لملوك بني بوية، والاتفاق مع أولئك الملوك ليس بالأمر المستحيل.

وكذلك تطور الحب بين الشريف وبين الصابي، فبعد أن كان الشريف يميل إلى الصابي لأنه من أصدقاء أبيه القدماء، ولأنه من خصوم عضد الدولة، ولأنه يُعجب بشعره وهو طفل، أصبح يحبه لأنه صار داعية من دعاته الأوفياء، ولأنه سيصير في المستقبل من صنائعه يوم يصبح أمير المؤمنين.

تلكم أيها السادة أسرار العلائق بين ذينك الرجلين، ولكنها إلى الآن علائق نفعية، فلننظر كيف تطورت مرة خامسة فأصبحت مودة وثيقة تساور لفائف القلوب.

أيها السادة:

لا تسألوا عن الصابيّ الذي كان يشجع الشريف على مطامعه السياسية، فتلك شئون كان الرجلان يروضانها في الخفاء، وقد مرت أعوام وأعوام وبغداد بين مد وجزر، وأرض العراق معسكرات يتداولها المحاربون بين يوم ويوم، فكان لا بدّ من التربص لتحقيق ذلك الأمل الخطير، وهو لن يتحقق برسالة يكتبها الصابي أو قصيدة ينظمها الشريف، وإنما يتحقق يوم تتم السيطرة لرجل واحد من البويهيين يسهل معه الاتفاق، ولكن: متى يأتي ذلك

اليوم؟

وفي انتظار اليوم الموعود يمضي الصديقان ليستقيان كأس الوداد، والظاهر أن نفس الشريف كان طال عهدها بالنفرة من الناس، فما كاد يعرف الصابي حتى أقبل على محبته بقلب ملهوف.

ويظهر أيضًا أن نفس الصابي كانت ملت الاتصال برجال السياسة الذين أزعجوا شبابه وكهولته بالتلون والتقلب، فما كاد يتصل بالشريف حتى رأى فيه نفسًا روحانية قد تستطيع تجديد نوره وهو يجنح راغمًا إلى الغروب.

وهنا نذكر أن شيخوخة الصابي اعتمدت على دعامتين من أكرم دعائم العطف، الدعامة الأولى هي مودة الصاحب بن عباد الرجل النبيل الذي ظلمناه بعض الظلم في كتاب النثر الفني، فقد كاد ابن عباد يتلطف في الصابي فيرسل إليه الهدايا المستورة مع الحجاج، والدعامة الثانية مودة الشريف الرضي، الفتى الفقير الذي يملك من صفاء الروح ما يؤنس الصابي فيرده إلى مرح الشباب.

ولكن حظ الصديقين كان يختلف أشد الاختلاف، فكل شمس تطلع تمد الشريف بقبس من الفتوة، وكل شمس تغرب تذكر الصابي بما ينتظر من الأفول.

وسياق الحوادث يشهد بأن ذلك الشيخ الذاوي هو الذي كان يجب عليه أن يتكلف المشقة ليزور ذلك الفتى الفينان، وقد تكلف ذلك الشيخ ما تكلف إلى أن أعجزه المرض عن عبور دجلة فكتب إلى صديقه الفتى يقول:

أقعدتنا زمانة[1] وزمان جائر عن قضاء حق الشريف

(١) الزمانة: المرض المزمن.

ولئن ثقلا عن الخدمة الخطو ... لعنَّ خاطر إليها خفيف
فانتصرنا فيما نؤدي من الفر ... ض[1] على الكتب والرسول الحصيف
والفتى ذو الشباب يبسط التقصير ... عذر الشيخ العليل الضعيف

وقد أجاب الشريف على هذه الأبيات بقصيدة طويلة ابتدأها بجيد النسيب إذ يقول:

كم ذميل إليكم ووجيف[2] ... وصدود عنا لكم وصدوف
وغرام بكم لو أن غرامًا ... جرّ نفعًا للواجد المشغوف

فلما وصل إلى خطاب الصابي تلطف فأشار إلى أنه نصيره على الزمان، وشبه وجهه بالدينار وكلامه بالنصول. ثم قال:

إن شكواك للزمان مبين ... لي عن[3] قدر عقله المضعوف
قدمت غيرك الجدود وأخر ... ت ولكن أناف غير منيف[4]
قصف الدهر فيك رمحًا من الكيـ ... ـد وحامى عن المعيب المؤوف[5]
إن حرمت الرزق الذي نال منه ... فدواء العييّ داء الحصيف
عمل فاضح وأجمل من بعـ ... ـض الولايات عطلة المصروف
فاصطبر للخطوب رب اصطبار ... شق فجرًا من ليلهن المخوف
كم تحملتها بظهر من الصبر ... فخفت والعبء غير خفيف
لم تغب عن سواد عيني وإن غبـ ... ـت معنى نوائب وصروف
قرّ عينًا بطارقات الشكايا ... ما تجافت مطرقات الحتوف

---

(١) في الديوان: (العرض) بالعين المهملة وهو تحريف
(٢) الذميل والوجيف: من ضروب السير
(٣) في الديوان: (على)
(٤) أناف: رفع.
(٥) المؤوف: الذي لحقته آفة.

ومن هذه الأبيات تفهم أن الصابي كان يشكو علتين: علة الشيخوخة، وعلة الفقر الديقوع.

ثم اشتدت العلة بالصابي فكان لا ينتقل من مكان إلى مكان إلا وهو محمول، فكتب إلى رفيقه الفتيّ:

إذا ما تعدت بي وسارت محفة[1] ... لها أرجل يسعى بها رجلان
وما كنت من فرسانها غير أنها ... وفت لي لما خانت القدمان
نزلت إليها عن سراة حصان ... بحكم مشيبي أو فراش حصان[2]
فقد حملت مني ابن تسعين سالكًا ... سبيلًا عليها يسلك الثقلان
كما حمل المهد الصبيّ وقبلها ... ذعرت ليوث الغيل بالبزوان
ولي بعدها أخرى تسمى جنازة ... جنيبة يوم للمنية داني
تسير على أقدام أربعة إلى ... ديار السبلى معدودهن ثمان
وإني على عيث[3] الردى في جوانبي ... وما كف من خطري وبطش بناني
لأعلم أني ميت عاق دفنه ... ذماء[4] قليل في غد هو فان
وأن فما للأرض غرثان حاتمًا[5] ... يراصد من أكلي حضور أوان
به شره عمَّ الورى بفجائع ... تركن فلانًا ناكلًا لفلان

وهي قصيدة مزعجة يضيق المقام عن سرد ما تشير إليه من الفجائع الإنسانية والمهم أن نشير إلى أن الصابي كشف في هذه القصيدة عن نفسه فرأيناه يرى الشريف الرضي هو الذخيرة التي يتركها لأبنائه يوم يموت، وهذا

---

(١) المحفة بالكسر: مركب كالهودج إلا أنها لا تقبب.
(٢) الحصان بالكسر: الجواد، بالفتح المرأة العفيفة، والسراة الظهر.
(٣) في اليتيمة (غيث): بالعين المعجمة وهو تحريف.
(٤) الذماء بالفتح: بقية النفس.
(٥) غرثان: جائع.

أجمل ما يمدح به صديقنا الشريف، طيب الله ثراه.

وقد انزعج الرضي لهذه القصيدة الباكية، وأجابه بقصيدة طويلة نختار منها هذه الأبيات الحسان.

وما زال منك الرأي والحزم والحجا ... فنأسى إذا ما زلت القدمان
لو أن لي يومًا على الدهر إمرة ... وكانت لي العدوى على الحدثان
خلعت على عطفيك برد شبيبتي ... جوادًا بعمري واقتبال زماني
وحملت ثقل الشيب عنك مفارقي ... وإن فل من غربي وغض عناني
ونابت طويلًا عنك في كل عارض ... بخطّ وخطو أخمصي وبناني
على أنه ما انفل من كان دونه ... حميم يرامي عن يد ولساني
وإنك ما استرعيت مني سوى فتى ... ضموم على رعي الأمانة حان
حفيظ إذا ما ضيع المرء قومه ... وفيّ إذا ما خوّن العضدان
من الله أستهدي بقاءك أن ترى ... محلا لأسباب العلا بمكان
وأسأله أن لا تزال مخلدًا ... بملقى سماع بيننا وعيان
إذا ما رعاك الله يومًا فقد قضى ... مآرب قلبي كلها ورعاني

ثم لزم الصابي منزله وهو راغم بحكم الضعف والوهن، فكان آخر ما قال من الشعر قصيدة أرسلها إلى الشريف قبل أن يموت باثني عشر يومًا، وهي قصيدة طويلة نكتفي منها بالأبيات الآتية:

أفيك الردى ليس القلى عنك مقعدي ... ولكن دهاني بالزمانة ذا الزمن
وغادرني خلف المضاجع راهنًا ... على علة في الحال والنفس والبدن
فإن تنأ منك الدار فالذكر ما نأى ... وإن بان مني الشخص فالفكر لم يبن
وإن طال عهد الالتقاء فدونه ... عهود عليها من رعايتنا جنن[1]

(١) جمع جُنة بالضم: وهي الوقاية.

وقد أجاب الشريف بقصيدة أطول وأمتع، نكتفي منها بالقطعة الآتية:

من مبلغ له أبا إسحاق مألكة ... عن حنو قلب سليم السر والعلن[1]
جرى الوداد له مني وإن بعدت ... منا العلائق مجرى المياه في الغصن
مسود قصب الأقلام نال بها ... نيل المحمر أطراف القنا اللدان
إن لم تكن تورد الأرماح موردها ... فما عدلت إلى الأقلام عن جبن
والطاعن الطعنة النجلاء عن جلد ... كالقائل القولة الغراء عن لسن[2]
حار المجارون إذا جاروك في طلق ... وأجفلوا عن طريق السابق الأرن[3]
ضلوا وراءك حتى قال قائلهم ... ما ذا الضلال وذا يجري على السنن
ما قد فضلك ما أصبحت ترزقه ... ليس الحظوظ على الأقدار والمهن
قد كنت قبلك من دهري على حنق ... فزاد ما بك من غيظي على الأقدار والمهن
كم راثنا وبرانا غير مكترث ... بما نعالج بري القدح بالسفن[4]
إن يدن قوم إلى داري فألقهم ... وتنأ عني فأنت الروح في البدن
فالمرء يسرح في الآفاق مضطربًا ... ونفسه أبدًا تهفو إلى وطن
والبعد عنك بلاني باستكانهم[5] ... إن الغريب لمضطر إلى السكن
أن الكرى مؤنسًا طرفي وبعضهم ... مثل القذى مانع عيني من الوسن[6]
كم من قريب يرى أني كلفت به ... يمسي شجاعي وتضحى دونه شجني
أشتاقاكم ودواعي الشوق تنهضني ... إليكم وعوادي الدهر تقعدني
وأعرض الود أحيانًا فيؤنسني ... وأذكر البعد أطوارًا فيوحشني

---

(١) الحنو بالكسر والفتح: كل ما فيه اعوجاج من البدن كعظم الحجاج والضلع.
(٢) يرد أن المجاهد بالقلم واللسان كالمجاهد بالرمح والسيف.
(٣) الأون: الجرح.
(٤) القدح بالكسر: السهم قبل أن يراش وينصل، والسفن بالتحريك كل ما ينحت به الشيء.
(٥) الاستكان: افتعال السكن.
(٦) الوسن: النوم.

هذا ودجلة ما بيني وبينكم وجانب وجانب العبر غير الجانب الخشن[1]

وكانت هذه القصيدة آخر ما مر بسمع الصابي من الطيبات، فقد مات بعد قراءتها بأيام.

وقد رأيتم أن هذين الصديقين كانا يتقارضان الشكاية، فإن تجمل الصابي شكا عنه الشريف، وإن شكا الصابي واساه الشريف، وما ندري كيف استطاع الشريف أن يسكت على قول الصابي في وصف الزمان.

وغادرني خلف المضاجع راهنًا على علة في الحال والنفس والبدن

ولكني أرجوكم أن تتذكروا أن الرضي كان فقيرًا وأن أملاك أبيه ظلت محجوبة عنه إلى ذلك الحين.

لم يبقَ أيها السادة إلا أن نحدثكم عما صنع الشريف بعد موت الصابي، وكل أديب يعرف أن الشريف رثا الصابي بقصيدة جيدة بلغت اثنين وثمانين بيتًا، وكل الذين ترجموا للصابي أو الرضي تحدثوا عن تلك المرثية الهائلة، وكان وجه الغرابة أن يبكي شاعر من عترة الرسول ﷺ رجلًا من الصابئين، وقد فصلت ذلك في كتاب النثر الفني، فلا أعود إليه الآن، ولكن الذي يجهله أكثر الأدباء أن الشريف لم يرثِ الصابي مرة واحدة، فقد ظل يتفجع عليه إلى آخر حياته، ورثاه بعد أن طال العهد بموته بقصيدتين هما آيتان من آيات الوفاء.

وأعيذكم أن تجهلوا هذا الجانب من نفس الشريف، فالشعراء في الأغلب يرثون أصدقاءهم يوم الموت، ثم يتناسونهم فينسوهم بعد حين، والوفاء في الدنيا قليل.

وتذكروا أن الصابي لم تكن له عصبية حتى نتهم الشريف بأنه يبحث عن

---

(١) العبر: بالكسر ويفتح الشاطئ.

أنصار وأشياع، هيهات، فقد كان الصابون أقلية لا يحسب لها حساب، وكان محرمًا عليهم أن يتساموا إلى مراتب الوزراء.

ونحن في الواقع نثق ثقة مطلقة بأمانة الشريف، ولكن البحث النفسي يوجب أن نعرض هذا الجانب، والمؤرخون لذلك العهد نظروا إلى مرثية الشريف نظرة استغراب، وهذا يؤكد أن الشريف لم يرعَ في مرثيته غير معاني الوداد.

ويزيد في قيمة تلك المرثية أن الصابي لم يمت إلا وهو في فقر مدقع، ولم يرَ الموت إلا بعد أن تقطعت عنه أسباب المجد، وأقبلت الدنيا على خصومه الألداء.

فالشريف في رثاء الصابي رجل مفرد بين الرجال، وموقفه أقوى من موقف البحتري في رثاء المتوكل، لأن البحتري شهد فاجعة أليمة تنطق الجماد، أما الصابي فيرثي صديقًا عديم الحول، وقد بلغ أرذل العمر ولم يمت إلا في الحادية والتسعين وهو على دين منبوذ تنكره الدولة وينكره الناس.

قد تقولون: إن الشريف لم يكن يملك غير ذلك وقد عرف الناس ما بينه وبين الصابي.

ونعترف بأن هذا النوع من الوفاء هو لون من الأثرة الذاتية، ولكن هذه الأثرة في ذاتها جوهر نبيل، وشرف البواعث ما تنصب له الموازين.

وكيف يتهم في صدقه من يقول:

أرأيت من حملوا على الأعواد ... أرأيت كيف خبا ضياء النادي

جبل هو لو خرّ في البحر اغتدى ... من وقعه متتابع الأزباد

ما كنت أعلم قبل حطك في الثرى ... أن الثرى يعلو على الأطواد

بعـــدًا ليومـــك في الزمـــان فإنـــه ... أقـــذى العيـــون وفـــتَّ في الأعـــضاد
لا ينفـــد الـــدمع الـــذي يُبكـــى بـــه ... إن القلـــوب لـــه مـــن الأمـــداد
كيـــف انمحـــى ذاك الجنـــاب وعطلـــت ... تلـــك الفجـــاج وضـــلَّ ذاك الهـــادي
طاحـــت بتلـــك المكرمـــات طـــوائح ... وعـــدت عـــلى ذاك الجـــواد عـــوادي[1]
قـــالوا أطـــاع وقيـــد في شـــطن الـــردى[2] ... أيـــدي المنـــون ملكـــت أي قيـــاد
مـــن مـــصعب لـــو لم يقـــده إلهـــه[3] ... بقـــضائه مـــا كـــان بالمنقـــاد

....

أعـــزز عـــليَّ بـــأن يفـــارق نـــاظري ... لمعـــان ذاك الكوكـــب الوقـــاد
أَعـــزز عـــليَّ بـــأن أراك بمنـــزل ... متـــشابه الأنجـــاد والأوغـــاد

....

عمـــري لقـــد أغمـــدت منـــك مهنـــدًا ... في الـــترب كـــان ممـــزق الأغـــماد
قـــد كنـــت أهـــوى أن أشـــاطرك الـــردى ... لكـــن أراد الله غـــير مـــرادي
ولقـــد كبـــا طـــرف الرقـــاد بنـــاظري ... أســـفًا عليـــك فـــلا لعًـــا لرقـــاد[4]
ثكلتـــك أرض لم تلـــد لـــك ثانيًـــا ... أنـــى ومثلـــك معـــوز المـــيلاد
إن الـــدموع عليـــك غـــير بخيلـــة ... والقلـــب بالـــسلوان غـــير جـــواد
ســـودت مـــا بـــين الفـــضاء ونـــاظري ... وغـــسلت مـــن عينـــيَّ كـــل ســـواد
رمـــى الخـــدود مـــع المـــدامع شـــاهد ... أن القلـــوب مـــن الغليـــل صـــواد
مـــا كنـــت أخـــشى أن تـــضن بلفظـــة ... لتقـــوم بعـــدك لي مقـــام الـــزاد
مـــا الـــذي منـــع الفنيـــق هـــديره[5] ... مـــن بعـــد صـــولته عـــلى الأذدواد[5]

---

(١) في الديوان: (أعادي) وما أثبتناه أنسب.
(٢) الشطن بالتحريك: الحبل الطويل.
(٣) المصعب: الفحل.
(٤) لا لعًا به: عبارة قديمة تفيد الذم.
(٥) جمع زود، وهي الجماعة من الإبل، وهي كلمة تكثر في أشعار الشريف لكثرة ما

ما الذي حبس الجواد عن المدى ... من بعد سبقته إلى الآماد
ماذا الذي فجع الهمام بوثبة ... وعدا على دمه وكان العادي
يقضي لسانك مذ ذوات ثمراته ... أن لا دوام لنضرة الأعواد(١)
لقيت أعيجاز يضل تبيعها ... ومضت هواد للرجال هواد(٣)
يا ليت أني ما اقتنيتك صاحبًا ... كم قنية جلبت أسىً لفؤادي
برد القلوب لمن تحب بقاءه ... مما يجر حرارة الأكباد
ويقول من لم يدر كنهك أنهم ... نقصوا به عددًا من الأعداد
هيهات أدرج بين برديك الردى ... رجل الرجال وأوحد الآحاد
لا تطلبي يا نفس خلًّا بعده ... فلمثله أعيا على المرتاد(٤)
فقدت ملاءمة الشكول بفقده ... وبقيت بين تباين الأضداد
ما مطعم الدنيا بحلو بعده ... أبدًا ولا ماء الحيا ببراد(٥)
الفضل ناسب بيننا إن لم يكن ... شرفي مناسبه ولا ميلادي(٦)
إن لم تكن من أسرتي وعشيرتي ... فلأنت أعقلهم يدًا بودادي
إن لم يكن وافي الأصول فقد وفى ... شرف الجدود بسؤدد الأجداد(٧)
لا در دري إن مظلمتك ذمة ... في باطن متغيب أو باد

يصطنع من الأخيلة البدوية.

(١) الفنيق: الفحل المكرم لا يؤذى لكرامته على أهله ولا يركب.

(٢) اللام في كلمة (لقضى): مفتوحة وهي لتوكيد المعنى.

(٣) أعيجاز: تصغير إعجاز. وجمع القلة يصغر على لفظه، والتبيع: التابع، والهوادي جمع الهادي وهو العنق، وفي البيت جناس.

(٤) اللام في كلمة (فلمثله) تنطق بالفتح وهي أيضًا لتوكيد المعنى.

(٥) الحيا: المطر، والبراد: البارد.

(٦) هذا المعنى ورد في أشعار كثيرة قبل الرضي، وقد حللناه في كتاب النثر الفني ج٢ ص ١٧، ١٨.

(٧) الجدود: الحظوظ المكسوبة، يريد أنه عصامي بنى مجده بيديه.

إن الوفـاء كـما اقترحـت فلـو تكـن ... حيًّـا إذن مـا كنـت بـالمزداد
لـيس التنافـث بيننـا بمعـاود ... أبـدًا ولـيس زماننـا بمعـاد[1]
ضـاقت عـليَّ الأرض بعـدك كلهـا ... وتركـت أضـيقها عـليَّ بـلادي
لـك في الحشـا قـبر وإن لم تـأوه ... ومـن الـدموع روائـح وغـواد
سـلوا مـن الأبـرار جسمك وانثنى ... جسمي يسـلُّ عليـك في الأبـراد
فاذهـب كـما ذهـب الربيـع وأثـره ... بـاقٍ بكـل خمائـل ونجـاد
لا تبعـدنّ وأيـن قربـك بعـدها ... إن المنايـا غايـة الأبعـاد
صـفح الثـرى عـن حـر وجهـك إنـه ... مغـرى بطـيِّ محاسـن الأمجـاد
وتماسـكت تلـك البنـان فطالمـا ... عبـث الـبلى بأنامـل الأجـواد
وسـقاك فـضلك إنـه أروى حيـا ... مـن رائـح متعـرس أو غـاد[2]
جـدث عـلى أن لا نبـات بأرضـه ... وقفـت عليـه مطالـب الـرواد

وقد اجتاز الشريف على قبر الصابي بعد موته بأعوام فهاجته الذكرى فقال:

يعلـم قـبر بالجنينـة[3] أننـا ... أقمنـا بـه ننعـي النـدى والمعاليـا
مررنـا بـه فاستـشرفتنا رسـومه ... كما استشرف الروض الظباء الجوازيا
أو مـا لاح ذاك الـترب حتـى تحبلـت ... مـن الـدمع أو شـال مـلأن الأماقيـا[4]
نزلنـا إليـه عـن ظهـور جيادنـا ... نكفكـف بالأيـدي الـدموع الجواريـا
ولمـا تجاهـشنا البكـاء ولم نطـق ... عـن الوجـد إقلاعًـا عـذرنا البواكيـا
قـول لركـب رائحـين تعرَّجـوا ... أريكـم بـه فرعًـا مـن المجـد ذاويـا
ألمـوا عليـه عـاقرين فإننـا ... إذا لم نجـد عقـرًا عقرنـا القوافيـا

---

(١) التنافث: التناجي.
(٢) المتعرس: الذي ينزل بالليل.
(٣) الجنينة مقبرة كانت في بغداد
(٤) الأوشال: جمع وشل بالتحريك، وهو الماء القليل يتحلب من جبل أو صخرة.

ولـو أنـصفوا شـقوا عليـه ضـمائرًا ... وجـزوا رقابًـا بالظبـا لا نواصـيا
وقفنـا فأرخـصنا الـدموع وربـما ... تكـون عـلى سـوم الغـرام غواليـا
ألا أيهـا القـبر الـذي ضـم لحـده ... قـضيبًا عـلى هـام النوائـب ماضـيا[1]
هـل ابـن هـلال منـذ أودى كعهـدنا ... هـلالًا عـلى ضـوء المطـالع باقيـا
وتلـك البنـان المورقـات مـن النـدى ... نواضـب مـاء أم بـواق كـما هيـا
ومـا كنـت آبـى طـول لبـث بقـبره ... لـو أني اسـتعديته كـان عاديـا[2]
....
خلا بعدك الـوادي الـذي كنـت أنسه ... وأصـبح تعـروه النوائـب واديـا
أراحـت علينـا ثلـة الوجـد ترتعـي ... ضـمائرنا أيامهـا والليالـيا[3]
رضـيت بحكـم الـدهر فيـك ضرورة ... ومـن ذا الـذي يغـدو بـما سـاء راضـيا
وطاوعت من رام انتزاعـك مـن يـدي ... ولـو أجـد الأعـوان أصـبحت عاصـيا
وطامنـت كـيما يعـبر الخطـب جـانبي ... فـألقى عـلى ظهـري وجـرَّ زماميـا
رثيتـك كـي أسـلوك فـازددت لوعـة ... لأن المرائـي لا تـسدُّ المرازيـا
وأعلـم أن لـيس البكـاء بنـافع ... عليـك ولكنـي أمنـي الأمانيـا

وفي سنة ٣٩٣ أي بعد موت الصابي بنحو تسع سنين مر الشريف على قبره فقال:

لـولا يـذم الركـب عنـدك مـوقفي ... حييـت قـبرك يـا أبـا إسـحاق
كيـف اشـتياقك مـذ نأيـت إلى أخ ... قلـق الـضمير إليـك بالأشـواق
هـل تـذكر الـزمن الأنيـق وعيـشنا ... يحلـو عـلى متأمـل ومـذاق
وليـالي الـصبوات وهـي قـصائر ... خطـف الـوميض بعـارض مـبراق

---

(١) القضيب: هنا السيف.
(٢) استعديته: استنصرته.
(٣) الثلة بالضم: الجماعة الكثيرة من الغنم، وفي البيت تخيل.

لا بـــدَّ للقرنـــاء[1] أن يتزايلـــوا ... يومًـــا بغـــدر قـــلى وعـــذر فـــراق
أمـــضي وتعطفنـــي إليـــك نـــوازعٌ ... بتـــــنفس كتـــــنفس العـــــشاق
وأذود عن عيني الدموع ولو خلت ... لجـــرت عليـــك بوابـــل غيـــداق[2]
ولـــو أن في طـــرفي قـــذاة مـــن ثـــرى ... وأراك مـــا قـــذيتها مـــن مـــاقي[3]
إن تمـــضِ فالمجـــد المرجـــب خالـــد[4] ... أو تفـــنَ فـــالكلم العظـــام بـــواقي

إلى آخر القصيدة:

وكنت أشرت في كتاب (النثر الفني) إلى أن رسائل الصابي لا تصلح لغير أهل عصره فهي غير حلية بالبقاء، وفاتني أن أقول أن الشريف كتب اسم الصابي على جبهة الزمان بأصباغ لا تجففها الشمس ولا يمحوها هواء.

(١) في الديوان: (القرباء) بالباء وهو تحريف.
(٢) غيداق: كثير الانسكاب.
(٣) هذا بيت نفيس، ومعناه أن القذى لو دخل عينه وكان ترابًا في قبر الصابي لما رضي أن يخرج ذلك القذى من عينه.
(٤) المرجب: المعظم.

obeikandl.com

غرائب الوفاء
عند الشريف الرضي

أيها السادة:

أشرنا قبلًا إلى رجل من أصدقاء الشريف يقال له ابن ليلى، وهو رجل لم تتحدث عنه كتب التاريخ، وإنما نعرف أن اسمه عمرو، لقول الشريف وهو يرثيه:

وأين فارس الفرسان عمرو ... إذا رزء من الحدثان فاجا

ونعرف أن كنيته أبو العوَّام من قول الشريف:

أين أبو العوَّام للعواصي ... يروضها والخيل والدلاص[1]

والمفهوم أن ابن ليلى كان رجلًا عربيًّا من سادة البوادي، والمظنون أنه كان داعية للشريف، وتشهد أشعار الرضي أن بني تميم هم الذين قتلوا ذلك الصديق.

تلك هي ترجمة ابن ليلى، فهل كان يستحق أن يبكيه الشريف بأربع قصائد، وأن يجعله في قصيدة خامسة مثلًا أعلى لأشراف الرجال.

إن ابن ليلى رجل صغير القدر عند من تستهويهم عنعنات التواريخ، فلو كان لهذا الرجل شأن لأفاض في أخباره المؤرخون، ولكنا نرى ابن ليلى رجلًا عظيمًا جدًّا؛ لأنه ذكر بالحمد والثناء في أثر أعظم من كتب التواريخ وهو ديوان الشريف.

والحق أن شخصية ابن ليلى تعطينا صورة من صور الرضي، أو هي تدلنا على بعض مذاهبه في الحياة، ومن الواجب أن ننص بصراحة على صفة أساسية

---

(١) دلاص: على وزن كتاب درع ملساء.

من صفات الشريف هي الفروسية، فقد كان الشريف الرضي فارسًا، وكان أبوه فارسًا، وكان أقطاب أسرته من الفرسان؛ وأبطال الفروسية لهم شمائل الأعراب، فليس من المستغرب أن يكون للشريف صديق بدوي يحبه أصدق الحب ويبكيه حين يموت بالقصائد الباقيات.

أضيفوا إلى هذا أن الشريف كان ورث عن أبيه صداقات كثيرة، صداقات بدوية أسسها في غدوه ورواحه بين العراق والحجاز، وكان الشريف وأبوه قد عرفا أقطاب البوادي وشياطين الصحراء وهما يحجان، وقد حجَّا مرات كثيرة بفضل المنصب الموروث -منصب إمارة الحج- ومن هنا جاز أن يقال أن ابن ليلى كان داعية للشريف، فليس من المستبعد أن يكون الشريف فكر في تكوين عصبية عربية يناهض بها خلافة بني العباس حين تسمح الظروف، وكان ابن ليلى من الذين اصطفاهم لتحقيق ذلك الغرض المرموق، ولكن ستظل هذه القضية ظنونًا في ظنون إلى أن يظهر ما يحققها من شواهد التاريخ.

والمهم أن نقرر أن الشريف تفجَّع على ابن ليلى أعظم تفجُّع، وشهدت أشعاره بأنه كان يرى ذلك الرجل من كرام الأصفياء، والواقع أن البوادي فيها كنوز من الشهامة والفتوّة والمروءة، وهي عالم مجهول ولكنه موجود، وكان من حظ الشريف أن يعرف ما في ذلك العالم من شمائل وخصال.

لا نعرف بالضبط متى مات ابن ليلى، ولكن الأرجح عندنا أن أقدم قصائد الشريف في رثائه هي القصيدة التي نظمها في مطلع سنة ٣٩٣ والظاهر أن ابن ليلى قتل في ذلك الحين، فإن الشريف يقول:

تعيـــف[٢] الطـــير فأنبأنـــهُ أن ابـــن لـــيلى علقتـــه علـــوق[١]

---

(١) العلوق بفتح العين وضم اللام: المنية

(٢) تعيف الطير وعافها: زجرها، وهو أن يعتبر بأسمائها ومسارها وأنوائها، فيتسعد أو يتشأم.

وأن سجلا من دم آمن ... أفرغه الطعن بوادي العتيق

وهي قصيدة بدوية النسج تشهد بأن الشريف أراد أن يلائم بين سمات المبكي وسمات الأسلوب، وفيها يقول:

بعدًا لأرماح تميم لقد ... هددن عاديّ بناء عتيق
قرعن في أصل كريم الثرى ... وجلن في فرع عزيز العروق
حدوا له من حيث لا يتقى ... عيرًا من الطعن ملاء الوسوق(١)
ما كان بالراجع عن نهجه ... لو وقف السيف له في المضيق

وفيها توجع الشريف أشد توجع إذ يقول:

كان هوى للنفس لو أنني ... في حلق القد وأنت الطليق(٢)
ما كنت بالهائب طرق الردى ... ما سلم العضب وأنت الرفيق(٣)
ما أنا باللاقي بذات النقا ... خيل وغى مشعلة بالعنيق(٤)
ماطلها الماء فلما سلت ... عن الروى ماطلها بالعليق
ولّى ابن ليلي عارضًا رمحه ... يحدو بخفان جمالًا ونوق(٥)
يأبى إذا الضيم غدا مضغة ... سلسالة سائغة في الحلوق
يروح من يرجو له غرة ... قد خضخض السجل بجالي عميق(٦)
استبدل الحسي بعقبانه(٧) ... أغربة بعدك حمق النعيق

---

(١) الوسوق: جمع وسق: وهو ستون صاعًا أو حمل بعير.
(٢) القد بالكسر: القيد.
(٣) العضب: السيف.
(٤) العنيق: على وزن أمير: شدة الجري.
(٥) خفان: اسم موضع.
(٦) الجال: البئر.
(٧) جمع عقاب بالضم.

خـــاطرت الـــشول بأذنابهـــا[1] لمـــا انطـــوى قرقـــار ذاك الفنيـــق[1]
مـــا الحـــي بالـــضاحك عـــن مثلـــه ولا وجـــوه الحـــي مـــذ غـــاب روق[2]
لا أغفلـــت قـــبرك حنانـــة[3] خرقـــاء بـــالقطر صـــناع الـــبروق
ولا أغـــب الأرض تمـــسي بهـــا ظـــل صـــفيق ونـــسيم رقيـــق

وهناك قصيدة أخرى سلكت هذا المسلك الوعر، أرق ما فيها قوله:

يـــا قـــبر بـــين القـــور الـــدعاص[5] ضُـــمَّ عـــلى لؤلـــؤة الغـــواص
قـــاد ابـــن لـــيلى قائـــد المعتـــاص كـــان ســـياغي فغـــدا اغتـــصاصي
مـــا أثقـــل اليـــأس عـــلى الحـــراص هـــل لجـــروح الـــدهر مـــن قـــصاص
قـــد ينـــزل العـــالي مـــن الـــصياصي[6] وقـــد يطيـــع الـــرأس وهـــو عـــاصي

ولكن الشريف سيترك هذه الوعورة ويبكي ابن ليلى بالشعر السمح، كأن يقول:

أداري المقلتـــين عـــن ابـــن لـــيلى ويـــأبى دمعهـــا إلا لجاجـــا
لهـــا ثـــبط عـــلى الأيـــام بـــاق[7] تجـــيش بـــه معينًـــا أو أجاجـــا
كـــأن بهـــا ركيـــة[8] مـــستميح[9] يخضخـــضها بكـــورًا وادلاجـــا

---

(١) القرقار: الهدير، والفنيق: الفحل.
(٢) الشول بالفتح: النوق تشول بذنبها اللقاح.
(٣) روق بضم الراء: حسان
(٤) الحنانة: السحابة الماطرة.
(٥) القور بضم القاف: جمع القارة وهي الجبيل المنقطع عن الجبال أو الصخرة العظيمة أو الأرض ذات الحجارة السود، والدعاص: جمع دعص بالكسر وهو قطعة من الرمل.
(٦) الصياصي: جمع صيصة بالكسر وهي الحصن.
(٧) الثبط: هو من قولهم أثبطه المرض لم يكد يفارقه.
(٨) الركية: البئر.
(٩) المستميح: الذي يستخرج الماء، وفي الديوان (مستميت).

أذود النفس عنه وذاك منها ... عنان ما ملكت له معاجا
كأن العين بعد اليوم جرح ... إذا طبوا له غلب العلاجا
تجم على القذى وتفيض دمعًا ... مطال الداء وادع ثم هاجا
وأين كفارس الفرسان عمرو ... إذا رزء من الحدثان فاجا
بحق كان أولهم ولوجًا ... على هول وآخرهم خراجا
إذا رسبت حصاة القلب منه ... طفا قلب الجبان به انزعاجا

وهو يحدثنا أن ذلك الرجل كانت إليه قيادة العرب إذ يقول:

فمن يزع العريب[1] إذا تناغت ... ويضرب بين غاربها سياجا
ويذكرها الحلوم على تناس ... وقد بلغت حفائظها الهياجا
يحاججها[2] عن الأرحام حتى ... يقر القوم أن له الحجاجا

ثم يختم القصيدة بأقباس الالتياع فيقول:

أقاض حقك ذو غرام ... أعاج الركب عن طرب وعاجا
يريق عليك ماء القلب صرفًا ... وماء العين يجعله مزاجا
ولو بلغ المنى إنسان عيني ... خلا منها وأسكنك الحجاجا[3]

وما زال الشريف يبدئ ويعيد في التفجع على ابن ليلى حتى ذهب الحزن به كل مذهب فخلد ذكره بقصيدة قليلة الأمثال؛ إذ يقول:

لعمر الطير يوم ثوى ابن ليلى ... لقد عكفت على لحم كريم
وإن قنا العدا ليردن منه ... دمًا لم يجر في عرق لئيم
كأن الرمح يصدر منه عدوًا ... عن الأجمى ذي اللبد الكليم[4]

---

(١) العريب: مصغر عرب.
(٢) يحاججها: يحاجها، بفك الإضغام وهو الأصل، وهو يكثر في شعر الشريف.
(٣) الحجاج بالفتح ويكسر: عظم يثبت عليه الحاجب.
(٤) الأجمى: ساكن الأجم وهو الليث، واللبد: جمع لبدة وهو شعر كاهل الأسد،

وأقسم إن ثوبك يا ابن ليلى ... لمجموع على عرض سليم
رزئتك كالوذيلة لم تمتع ... بها بعد الوجود يد العديم[1]
تنام وتترك الأضغان يقظى ... خماشات الذوابل في تميم[2]
إذا نزعوا الملابس أذكرتهم ... ذحول يديه آثار الكلوم
ومن مطل الديون أعد صبرًا ... على عنت المطالب والغريم
تداعت لي بمصرعه الليالي ... وأوعبت النوائب في أديمي
وتقترع القوراع في جناني ... قراع النبل في الغرض الرجيم[3]
أأجزع أن حطمن حجاز أنفي ... وهن يقصن أعناق القروم[4]
وما لي لا أراع وقد رمتني ... يد الجلي بقارعة التميمي
أحنُّ إليه واللقيا ضمار[6] ... حنين العود للوطن القديم[5]
وأنشده وأعلم أين أمسى ... مطالًا للبلابل والهموم
كأدماء القرا نشدت طلاها[8] ... وما وجدان جازية بغوم[7]
تطيع اليأس ثم تعود وجدًا ... إليه بالمقصة والشميم[9]

والكليم: الجريح

(١) الوذيلة على وزن سفينة: المرآة والقطعة المجلوة من الفضة.
(٢) الخماشات: جمع خماشة بالضم وهو: ما ليس له أرش معلوم من الجراحات.
(٣) تقترع: تقتتل، والغرض الرجيم: الهدف المنصوب.
(٤) يقصن: من الوقص وهو الكسر.
(٥) العود بفتح العين: الجمل.
(٦) الضمار على وزن كتاب: هو ما لا يرجى رجوعه من المال.
(٧) الجازية: الظبية يجزيها العشب، والبغوم الرخيمة الصوت.
(٨) القرا: الظهر، والأدماء: ما في لونها من أدمة، وهي في الظباء لون مشرب بياضًا.

(٩) المقصة: من قص الأثر إذا تتبعه، والشميم: شم الأرض لتعرف الطريق الذي مشى فيه المفقود.

يعارضني بذكرك كل شيء ... عداد الداء غبَّ على السليم[1]
أجدك هل ترى بعد ابن ليلى ... طعانًا بين رامة والغميم
أأرجو للحواضن كابن ليلى؟ ... أحلت إذن على بطن عقيم

وكان الشريف يذكر ابن ليلى كلما ضجر في أسفاره، فكأنه كان يراه ملك البيداء.

أيها السادة:

ليس الذي يهمني في هذا المقام هو النص على وفاء الشريف، وإنما الذي يهمني هو تعليل ذلك الوفاء، فالشاعرية التي كانت تتفجر في صدر الشريف هي التي جعلت الدنيا أمام عينيه منادح للأطراب والأشجان، فإذا كان من الشعراء من يتكلف أسباب الحنين فيتفجع لغروب الشمس، أو يتوجع لسقوط الأوراق في الخريف، فإن الرضي يجد من نوائبه الوجدانية ينابيع للحزن لا تنضب ولا تغيض.

والحزن أيها السادة طيف أسود، ولكنه محبوب، والشعراء هم الذين جعلوا وصف الحزن من الشرائع الإنسانية، والحزن لا يكون دائمًا صفة سلبية كما يتوهم بعض الناس، فهو حين يسمو يكون دليلًا على عافية القلب وسلامة الروح، ولا يحزن حق الحزن إلا الأصحاء.

إن الحزن العنيف هو الشاهد على قوة شعورنا بما نفقد، وهو الدليل على أننا نحاول العظائم فنطلب الخلود لكل ما تصطفي أرواحنا في عالم المحسوس والمعقول.

وما كان الشريف يبكي أحبابه مرة واحدة ثم يلوذ بالصمت، لا، وإنما

(١) العداد بالكسر: اهتياج وجع اللديغ بعد سنة، والسليم: الملدوغ، سمي بذلك تفاؤلًا، وغب الداء: تحرك وهاج.

كان يصل أحبابه بالذكرى والحنين، فلا يفقد منهم غير الوجود الملموس، فطريق الحج على طوله في تلك العهود كان يمثل للشريف أممًا كثيرة من عوالم الأحياء والأموات، ولعل ظهور الخيل لم تعرف فتى أقوى شاعرية من ذلك الفتى البكَّاء، والفرح والترح يفيضان من ينبوع واحد، لو تعلمون.

ومن عجائب ما وقفت عليه أن الناس كانوا يسألون الشريف أن يبكي موتاهم فيجيب: والشجى يبعث الشجى، والدنيا عند الحزين كلها قبر مالك[1].

أليس من العجيب أن يسأل الشريف بكاء ميت لا يعنيه فيقول:

ألا مخبر فيما يقول جلية ... يزيل بها الشك المريب يقين
أسائله عن غائب كيف حاله ... ومن نزل الغبراء كيف يكون
وما كنت أخشى من زماني أنني ... أرق على ضرائه وألين
إلى أن رماني بالتي لا شوى لها ... فأعقب من بعد الرنين أنين
وإن أحق المجهشين بعبرة[2] ... ووجد قرين بان عنه قرين
وما تنفع المرء الشمال وحيدة ... إذا فارقتها باليمين يمين
تجرم عام لم أنل منك نظرة ... وحان ولم يقدر لقاؤك حين[3]
أمر بقبر قد طواك جديده ... فألمس حتى ما أكاد أبير[4]
وتنفضّ بالوجد الأليم أضلع ... وترفضّ بالدمع الغزير شؤون

ومعاذ الأدب أن يكون الشريف في هذه القصيدة كالنائحة المستأجرة، وهل كانت النائحة المستأجرة تعني حقًا ما دعيت للبكاء عليه؟ إنها تبكي

---

(١) إشارة إلى أبيات متمم بن نويرة.
(٢) في الديوان: (لعبرة).
(٣) تجرم: مضى.
(٤) أبلس يبلس: سكت على ما في نفسه.

ودائعها في التراب فهي نائحة ثكلى مفطورة الفؤاد.

ويظهر جانب المروءة من وفاء الشريف حين نتذكر بعض المواقف التي تجلت فيها شجاعته، فقد اتفق لرجل من عظماء بغداد أن يتألب الجمهور عليه لبعض الأسباب، وكان لذلك الرجل كثير من الأصدقاء والأشياع، فلما مات خاف أصدقاؤه وأشياعه عواقب التفجع عليه فلم يمشِ في جنازته غير ثلاثة منهم الشريف وفي هذا الحادث البشع يقول:

لعمري لقد ماطلت لو دفع الردى ... مطال وقد عاتبت لو سمع الدهر
أفي كل يوم أنت غاد مشيع ... حبيبًا إلى دار يقال لها القبر
لئن كان لي في كل ما أنا تارك ... وراء الثرى أجر لقد عظم الأجر
سقيت أبا بكر على البعد والنوى ... ولا بل هام الشامتين بك القطر
أخي ما أقل التابعيك إلى الثرى ... وإخوانك الأدنون من قبلها كثر
لقد كانت النكراء منك خليقة ... ولا عرف حتى يتقى قبله النكر
ألا إنما الماضون منا هم الأولى ... أراحو وحطوا والبواقي هم السفر
تتبعه أبصارنا وهو ذاهب ... كما مال القرن الشمس أوجب البدر[1]
عليك سلام الله فات بك الردى ... ولم يبق عين للقاء ولا أثر

ومن هذا الباب جزع الشريف على أصدقاء لم ترفعهم مواهبهم ولا مقاماتهم لمرتبة النص على أسمائهم في الديوان، وهم أناس كانوا في صدر الشريف معارف وكانوا في زمانهم نكرات، وهؤلاء الأصدقاء المجهولون لا يعرف أقدارهم غير الشعراء، وهل من العدل أن يغلق باب الصدقة فلا يُفتح إلا لمن ظفروا بالشهرة وبعد الصيت؟ أليس من حق الشاعر أن يقول: إن أخلص من ودَّعوني يوم الفرق هو كلبي!

---

(١) وجب البدر: غاب.

ما هذه الغطرسة التي نعتصم بها فلا نهب معاني المودة لغير المشهوزين؟

وهل كان المشهورون أصدق من نعرف حتى نقف عليهم لواعج الشوق والحنين؟

كم رجل خامل لذكرٍ، صغير الشأن، يقبل عليك بنفس توَّاقة وقلب حنان!

كم امرأة أمية لا تعرف غير شئون البيت، ثم تمد زوجها بأرواح من القوة والفتوة لا تقدر على مثلها المتخرجات في السوربون!

إن الصداقة لها منابع غير منابع العرقان، والرجل العالم لا يصادق إلا حين يرجع إلى الفطرة الأولى، فطرة الإنسان الحساس.

فلا تلوموا الشريف إن رأيتموه يرثي أناسًا لم يسمح مقامه الاجتماعي بذكر أسمائهم في الديوان، فتلك وثبة فطرية لا تصدر إلا عن كرام الرجال.

وإن وقفات كهذه لأشرف من وقفاته وهو يرثي رجلًا من بني أمية أو رجلًا من بني العباس، لأن في بكاء العادلين من الخصوم لونًا من الأثرة وحب الإعلان، أما بكاء المغمورين المجهولين فهو فيض من الطبع الصادق والإحساس الأمين.

ومثل الشريف في هذا الباب مثل الفنان الذي ينحت التماثيل، فهو دائمًا يوهم الجمهور أنه يصنع تمثالًا لامرأة مجهولة أو رجل مجهول، هو يخدع الناس حين يوهمهم أنه لا يهتم بغير تمثيل المعني، ولو أبيح له أن يفصح لقال إنه لا ينظر إلى النموذج، وإنما يستوحي صورة هي بعض ما في ضميره من دفائن الكنوز.

وقد اهتديت إلى هذا المعنى لطول ما عاشرت المثَّالين، فقد صحبت المسيو بلانشو وهو يضع تمثال العارية، وصح عندي أن في التمثال شمائل لم تكن في النموذج، فأدركت أن المثَّال يستعين النموذج على تذكر ما كان فُتِنَ به في عالم العيان.

فالشريف يجسم معاني الأخوة وهو يبكي أصدقاءه المجهولين، وهو أيضًا يشرع للناس مذاهب الوفاء، وللشعر في صدر ذلك الرجل جوهر لا يملك مثله إلا من اصطفاهم الله للتعبير عن حقائق الوجود.

أيها السادة:

إنكم في غنى عن التذكير بها في آداب المجتمع من أوهام وأغاليط فلا تضيق صدوركم حين يطوي الشريف أسماء فريق من الذين سكب على قبورهم سآبيب الدمع السخين، وإنما أرجوكم أن تتمثلوا ديوان شعره شبيها بمصانع الرسامين والنحاتين في القديم والحديث، فليس يعلم إلا الله من الذين يعنيهم فنان مثل أحمد راسم أو فنان مثل محمود سعيد، كما لا يعلم إلا الله من الذين كان يعنيهم البحتري وهو يفتتح قصائد المديح بالنسيب.

إن الشاعر كالغابة الشجراء، لا يعرف مجاهلها غير الأيقاظ من الأدلاء، وقد دلتكم على قلب الشاعر الذي اسمه الشريف؛ لأنه أقدم صديق عرفته في بغداد، وإني لأرجو أن يعذرني حين يراني نممت عليه، فما أذكر أننا تعاهدنا على كتمان هذه الأحاسيس.

وإليكم شواهد من شعره في بكاء المغمورين، قال من قصيدة:

مالي أودع كل يوم ظاعنًا ... لو كنت آمل للوداع لقاء

وأروح أذكر ما أكون لعهده ... فكأنني استودعته الأحشاء

فرغت يدي منه وقد رجعت به ... أيدي النوائب والخطوب ملاء

أحبابي الأدنين كم ألقى بكم ... داء يمض فلا أداوي الداء
أحيا أخاكم الممات وغيركم ... جربتهم فثكلتهم أحياء
إلا يكن جسدي أصيب فإنني ... فرقته فدفنته أعضاء

وقال في قصيدة ثانية:

أقول وقد قالوا مضى لسبيله ... مضى غير رعديد الجنان ولا نكس[1]
كأن حداد الليل زاد سواده ... عليك ورد الضوء من مطلع الشمس
أرى كل رزء دون رزئك قدره ... فليس يلاقيني ليومك ما يُنسي

وقال قصيدة ثالثة، وهي في رجل كان له شخصية، ولا نعرف السبب في طيّ اسمه عن الناس:

ما بعد يومك ما يسلو به السالي ... ومثل يومك لم يخطر على بالي
وكيف يسلو فؤاد ناهض جانبه ... قوارع ممن جوى هم وبلبال
يا قلب صبرًا فإن الصبر منزلة ... بعد الغلوِّ إليها يرجع الغالي
نقص الجديدين من عمري يزيد على ... ما ينقصان على الأيام من حالي
مضى الذي كنت في الأيام آمله ... من الرجال فيا بعدًا لآمالي
قد كان شغلي من الدنيا فمذ فرغت ... منه يدي زاد طول الوجد أشغالي
تركته لذيول الريح مدرجة ... ورحت أسحب عنه فضل أذيالي
ما بالي اليوم لم ألحق به كمدًا ... أو أنزع الصبر والسلوان من بالي

أيها السادة:

هناك جانب من غرائب الوفاء عند الشريف هو بكاء النساء، وهذا أغرب الجوانب، وهو يحتاج إلى تأمل ودرس، ولا نعرف بالضبط كيف نشأ هذا الإحساس عند الشريف، فقد كان المألوف في التقاليد العربية أن لا يُبكَى من

---

(١) النكس بالكسر: المقصر عن غاية الكرم، والجمع أنكاس

النساء غير المعشوقات، وبكاء الأمهات والحلائل باب من النبل ولكنه في شعر العرب قليل، فقد لا يساوي واحدًا من خمسين إذا أحصينا ما قيل في الرثاء، فكيف اتفق للشريف الرضي أن يكثر من تعزية الناس في أمهاتهم وبناتهم وأخواتهم؟

إن هذه الظاهرة ليس لها عندي غير تعليل واحد، هو أن الشريف الرضي كان (ابن أمه) كما يعبر المصريون حين يداعبون من يغضبون لأمهاتهم من الأطفال.

ونحن نعرف أن أيام البؤس في حياة الشريف مضت وهو في رعاية أمه الرءوم التي باعت أملاكها وحليها لتقيه وتقي أخاه ذل العوز والاحتياج.

والأم الرءوم لم تجد من يؤرخ فضلها في اللغة العربية، ويندر بين كتاب العرب من يقول حدثتني أمي وأنبأتني أختي وأخبرتني حليلتي، وإن كان في شعرائهم من يقبل النعال في أقدام الملاح.

وما أريد أن أطيل القول فيما أثر عن العرب والهنود من بغض البنات، فذلك معروف، وإنما أريد أن أقف عند هذه النزعة النبيلة من نزعات الشريف، وأنا أجزم بأنه كان يرى المرأة في صورة أمه، تلك الأم التي وقته مكاره الحياة في السنين العجاف يوم أودع أبوه غياهب الاعتقال.

والحق أن اللغة العربية كانت تحتاج إلى من يمجدون الأمهات والأخوات والبنات على نحو ما وقع في اللغات الأجنبية، فإن في المرأة عناصر من العطف والتضحية لا يدركها إلا ذوو الألباب، وصاحبنا الشريف قد وُفِّق في هذه الناحية كل التوفيق.

ورثاء الشريف لأمه يشهد بأنه كان يفهم قيمة هذا المذهب النبيل، فهو

يجعل موتها بابًا لشماتة الأعداء إذ يقول:

كم عبرة موهتها بأناملي ... وسترتها متجملًا بردائي
أبدي التجلد للعدوّ ولو درى ... بتململي لقد اشتفى أعدائي

والتصريح بأن موت الأم باب إلى الشماتة هو أعظم تمجيد لكرائم النساء.

وهو يصرح بأن أمه كانت تقيه النوائب، وتنفق عليه وتواسيه، فيقول:

فبأي كف أستجنُّ وأتقي ... صرف النوائب أم بأي دعاء
ومن المموّل لي إذا ضاقت يدي[2] ... ومن المعلل لي من الأدواء[1]
ومن الذي إن ساورتني نكبة ... كان المرقى لي من الأسواء[3]
رزئان يزدادان طول تجدد ... أبد الزمان فناؤها وبقائي
قد كنت آمل أن يكون أمامها ... يومي وتشفق أن تكون ورائي

إلى أن يقول:

لو كان يبلغك الصفيح رسائلي[4] ... أو كان يسمعك التراب ندائي
لسمعت طول تأوهي وتفجعي ... وعلمت حسن رعايتي ووفائي
كان ارتكاضي في حشاك مسببًا ... ركض الغليل عليك في أحشائي

وهذا البيت يتضمن صورة حسية لا يصرح بها إلا شاعر يفهم الحقائق، فهو يرى حياته في بطن أمه دينًا واجب الأداء، وكذلك صح لهذا الشاعر الإنساني أن يعزي بعض الناس في بنت ماتت بعد بنت فيقول من قصيد طويل:

---

(١) الأدواء: جمع داء.
(٢) المموّل: واهب المال.
(٣) الأسواء: جمع سوء وهو الردى.
(٤) الصفيح هنا: هو القبر وجمعه صفائح.

هـذا العـزاء وإن تحـزن فـلا عجـب إن البكـاء بقـدر الحـادث الجلـل[1]

ولكن ما بالنا نحصر أسباب هذه العاطفة فيما تلقاه الشريف عن أمه الرءوم؟ ما الذي يمنع افتراض أن تكون هذه المعاني أُوحيت إليه من التعرف إلى كرائم النساء؟ ما الذي يمنع من التصريح بأن أشراف الرجال لا تخلو حيواتهم من مودات شريفة نبيلة يضمرونها لبعض العقائل المصونات؟ ما الذي يمنع من القول بأن في بعض الأجنبيات نفحات من الرفق نتنسم بها أرواح الفردوس؟

وهل قضى علينا سوء الطالع أن لا تكون صلاتنا بالنساء إلا شبهات تحوطها شبهات؟

إن تلك المعاني السود لا ينبغي أن تطيف بأخيلة الكرام من الرجال، فللرجل النبيل كل الحق في أن يشغل قلبه وذهنه بشواغل المودة الصادقة لمن يعرف من أشراف النساء، وهذا باب من أنس الضمائر والقلوب عرفه الناس من قديم الزمان وإن جنبوا عن التصريح به فيما يكتبون وما ينظمون.

وصديقنا الشريف الرضي كان يفهم هذه المعاني، وأكاد أجزم بأنه كان يضمر الإعزاز لكثير من عقائل الكرخ وبغداد، وأذهب إلى أبعد من ذلك فأقول: إنه كان يصادق كثيرًا من نساء البيداء، فإن لم تصدقوا ذلك فحدثوني كيف صح له أن يقول في رثاء سيدة غيبها التراب:

عـلى أي غـرس آمـن الـدهر بعـدما رمـى قـادح الأيـام في الغـصن الرطـب
ذوى قبل أن تـذوي الغـصون وعهـده قريـب بأيـام الربيلـة والخـصب[2]
كفـى أسـفًا للقلـب مـا عـشت أنني بكفـي عـلى عيني حثـوت مـن الـترب

(١) الجلل: العظيم، وهو أيضًا الحقير، فهو من الأضداد.
(٢) الربيلة: على وزن سفينة: السمن والنعمة، والمراد بها وفرة الشجر.

جرت خطرة منها وفي القلب عطشة ... رفعت لها رأسي عن البارد العذب
وقلت لجفني ردّ مدمعًا على دم ... وللقلب عالج فرح ندب على ندب
ومما يطيب النفس بعدك أنني ... على قرب[1] من ماء وردك أو قرب
ألا لا جوى مسّ الفؤاد كذا الجوى ... ولا ذنب عندي للزمان كذا الذنب
خلا منك طرفي وامتلا منك خاطري ... كأنك من عيني نقلت إلى قلبي

إي والله، كذلك تسجل موادات الكرائم من النساء، ولو أفنينا الأعمال في تخليد مآثر الحرائر وفضلهن على أرباب العقول لما بلغنا بعض ما نريد.

أيها السادة:

إن المقام يضيق عن شرح ما عند الشريف من غرائب الوفاء، ويكفي في ختام هذه المحاضرة أن نشير إلى ما في شعره من رقة الحنين، فهو الذي يقول في رثاء بعض الأصدقاء:

أمسي كأن من القنا ... بأضلاعي قرعًا ووخزا
يا ثانيًا للنفس بل ... يا ثالث العينين عزا
عضو عثت فيه المنية ... ة ما أجل وما أعزا[2]

وهو الذي يقول:

مصابك لم يدع قلبًا ضنينًا ... بغلته ولا عينًا جمادا[3]
كان الناس بعدك في ظلام ... أو الأيام ألبست الحدادا
وكنت أفدت خلته ولكن ... أفادني الزمان وما أفادا[4]

---

(١) القرب بالتحريك: سير الليل لورد الغد، أو أن لا يكون بينك وبين الماء إلا ليلة.

(٢) عثت: عائث، من العيث وهو الإفساد.
(٣) الغلة بالضم: هي الظمأ الشديد والمراد بها اللوعة.
(٤) أفدت: استفدت.

فـــإن لم أبكـــه قـــربي تلاقـــت مغارســـها بكيـــت لـــه ودادا

وهو الذي يقول في التوجع على من فقد من الأهل:

قف موقف الشك لا يأس ولا طمع وغـالط العـيش لا صـبر ولا جـزع
وخـادع القلـب ولا يـود الغليـل بـه إن كـان قلـب عـلى الماضـين ينخـدع
سـائل بـصحبي أنـى وجهـة سـلكوا عنـا وأي الثنايـا بعـدنا طلعـوا[1]
غـابوا فغـاب عـن الـدنيا وسـاكنها مـرأى أنيـق عـن الـدنيا ومـستمع
أبكـيهم ويـد الأيـام دائبـة تدوف لي فـضلة الكـأس التـي جرعـوا[2]
لا أمـتري أننـي مجـر إلى أمـد جـروا إليـه قبيـل اليـوم أو نزعـوا
أعتـادهم لا أرجـى أن يعـود لهـم إليّ مـاض ولا في فـيهم طمـع
فـما تـوهج أحـشائي عـلى نفـر كـانوا عـواري[3] للأيـام فـارتجعوا
ذوائـب مـن لبـاب المجـد مـا فجعـوا بمثـل أنفـسهم يومًـا لا فجعـوا

....

هـل تعلمـون عـلى نـأي الـديار بكـم أن الـضمير إلـيكم شـيق ولـع[4]
لكـم عـلى الـدهر مـن أكبادنـا شـعل مـن الغليـل ومـن آماتنـا دفـع
لواعج أفـصحت عنهـا الـدموع وقـد كـادت تجمجمهـا الأحـشاء والـضلع
أنزفـت دمعـي حتـى مـا تركـت لـه غربًـا يفـيض عـلى رزء إذا يقـع[5]
ثم اضـطررت إلى صـبري فعـذت بـه وأعـرب الـصبر لمـا أعجـم الجـزع

ومن هذه الشواهد ترون أنه كان يخاطب الأحباب الذاهبين كما يخاطب الأحباب الغائبين، وذلك من قوة الإحساس.

---

(١) الثنايا: جمع ثنية وهي الطريق في الجبل.
(٢) داف الشراب: مزجه بشيء
(٣) في الديوان: (عوادي) وهو تحريف.
(٤) شيق: مشتاق.
(٥) الغرب بالفتح: عرق في العين يسقى لا ينقطع.

غراميات الشريف الرضي

أيها السادة:

لقد شاع في المشارق والمغارب أن الشريف الرضي كان من المغرمين، فقد كان القدماء يضربون الأمثال بقصائده الحجازيات، فيقولون ما معناه: لا تصقل نفس المتأدب إلا إن حفظ هاشميات الكميت، وخمريات أبي نواس، وزهديات أبي العتاهية وتشبيهات ابن المعتز، ومدائح البحتري، وحجازيات الشريف الرضي[1].

فالشريف كان معروفًا عند القدماء بصدق اللوعة والصبابة، وكانت أشعاره في الحب كئوسًا يعاقرها المتيمون.

ولكن مرَّت أجيال وأجيال والناس منصرفون عن ذلك الجانب المشرق من شعر الشريف؛ لأن الحياة الإسلامية قد شابتها أقذاء التزمت الجمود، ولم يبقَ من رجال الدين من تؤثر عنه أطايب الفكاهة والظرف، أو تروى عنه غرائب الأحاديث.

وإني لأشعر بالتهيب وأنا أشرح هذا الجانب من عبقرية الشريف الرضي، ولكن يشجعني أني أتكلم في بغداد التي وسع صدرها مئات المذاهب والآراء في الدين والاجتماع.

وأكاد أجزم بأن الشريف الرضي لو عاش في غير العراق لما استطاع أن يجمع بين الأدب والدين؛ لأن الجماهير الإسلامية في غير العراق لم تكن تسمح لرجل من أساتذة العلوم الدينية أن يطيل القول في فتنة الخدود وسحر العيون.

---

(١) لم يتسع الوقت لمراجعة هذا النص. وقد قرأته منذ أكثر من عشرين سنة في دائرة المعارف للبستاني ورأيته بعد ذلك في عدة مؤلفات.

وليس معنى هذا أن العراق خلا خلوًّا تامًّا من التنكر لأخلاق الظرفاء من رجال الدين، لا، ولكنه كان أرق وأظرف من مصر التي لم يعرف علماؤها غير فناء الأعمار في التدريس والتأليف، والتي تسقط فيها هيبة العالم إن اتهمه حاسدوه بأنه أديب يحفظ بعض ما قيل في وصف المِلَاح.

كان الشريف الرضي يحب ويعشق، وقد اتسع عصره وبلده لسماع ما قال في الحب والعشق، ولكنه مع ذلك حبس عواطفه في قفص من حديد؛ لأن المجتمع العراقي على تسامحه لم يكن يبيح لمثله غير التجمل والتوقر والاستحياء، فكان الشريف يسقي منابت الظرف من مِزاجه الرقيق بقراءة ما ينظم معاصروه من أشعار المجون، وهل نسيتم ما أشرنا إليه من اهتمامه بدراسة أشعار ابن حجاج؟

لقد فطر الشريف الرضي على رقة الإحساس، ولكنه منذ نشأته كان مسئولًا عن رعاية التقاليد، وهذا السجن الاجتماعي هو الذي أخرج من وجدانه ذلك الشاعر المجيد؛ لأن المشاعر لا ترهف إلا بقوة الاعتلاج، فلو كان الشريف رجلًا مطلقَ الحرية في تصرفاته الشخصية لكان من الممكن أن يصير ماجنًا يشبه الألوف ممن تنسموا أرواح دجلة والفرات، ولكن قسوة المجتمع صهرته صهرًا عنيفًا فأخرجت منه وترًا حنَّانًا يشدو فيجيد.

كان الشريف يستطيع أن يملأ الدنيا بالكلام عن التنسك والتقشف والزهد، وكان يستطيع أن يكون إمامًا منقطع النظير في علوم اللغة والدين، وكان يستطيع أن يكون رجلًا تُقَبَّل يمناه؛ لالتماس البركات، ولكنه لو عق فطرته لكان شيخًا تافهًا كألوف المشايخ الذين سمح الدهر بأن يكونوا من أساتذة الأزهر الشريف، فلم يبق إلا أن يتسامح مع فطرته بعض التسامح فيعلن بعض ما في صدره من الغرام المدفون، ولكن كيف يعلن ذلك؟ سيظل الرجل في حرب بين المجد والحب.

هو في نفسه صالح لأن يكون من أقطاب الدولة.

ولكن ما هذه النوازع الدقاق التي تنزل به إلى الهوان في الحياة الغرامية؟

أيصح أن يصبح الفارس المغوار أسيرًا لعينين كحيلتين يشع فيهما سحر النعاس؟

أيمكن أن يكون المحارب الصوال فريسة للنحور العاجية التي تعجز عن حمل العقود؟

ما هذه الصلات الطبيعية التي تجمع بين الأضداد فتقرن القلب القاسي بالقلب الرقيق؟

ما هذه الغرائب التي تقضي بأن لا يتم العشق إلا بين رجل وامرأة مختلفين في العرض والطول على نحو ما كنا نرى في شوارع باريس؟

إن الطبيعة تنتقم من الأوضاع والتقاليد، ولكن أكثر الناس لا يفقهون!

إن الشريف قد تزدهيه الكبرياء فيقول:

تضاجعني الحسناء والسيف دونها ... ضجيعان لي والسيف أدناهما مني

إذا دنت البيضاء مني لحاجة ... أبى الأبيض[1] الماضي فأبعدها عني

وإن نام لي في الجفن إنسان نظر ... تيقظ عني ناظر لي في الجفن[2]

أغرت فتاة الحيِّ مما ألفته ... أغلغله دون الشعار من الضنِّ

وقالت هبوه ليلة الخوف ضمه ... فما عذره في ضمه ليلة الأمن

وهذه قطعة نفيسة من حيث المعنى والخيال، فهل كانت من نفحات

---

(١) الأبيض: هنا السيف.

(٢) الجفن: الغمد، وفي البيت جناس.

الصدق؟ أستبعد ذلك، فالرجل لا يضاجع السيف في ليلة الوصل إلا وهو متكلف، ولا سيما إن صرح بأنه في أمان.

إنما الصدق أن يفصح عن ذات نفسه فيصرح بأنه يلقى الجمال بوجه متجهم وقلب رقيق، فيقول:

ومقبل كفي وددت لو أنه ... أومى إلى شفتيَّ بالتقبيل
جاذبته فضل العتاب وبيننا ... كبر الملول وذلة المملول
ولحظت عقد نطاقه فكأنما ... عقد الجمال بقرطق[1] محلول
جذلان ينفض من فروج قميصه ... أعطاف غصن البانة المطلول
من لي به والدار غير بعيدة ... من داره والمال غير قليل

وهذه قطعة شرحنا ما تومئ إليه من الأسرار النفسية في كتاب "مدامع العشاق" منذ سنين، وهي شاهد على النزاع بين العقل والهوى، والهدى والضلال، إن صح أن الصدق في التعبير عن خوالج القلب إثم وإسراف.

الحق أن الشريف كان صورة للنزاع بين العقل والقلب: العقل الذي يوجب أن يكون الرجل من عبيد المجتمع؛ ليسود المجتمع، والقلب الذي يوجب أن يكون الرجل عند وحي الفطرة والإحساس، وقد صدق في التعبير عن هذه المعضلة النفسية حين قال:

ولقد أطلت إلى سلوّك شقتي ... وجعلت هجرك والتجنب زادي
أهون بما حملتنيه من الضنى ... لو أن طيفك كان من عُوَّادي
لا يبعدن قلبي الذي خلفته ... وقفًا على الاتهام والإنجاد
إن الذي غمر الرقاد وساده ... لم يدر كيف نبا عليَّ وسادي
لولا هواك لما ذللت وإنما ... عزي يعيرني بذل فؤادي

(١) القرطق: ثوب رقيق.

العز يعير بذل الفؤاد؟!

تلكم هي القصة الموجزة لحياة الشريف، فهو في نزاع دائم بين عزة الجاه وذلة القلب، فإن لم يكفِ هذان الشاهدان فانظروا كيف يقول:

يا صاحب القلب الصحيح أما اشتفى ... ألم الجوى من قلبي المصدوع
هيهات لا تتكلفن لي الهوى ... فضح التطبع شيمة المطبوع
كم قد نصبت لك الحبائل طامعًا ... فنجوت بعد تعرض لوقوع
وتركتني ظمآن أشرب غلتي ... أسفًا على ذاك اللمى[1] الممنوع
قلبي وطرفي منك هذا في حمى ... قيظ[2] وهذا في رياض ربيع
كم ليلة جرعته في طولها ... غصص الملام ومؤلم التقريع
أبكي ويبسم والدجى ما بيننا ... حتى أضاء بثغره ودموعي
تفلي أناملة التراب تعللًا ... وأناملي في سنى المقروع
قمر إذا استخجلته بعتابه ... لبس الغروب ولم يعد لطلوع
لو حيث يستمع السِّرار[3] وقفتما ... لعجبتما من عزه وخضوعي
أهون عليك إذا امتلأت من الكرى ... أني أبيت بليلة الملسوع
قد كنت أجزيك الصدود بمثله ... لو أن قلبك كان بين ضلوعي

وهذه أشعار من فيض القلب، والشريف في هذه الأشعار ليس هو ذلك الشيخ الجليل الذي أنشأ مدرسة سماها "دار العلم" وأقام فيها مكتبة يتزود منها طلاب اللغة والدين، وإنما هو إنسان يرى الدنيا بأعين الشعراء الذين يدركون أسرار الوجود.

---

(١) اللمى: سمرة الشفة.
(٢) القيظ: صميم الصيف.
(٣) السِّرار: بالكسر هو التناجي في السر.

أيها السادة:

إن النص على هذا المعنى ضروري في هذا البحث، فالشريف الرضي في غرامياته ليس من تلاميذ بغداد، وإنما هو من تلاميذ البيداء، وآية ذلك أن الأنفاس البغدادية لا نحسها عنده إلا في النادر القليل، فهو بعيد كل البعد عن أنفاس الشعراء الذين تمتعت آذانهم وعيونهم بضجيج بغداد ومواكب بغداد وتعليل هذا سهل.

فقد كان رجلًا يفهم أن من المفروض عليه أن لا يُعرف بغير التقى والعفاف، ولم تكن دنيا الناس في ذلك العهد تسمح لرجل مثله أن يخاطر بمركزه الأدبي والديني في سبيل الوجد والصبابة، وإنما كان يُقهر على ذلك قهرًا بما يتوقد في صدره من الغرام المشبوب، وهو نفسه قد شعر بهذا الحرج حين قال في دفع من اتهموه بالخروج على أدب الأتقياء:

وأكـــذب بالتـــصون مـــدعيهم ... وألجـــم قـــائليهم بالعفـــاف

وأريد أن أقول بصراحة: إن الشريف الرضي كان يحاول التخلص من مذاهب البغداديين في التشبب؛ لأن أكثر الشعراء في تلك الأيام كانوا أسرفوا في العبث والمجون، وكان يرى من موجبات الكرامة أن يترفع في نسيبه عما ألف أولئك الشعراء من التبذل والإسفاف، وقد أوغل في التحفظ حتى كاد يهجر الشعر الرقيق، فلم يتفق له إلا في الندرة أن يقول:

يـــا مقلقـــي قلقـــي عليـــ ... ـــك أظنـــه ذنبـــي اليكـــا

أنـــت الـــشقيق فلـــو جنيـــ ... ـــت لمـــا أخـــذت عـــلى يـــديكا

أمـــسيت ثالـــث نـــاظريَّ ... فكيـــف أقـــذي ناظريكـــا

وكفـــاك أني لـــست أعـــ ... ـــقد خنـــصري إلا عليكـــا

أو يقول:

يـــا ليلـــة كـــرم الزمـــا ... ن بهـــا لـــو أن الليـــل بـــاقِ
كـــان اتفـــاق بيننـــا ... جـــارٍ عـــلى غـــير اتفـــاقِ
واســـتروح المهجـــور مـــن ... زفـــرات هـــم واشـــتياق
فـــاقتص للحقـــب[1] المـــوا ... ضي بـــل نـــزود للبـــواقي
حتـــى إذا نـــسمت ريـــا ... ح الـــصبح تـــؤذن بـــالفراق
يـــرد الـــسوار لهـــما فأحـــ ... ـــميت القلائـــد بالعنـــاق

أو يقول:

كـم مقـام خـضنا حـشاه إلى اللهـو ... جميعًـا والليـل ملقـى الـرواقِ
ومزجنـا خمـر الرضـا بـين الرشـ ... ـف بـرغم المـدام تحـت العنـاقِ
قـم نبـادر مرمـى الزمـان ببـين ... فـسهام الخطـوب في الأفـواقِ[2]
واغتنمهـا قبـل الفـراق فـما تعـ ... ـلم يومًـا متـى يكـون التلاقـي
نحـن غـصنان ضـمنا عـاطف الوجـ ... ـد جميعًـا في الحـب ضـم النطـاقِ

والأبيات الأخيرة من قصيدة طويلة نص الديوان على أنها في معنى سئل القول فيه، فكأنه يتهيب الحديث عن ليالي الوصل، ومن الشعراء من تحبسهم تقاليد المجتمع فلا يتحدثون عن أهواء النفس إلا بطريق التلميح.

صدقوني أيها السادة إذا حدثتكم أني تعبت في البحث عن صور بغداد في غراميات الشريف الرضي، فلم أجد غير أطياف، كأن يقول:

أنـا الفـداء لظبـي مـا اعترضـت لـه ... إلا وهتـك شـوقًا لي أسـتره

---

(١) الحقب جمع حقبة بالكسر وهي المدة من الزمان. وأرجو القارئ أن يتأمل جمال هذا البيت.

(٢) الأفواق: جمع فُوق بالضم وهو موضع الوتر من السهم.

لاحظنه والنوى تدمى ملاحظه[1] بعارض من رشاش الدمع يمطره
ما انفك من نفس للوجد يكتمه تحت الضلوع ومن دمع يوفره
أهوى إليَّ يدًا عقد العناق بها والبين يعذله والحب يعذره
وقال تذكر هذا بعد فرقتنا فقلت ما كنت أنساه فأذكره

فهذه قطعة تذكر بابن المعتز، أشعر خلفاء بغداد.

والحق أيها السادة أن الشريف الرضي لم يكن يتكلم اللغة البغدادية إلا حين يأسره الغضب أو الحزن:

كأن يقول في الهجاء:

مواقد نيرانهم قرة[2] وسربال طاهيهم أبيضُ
إذا حركوا للمساعي أبوا وإن أنزلوا دار ضيم رضُوا

وكان يقول في وصف مغنٍّ دميم:

تقذى بمنظره العيون إذا بدا وتقيء عند غنائه الأسماع
أبذاك نستشفي ومن نغماته تتولد الآلام والأوجاع؟!
أم كيف يطربنا غناء مشوَّهٍ أبدًا نهال بوجهه ونراع؟!
نزوي الوجوه تفاديًا من صوته حتى كأن سماعه إسماع[3]

وكأن يقول:

أيا للمجد من قوم لئام ألا حر على عِرض يغار

---

(١) الملاحظ بفتح الميم: العيون، وهي كذلك في قول الشاعر:

يرمون بالخطب الطوال وتارة وحي الملاحظ خيفة الرقباء

(٢) قرة: بفتح القاف باردة.
(٣) الإسماع: الشتم والتشنيع.

فأشجعهم إذا فزعوا جبان ... وأذكاهم إذا نطقوا حمار

لبونكم[٢] تدر لأبعديكم ... وعندي الذِّين[١] منها والنفار

لغير ضوء ناركم وعندي ... دواخنها السواطع والأُوار[٣]

وكأن يقول في التحزن للأموات:

رجعت في إثرهم برغمي ... بعد نزاع إلى نزوع[٤]

أبقى الجوى جرحة بقلبي ... ما عشت مكتومة النجيع

كم غابن الموت عن كريم ... وقارع الخطب عن قريع[٥]

بانوا فلم أنتزح عليهم ... دمعي ولم أستذب ضلوعي

وأسفح الدمع للأعادي ... إني إذن فارغ الدموع

قلت: إن الشريف لم يكن تلميذ بغداد وإنما كان تلميذ البيداء، ولكن هذا القول لا يخلو من اعتساف، فقد كانت للشريف لفتات إلى معالم العراق، كأن يصرخ:

أقول وقد جاز الرفاق بذي النقا ... ودون المطايا مُرْبِخ وزرود[٦]

أتطلب يا قلبي العراق من الحمى ... ليهنك من مرمى عليك بعيد

وإن حديث النفس بالشيء دونه ... رمال النقا من عالج لشديد[٧]

---

(١) الذِّين: بكسر الذال، ولعله لغة في الذَّان وهو العيب.

(٢) اللبون: الناقة ذات اللبن.

(٣) الأُوار بالضم: اللهب.

(٤) النزاع : الشوق ، والنزوع : اليأس.

(٥) القريع : السيد.

(٦) مُرْبِخ: بضم أوله وسكون ثانيه وكسر الباء رمل من رمال زرود، وزرود: رمال بين الثعلبية والخزيمية بطريق الحاج من الكوفة.

(٧) عالج: رمال بين فيد القريات.

تـرى اليـوم في بغـداد أنديـة الهـوى ... لهـا مبـدئ مـن بعـدنا ومعيـد
فمن واصف شوقًا ومـن مشتكٍ حشا ... رمتـه المرامـي أعـين وخـدود
تلفـتُّ حتـى لم يـبن مـن بلادكـم ... دخـان ولا مـن نـارهن وقـود
وإن التفـات القلـب مـن بعـد طوفـه ... طـوال الليـالي نحـوكم ليزيـد
ولمـا تـدانى البـين قـال لي الهـوى: ... رويـدًا وقـال القلـب: أيـن تريـد؟
أتطمـع أن تسلى[٢] عـلى البعـد والنـوى ... وأنـت عـلى قـرب المـزار عميـد[١]؟
ولـو قـال لي الغـادون: مـا أنـت مشتهٍ ... غـداة، جزعنـا الرمـل[٣] قلـت: أعـود
أأصـبر والوعـساء بينـي وبيـنكمُ ... وأعـلام خَبْـت ؟ إننـى لجليـد[٤]

فهذه القطعة تمثل أصدق الشوق إلى العراق، وتشهد بأنه كان مشغول القلب بأحبابه في العراق.

وهو أيضًا الذي يقول:

دعـوا لي أطبـاء العـراق لينظـروا ... سـقامي، ومـا يغنـي الأطبـاء في الحـب
أشـاروا بـربح المنـدل اللـدن والـشذا ... ورد ذمـاء[٥] الـنفس بالبـارد العـذب
يطيلـون جـس النابـضين ضـلالة ... ولو علموا جسوا النوابض من قلبي

والذي يقول:

ألا إن لـيلى بـالعراق كأنـه ... طلـيح تجافـاه الرجـال ظليـع[٦]

---

(١) عميد: أصيب عموده، فهو عميد ومعمود.
(٢) يقال سلا يسلو، من باب نصر، وسلي يسلى، من باب رضي.
(٣) جزعنا الرمل: اجتزناه.
(٤) الوعساء: موضع بين الثعلبية والخزيمية على جادة الحاج، وهي شقائق رمل متصلة، وخَبْت: بفتح فسكون علم لصحراء بين مكة والمدينة.
(٥) الذَّماء: بالفتح هو بقية النفس.
(٦) الطليح: هو البعير نال منه الإعياء، والظليع والظالع: هو البعير يغمز في مشيه.

مقيم يعاطيني الهموم وناظري ... معني بأعجاز النجوم ولوع

والذي يقول:

سقى الله دهرًا حبانا الودا ... د مبتدها فشكرنا العراقا

والذي يقول في رجوعه من الحج يتشوف إلى قباب بغداد:

عسى الله أن يأوي لشُعْثٍ[٢] تناهبوا ... هباب[١] المطايا نصها وانجذابها
وجاسوا بأيديها على علل السرى ... حرار أماعيز الطريق ولابها[٣]
فيرمي بها بغداد كل مكبر ... إذ ما رأى جدرانها وقبابها
فكم دعوة أرسلتها عند كربة ... إليه فكان الطول[٤] منه جوابها

فالشريف لم يكن ينكر بغداد ولا العراق، ولكنه مع ذلك لم يكن مقصور الهوى على بغداد والعراق، فقد كانت له صبابات بالبيداء؛ صبابات غنمها واكتوى بنارها في طريقه إلى الحج، وهو قد حج مرات ورأى الظباء الحوالي والعواطل بالبيداء، وربما كان الحج هو السبب الأول في تفتح عبقرية الشريف فقد كانت تمر أشهر وهو يراود الخيال فوق ظهر جمل أو سراة جواد.

ونحن نعرف فضل هذه الأسفار على الشعراء، فالشعر يحتاج إلى غناء، وهو لا يتيسر في كل وقت لمن يعيشون في الحواضر فوق مهاوي المشكلات السياسية، والمعضلات الاجتماعية، وإنما يحتاج الشعر إلى فراغ من هموم العقل؛ ليستطيع الشاعر أن يعاقر الغناء.

---

(١) الهباب بالكسر: النشاط، والنص: أقصى ما عند الناقة من السير.
(٢) الشعث جمع أشعث: وهو من غبرة السفر.
(٣) الحرار جمع الحرة: وهي الأرض ذات الحجارة السود، والأماعيز جمع أمعوز بالضم: وهي الأرض الصلبة، واللاب جمع اللابة واللوبة بالضم: وهي الأرض ذات الحجارة.
(٤) الطول بالفتح: الجود.

وكذلك يمكن القول بأن الشريف لم يدرك كيف يكون اعتلاج الشوق إلا وهو يسامر الخيال في الصحراء، وقد نظر فرأى ثروة الأدب العربي لم تتكون إلا من أصول الأخيلة البدوية؛ أخيلة الأعراب الذين اتسع وقتهم للغناء، فمضى يتحدث عن مواطن ومعالم ومنازل لا يمكن أن تتسع لها جميعًا مسالك الطريق إلى الحجاز، وبذلك تحول الحب في قلبه إلى معركة وجدانية لا تعرف الرسوم والحدود، وإنما تتميز بما ترى القلوب من شواظ وأقباس.

وكان للشريف في ذلك المذهب نجاة من فضول الباغين والعادين، فهو يحنُّ إلى ديار لا يراها البغداديون إلا إذا استنجدوا طيف الخيال، وهو يذكر أسماء كان لها في أذهان الناس صور قدسية؛ لأن الشعراء الأوائل كانوا خلعوا عليها أفوافًا من السحر الحلال.

كان طريق الحج فرصة للتعرف إلى طوائف من الحسن المكنون، وكان موسم الحج فرصة للتعرف إلى ألوان من الجمال تفرقت في بلاد الله ثم التقت في ساحات الحجيج، فكان صاحبنا يطالع كتاب الحسن بعناية وإمعان، وكان كتاب الحسن في موسم الحج مختلف السطور والخطوط، فكانت فيه سطور شامية، وسطور مصرية وتركية، وسطور مغربية وأندلسية. وكانت فيه كلمات بالحروف اليمنية والجاوية والهندية، وكان الشريف من أقدر الناس على فهم الرموز من خطوط الجمال.

وهنا يبدأ الخطر على ذلك القلب الحساس.

من هنا نعرف كيف كان الشريف كثير الأسى والحنين، فالذي يشهد مواكب الحسن من مختلف الشعوب في موسم لا يدوم غير أسابيع لا يستطيع تزويد العين والقلب بغير الحسرات، وهل تسمح طبيعة المجتمع لأمير الحج أن يقضي ليلة فاجرة أو عفيفة مع امرأة حسناء، وكيف وهو مقتول الوقت

بشرح آداب السعي والرمي والطواف.

الواقع أن تلك المآزق هي التي أوقدت صدر الشريف، فقد كان حاله شبيهًا بحال من يقضي أسبوعين يزور فيهما المعرض الدولي في باريس، فيرى من غرائب الجمال ما يعشي الأبصار والقلوب، ثم يعود وهو آثم الضمير طاهر الثياب.

إن اللغة العربية لا تعرف من الذين سجلوا مواسم الحج بقوة وعنف غير شاعرين: الأول صديقنا عمر بن أبي ربيعة ، عطر الحب ذكراه! والثاني أستاذنا الشريف الرضي، نضر الله مثواه!

أما عمر بن أبي ربيعة فقد كان مطمئن البال؛ لأنه كان حجازيًّا يشاهد من مواسم الحج ما يشاء؛ ولأنه كان خلع العذار فلم يعد يبالي أين يقع هواه؛ ولأنه كان اشتهر بالحب حتى كان ظريفات النساء لا يرين تمام الحج إلا بمشاهدة وجهه الجميل.

أما الشريف الرضي فإنسان آخر، هو رجل يجيء إلى الحج نائبًا عن خليفة المسلمين، هو رجل مسئول لا يليق به اللهو ولا المزاح، ومعه من أهل العراق رجال لا تخفى عليهم مآثم العيون، ولعل فيهم من ينافسه أو يعاديه، فهو ينظر إلى الجمال المنثور فوق بساط الريح بقلب فاتك وطرف عفيف، وقد يتفق أحيانًا أن تعفَّ العيون وتفتك القلوب !!

أيها السادة:

لا تحسبوني أتفلسف على حساب الشريف، فقد قضيت سنين وأنا أحاول فهم هذه الدقائق الوجدانية، وأكاد أجزم بأن الشريف لم يكن يعرف السكون، ولو نزل إلى مغارات الكهوف؛ لأن لذكريات العيون والنحور والخدود ضجيجًا يوقظ الأموات ويصم الأحياء، وهو قد رأى من الوجوه الوسيمة،

وسمع من الأصوات الرخيمة، ما يسوق العقلاء إلى حظيرة المجانين.

وهل كان يمكن أن تتوفر تلك الثروة الشعرية لرجل يلهو ويلعب؟

هل كان يمكن أن يشهد الشريف غرائب صنع الله في مواكب الحجيج وهو في عنفوان الشباب، ثم لا يحفظ في لوحة الذكريات ألف سورة من سور الصباحة والجمال؟

معاذ الهوى والأدب أن يكون الشريف الرضي عابثًا في الغرام، وهل في الغرام عبث ؟ وهل كان اللعب بالحب إلا كاللعب بالجمر المتوهج؟

إن العبث في الحب ممكن، ولكنه مستحيل على رجل يعيش بالبيداء، أو يمر بالبيداء، فلأهل البيداء ومن يجاور البيداء عيون أسحر وأفتك من عيون الظباء، وإني لأعجب كيف يعيش إنسان في العراق ثم لا يعشق وهو يرى عيون المها في كل مكان وفي كل حين؟

ولكن الشريف صعب عليه أن يجعل العراق مرجع هواه؛ لأن سياسة المجتمع كانت ترفض ذلك؛ ولأن الرجل كان في ذاته شعوبي الهوى، فكان في صدره سهام من مصر والشام والحجاز واليمن والمغرب والهند وفارس والعراق، كان صورة للفؤاد الممزق الذي تعاورته سهام العيون.

أيها السادة:

لا تلوموني في هذا اللف والدوران، فأنا أحاول أمرًا يصعب إليه الوصول، أحاول التصريح بأن الأسماء التي وردت في شعر الشريف لم تكن لها في ذهنه مسميات، أريد أن أصرح بأنه كان يسلك المذاهب الرمزية حين قال:

ولم نر كالعيون ظبا سيوف ... أرقن دمًا وما رمن الجفونا

عوائد من تذكر آل ليلى ... كأن لها على قلبي ديونا

فآل ليلى لم يكونوا بالفعل آل ليلى، ولعلهم كانوا آل جميلة أو آل ظمياء!.

وذو الأثل في قوله:

تذكرت أيامًا بذي الأثل بعدما ... تقضي أواني في الصبا وأوانها
يطيب أنفاس الرياح ترابها ... ويخضلُّ من دمع النسائم بانها

لم يكن بالفعل ذا الأثل ، ولعله كان محلة من محلات بغداد.

وكذلك يمكن القول في (أراك الحمى):

يا أراك الحمى تراني أراكا ... أي قلب جنى عليه جناكا
أعطش الله كل فرع بنعما ... ن من الماطر الروي وسقاكا
أي نور لناظريَّ إذا ما ... مرَّ يوم وناظري لا يراكا
لا يرى السوء من رآك مدى الدهـ ... ـر وحيَّا الإله من حياكا
ورعى كل ناشق لك دلتـ ... ـه صبا طلة على رياكا

أو ما تحدث به عن رامة إذ يقول:

وحبست في طفل العيشة نفحة ... حبست برامة صحبتي وركابي[1]
متململين على الرحال كأنما ... مروا ببعض منازل الأحباب
في ساعة لما التفت إلى الصبا ... بعدت مسافته على الطلاب
وتارجت منها ذلاذل ريطتي[2] ... حتى تعارف طيبها أصحابي
فكأنما استعقبت فارة تاجر[3] ... وبعثت فضلتها إلى أثوابي

---

(١) الطفل: بالتحريك هو الشمس قرب الغروب، ورامة: منزل بينه وبين الرمادة ليلة في طريق البصرة إلى مكة.
(٢) الريطة: ملاءة كلها نسج واحد وقطعة واحدة، والذلاذل: الأطراف .
(٣) فارة التاجر: هي فأرة مسك.

أشكو إليك ومن هواك شكايتي ... ويهون عندك أن أبثك ما بي [١]
يا ماطلي بالدين وهو محبب ... من لي بدائم وعدك الكذاب

فهل تظنون أن (رامة) وردت في هذا الشعر وهي حتمًا رامة؟ أم تحسبونها بقعة خيالية طافت بخيال الشريف؟

وكذلك يمكن القول بتزوير المواضع في هذا القصيد.

خليليَّ هل لي لو ظفرت بنية ... إلى الجزع من وادي الأراك سبيل
وهل أنا في الركب اليمانين دالج ... وأيدي المطايا بالرجال تميل
وفي سرعان الريح لي لو علمتما ... شفاء ولو أن النسيم عليل
وفي ذلك السرب الذي تريانه ... أحم [٢] غضيض الناظرين كحيل
شهيُّ اللمى عاط إلى الركب جيده ... ختول لأيدي القانصين مطول
وكم فيه من حوٍّ اللثات كأنما ... جرى ضرب ما بينها وشمول [٣]
علقناك يا ظبي الصريم طماعة [٤] ... أعندك من نيل لنا فتنيل
أنيل نائلًا أو لا فتن بنظرة ... فإني بالأول الغداة قتيل
وإني إذا اصطكت رقاب مطيكم ... وثوِّر حاد بالرفاق عجول [٥]
أخالف بين الراحتين على الحشا ... وأنظر أني ملتم فأميل
أحن وتجزيني على الشوق قسوة ... ألا غال ما بيني وبينك غول
وما زادني ذكر الأحبة عن كرى ... ولكن ليلي بالعراق طويل

---

(١) في الديوان (أن أبيت كما بي).
(٢) أحم: أسود العينين.
(٣) حوّ: جمع حواء وهي السمراء، والضرب بالتحريك: العسل، والشمول: الخمر تبردها ريح الشمال.
(٤) الصريم: الرمل المنقطع.
(٥) ثور: هتف.

وقد يتفق له في قصيدة واحدة أن يشير إلى عدة معالم فيقول:

يا منشظ الشيح والحوذان من يمن ... حييت فيك غزالًا لا يحيينـي
ترى الغريم الذي طال اللزوم له ... في الحيِّ موِّلِ من بعدي فيقضيني
إن الخلىَّ غداة الجزع عيد به ... إلى ضمير معنى اللب مفتون
لولا ظباء معاطيل سنحن لنا[1] ... ما كان يذهل عن عقل وعن دين
قد كاد ينجو بنجد من عزيمته ... فعارضته عيون الربرب العين
ماء النغيب ولو مقدار مضمضة[2] ... شفاء وَجْدِي وغير الماء يشفيني
ونشقة من نسيم البان فاح بها ... جنح من الليل تجري في العرانين[3]
أسقى دموعي إذا ما بات في سدف ... صرير أثل بداريًّا[4] يغنيني
هيهات بابل من نجد لقد بعدت ... عن المطى مرامي ذلك البين[5]

فالشريف في أمثال هذه الأشعار لا يعني بالضبط ما يقول، فهو يذكر مواضع ومنازل لا يعنيها بالذات، وإنما يجعلها حجازًا بينه وبين الواشين ممن يسوءهم أن يصرح بمواقع هواه في الكرخ وبغداد.

أيها السادة:

لا تظنوا الشريف كان من المخادعين، لا، وإنما كان من المتجملين فقد كان على جانب من الشجاعة حتى صح له أن يصرح بأن الحسن يسبيه في الجنسين فيقول:

---

(١) المنشظ: المنبت، والشيح والحوذان: نباتان.
(٢) معاطيل: غير حوال، أي وحشيات.
(٣) العرانين: جمع عِرنين بالكسر وهو الأنف.
(٤) داريا: اسم موضع.
(٥) البِين: بكسر الباء الناحية والفصل بين الأرضين.

وأغيد محسود على نور وجهه ... هجرت سنى لحظ البعيد المجانبِ
وغيداء قيدت للعناق ملكتها ... فنزَّهت عنها بعد وجد ترائبي

ويقول:

ويا أهيفًا رمقته العيون ... ورفت عليه قلوب الأمم
تضرَّم خداه حتى عجبت ... لعارضه كيف لم يضطرم
لئن لم تجد طائعًا بالنوال ... لقد جاد عنك الخيال الملم
ومثلك ظالمة المقلتين ... تلاقى الجمال عليها وتمّ
لها في الحشا حافز كلما ... جرى الدمع دلَّ عليه ونمّ
أقول لها والقنا شرَّع ... ويرغم من قومها من رغم
لنا دون خدرك نجوى الزفير ... ومجرى الدموع وشكوى الألم
وإلا فقرع صدور القنا ... ووقع الظبا وصليل اللجم

ويقول:

وقد كنت آبى أن أزل لصبوه ... وأن تملك البيض الحسان عقالي
خميصًا من الأشجان لا يوضع الهوى ... بقلبي فلا اجتاز الغرام ببالي[1]
إلى أن تراءى السرب بين غزالة ... ترنح في ثوب الصبا وغزال
فلما التقينا كنت أول واجد[2] ... ولما افترقنا كنت آخر سالي
وليلة وصل بات منجز وعده ... حبيبي فيها بعد طول مطال
شفيت بها قلبًا أطيل غليله ... زمانًا فكانت ليلة بليالي
فيا زائرًا لو أستطيع فديته ... بأهلي على عز القبيل ومالي

ولكن هذه الشجاعة لها حدود يعرفها جيدًا من يرشح نفسه لإمارة الحج

---

(١) يوضع الهوى: من الإيضاع وهو الإسراع.
(٢) الواجد: المشتاق.

ونقابة الأشراف ومناصب القضاء ثم إمارة المؤمنين.

ومن أجل هذا كان تصويره للجوانب الحسية من الجمال تصويرًا قليل التهاويل، لا رفث فيه ولا فسوق، فلم يستطع أن يكون خليفة الشاعر الذي قيل فيه: ما عُصِيَ الله بشعر أكثر مما عُصِيَ بشعر عمر بن أبي ربيعة، ولم يتحدث أحد بأنه قرأ غراميات الشريف فدعته نفسه إلى مراجعة الضلال، وإنما يستطيع ألوف من الناس أن يقولوا: إن شعر الشريف حبب إليهم الغرام النبيل، وساقهم إلى تمجيد مواسم العيون في كرائم الأحاسيس.

لا تنتظروا من الشريف أن يهيجكم بالأوصاف الحسية؛ فما كان يملك ذلك وكرمكم يتسع للصفح عنه، وقد عرفتم كيف كان مركزه في المجتمع، بل اعذروه إن اكتفى بالأوصاف التي رددها الشعراء فقال:

لقين قلوبنا بجنود حرب ... تطاعن بالدمالج والبرينا[1]

جلون لنا لآلئ واضحات ... أضأن بها الذوائب والقرونا

عهدنا الدر مسكنه أجاج ... فكيف تبدل الثغب المعينا[2]

أو قال:

عطون بأعناق الظباء وأشرقت ... وجوه عليها نضرة ونعيم[3]

أمطن سجوفًا عن خدود نقية ... صفا بشر منها ورق أديم[4]

---

(١) الدمالج جمع دملج على وزن جندب: وهو المعضد، والبرين: الخلاخيل مفردها برة على وزن ثبة.

(٢) الثغب بالفتح: هو بقية الماء في بطن الوادي، والمعين: الجاري.

(٣) عطون من العطو بالفتح: وهو التناول ورفع الرأس واليدين، وعطا الظبي: تطاول إلى الشجر ليتناول منه.

(٤) السجوف جمع سَجف، بالفتح والكسر: وهو الستر، والأديم: الجلد.

شفوف على أجسادهن رقيقة ... ودر على لباتهن نظيم[١]
يجدن خلاخيل النضار وملؤها ... بواديّ غيل بينهن عميم[٢]
تأطر أغصان الأراك أمالها ... وقد رق جلباب الظلام نسيم[٣]
غرامي جديد بالديار وأهلها ... وعهدي بهاتيك الطلول قديم
يقولون: ما أبقيت للعين عبرة؟ ... فقلت: جوى لو تعلمون قديم
أيسمح جفني بالدموع وأغتدي ... ضنًّا بها؟ إني إذن للئيم
ولو بخلت عيني إذن لعتبتها ... فكيف ودمع الناظرين كريم

وقال:

هل ناشد لي بعقيق الحمى ... غزيلًا مرَّ على الركب
أفلت من قانصه غرة ... وعاد بالقلب إلى السرب
وأظمأ القلب إلى مالك ... لا يحسن العدل على القلب
يعجب من عجبي به في الهوى ... واعجبي منه ومن عجبي[٤]
أقرب بالود وينأى به ... وبلى على بعدك من قرب
منعم يعطف منه الصبا ... لعب الصبا بالغصن الرطب
بلادة النعمة في طبعه ... وربما ناقش في الحب
أما اتقى الله على ضعفه ... معذِّب القلب بلا ذنب[٥]
يا ماطلًا لي بديون الهوى ... من دل عينيك على قلبي!

وفي الأبيات الأخيرة بيت عجيب، وهو

---

(١) اللبات جمع اللَّبة بالفتح: وهي موضع القلادة من الصدر.
(٢) البوادي: المنسوبات إلى البادية، والغيل بالفتح: الساق الريان. والعميم: الممتلئ.
(٣) التأطر: التثني.
(٤) العَجب: بفتح العين التعجب، والعُجب: بالضم التيه والازدهاء.
(٥) معذِّب: بصيغة الفاعل.

بـــــلادة النعمـــــة في طبعـــــه وربـــــما نـــــاقش في الحـــــب

وقلما يتنبه الشريف إلى أمثال هذه المعاني، فهو قليل التحليل لأهواء الملاح ولكنه في هذا البيت تنبه إلى البلادة، التي نراها أحيانًا في الجمال المترف، ففي بعض منازل النعيم ألوان من الجمال تشبه في مداركها جمال التماثيل، والذكاء في أهل الجمال قليل الوجود، ولكن هذه أثرة نفسانية.

فالشعراء يحبون أن تضج الدنيا لهم حين يظهرون، وهم ينسون أن الجمال لو أعلن شعوره بهم في جميع الأحايين لانقلبت الدنيا إلى مسارح من العبث والمجون !

openkandl.com

وصف السود الملاح

أيها السادة:

حدثتكم منذ أشهر أن ابن سكرة كان أولع بجارية سوداء، فقال فيها ألوف الأبيات، وحدثتكم أن الشريف الرضي تأثر بذلك الشاعر في وصف السود الملاح، وفي هذا المساء يتضح لكم أن الشريف وقف عند حده في الوصف، فلم يتعدَّ الكلام عن اللون إذ قال على لسان من سأله مدح جارية سوداء:

لاموا ولو وجدوا وجدي لقد عذروا ... وذنب من لام ظلمًا غير مغتفر
لما تمالوا على عذلي أجبتهم ... بعز معترف لا ذل معتذر
أهوى السواد برأسي ثم أمقته ... فكيف يختلف اللونان في نظري؟
تأبى طلائع بيض ذر شارقها ... في عارضي أن تكون البيض من وطري
إني علقت سواد اللون بعدكم ... علاقة تشمت الظلماء بالقمر
لو لم يكن فوق لون البيض ما رقمت ... صبغ الليالي على الأجياد والعذر
جعلته لسواد الرأس تذكرة ... إن تفقد العين يرض القلب بالأثر
والليل أستر للخالي بلذته ... والصبح أفضح للساري على غرر
وللفتى في ظلام الليل معذرة ... وما له في الضحى إن ضل من عذر
لا أجمع الحب للبيض الحسان إلى ... ما بيض الدهر والأيام من شعري
وكيف يذهب عن قلبي وعن بصري ... من كان مثل سواد القلب والبصر

فما هذا الكلام ؟ وما هذا المنطق ؟! إن الشريف في هذه القصيدة يعبث عبث الأطفال! فهل من الحق أن الرجل يعشق السوداء؛ لأن سوادها يذكر بسواد الناصية؟ وهل من الحق أن الرجل يبغض البيضاء؛ لأن بياضها يذكره ببياض الشيب؟

نترك هذا، وننظر قوله من كلمة ثانية:

أحبك يا لون الشباب لأنني ... رأيتكما في القلب والعين توأما
سواد يود البدر لو كان رقعة ... بجلدته أو شق في وجهه فما
لبغض عندي الصبح ما كان مشرقا ... وحب عندي الليل ما كان مظلما
سكنت سواد القلب إذ كنت شبهه ... فلم أدر من عز من القلب منكما
وما كان سهم الطرف لولا سواده ... ليبلغ حبات القلوب إذا رمى
إذا كنت تهوى الظبي ألمى فلا تعب ... جنوني على الظبي الذي كله لمى

فماذا ترون في هذه الأبيات، هل غرست في قلوبكم الميل إلى السواد في الملاح؟

ولنسايره مرة ثالثة فننظر كيف يقول:

أذات الطوق لم أقرضك قلبي ... على ضنًى به ليضيع ديني
كفاك حليَّ جيدك أن تحلى ... بأطواق النضار أو اللجين
سكنت القلب حيث خلقت منه ... فأنت من الحشا والناظرين
أحبك إن لونك لون قلبي ... وإن ألبست لونًا غير لوني
عديني وامطلي وعدي فحسبي ... وصالًا أن أراك وأن تريني
نظرتك نظرة لما التقينا ... على وجلين من هجر وبين
كأني قد نظرت سواد قلبي ... بوجهك ظاهرًا لسواد عيني

الحق أن أشعار الشريف في النساء السود كلها لعب في لعب، وقد جاء في الديوان أنه سئل أن يقول في السواد، كما قال ابن الرومي فقال: والسكوت كان أولى وأوجب؛ لأن الشريف لم يكن يستطيع أن يجاري ابن الرومي في هذا الميدان، وكيف وابن الرومي شاعر فاجر لا يضيره أن يذكر الخصائص الأصيلة في المليحة السوداء؟ وهل كان يكفي أن يقال: إن السواد أفضل من البياض، كما فعل الشريف، وكان من الغافلين؟!

إن قصيدة ابن الرومي في محبوبته السوداء قصيدة فريدة في الشعر العربي، وما كان يجوز للشريف أن يتورط في معارضته؛ لأن الفصل في هذه القضية ما كان يمكن لشاعر يتقنع بالحياء، ومركز الشريف في المجتمع لم يكن يسمح له بأن يخلع قناع الحياء.

الواقع أن الشريف لم يكن يستطيع أن يفضل لونًا على لون، أو جنسًا على جنس؛ لأن هذا التفضيل لا يتيسر إلا لجماعة من الشعراء سيصيرون فيما يقال من حطب الجحيم.

والشريف فيما نرجح كان رجلاً طيبًا يصف الجمال بالسماع!

obeikandl.com

عفاف الشريف

أيها السادة:

رأيتم ما كان يحيط بشاعرنا من المحرجات، ورأيتم أنه حرم نفسه أعظم لذة يتغنى بها المشببون، فلم يصف مراتع الأنس، وملاعب الطيش، ولم يتحدث عن أسرار الهوى في الكرخ أو بغداد.

وقد آن أن تعرفوا بوضوح أن شاعرنا لم يكن له بد من الحديث عن العفاف؛ العفاف المطبوع أو العفاف المصنوع، ومن المؤكد عندي أن الشريف كان من المتجملين، ولم يكن من المنافقين؛ فهو قد عشق بالفعل.

وكيف لا يعشق والعراق بفطرته مفطور على تقلب القلوب؟ ألم تروا كيف يتلاعب جوه من صحو إلى غيم ومن برد إلى قيظ؟

ألم تروا كيف تطيش أنهاره فيغلب عليها العوج ويصعب عليها الاستواء؟

ألم تروا إلى أهله كيف يغضبون ويبتسمون في لحظة واحدة؟

ألم تلاحظوا أن العراق تفرد بمزية غريبة هي الإسراف؟

ففيه ظهر أعاظم النساك، وفيه نبغ أكابر الفساق.

إن الطبيعة المزدوجة هي الشاهد على تقلب القلوب؛ والقلوب لا تتقلب إلا بقوة الإحساس؛ والإحساس القوي هو منبع العشق، والعشق على جموحه هو أساس النظام في حياة الرجال.

وكان من حظ الشريف أن يكون صورة طريفة لذلك الازدواج فلم يكن من النساك ولا من الفساق، وإنما كان قلبه مسرحًا لتقلب الأجواء العراقية فكان فاسق النظر عنيف الخطرات؛ خطرات القلب والروح.

ولم يكن عفاف الشريف بابًا من عفاف الضعفاء أصحاب الحب العذري، فالعذريون في حقيقة الأمر كانوا مرضى لا يحسنون صيال الفحول، أما الشريف فكان رجلًا قويًّا؛ وكانت فحولته تدعوه إلى التفكير في شريف المصاهرات، وهو قد تزوج بالفعل وأنجب، فلم يبق إلا أن يكون عفافه بابًا من التصون ليسلم من ألسنة السفهاء، والتصون هو ذاته قوة؛ لأن كبح النفس يحتاج إلى نضال، وقد ناضل صاحبنا في سبيل شرفه فلم يمت إلا وهو مرموق الجلال.

أيها السادة:

لا تحسبوني أتفلسف، فأنا في هذه المحاضرات من خدام الحقائق وحولي عيون وأرصاد تصدني عن شطط الخيال.

وقد تأملت ما قال الشريف في العفاف مرات ومرات قبل أن أدون الكلام الذي تسمعون، وصح عندي أن غراميات ذلك الرجل كانت عراكًا في عراك.

هو عفيف، ولكن حديثه عن عفافه يشعرنا بأنه كان يجاهد هواه جهاد المستميت، وانظروا كيف يقول:

تذكرت أيامًا بذي الأثل بعدما ... تقضى أواني في الصبا وأوانها
يطيب أنفاس الرياح ترابها ... ويخضلُّ من دمع الغمائم بانها
ولما عطفت الناظرين بلفتة ... إلى الدار خلى عبرة العين شأنها
ليالي تثنيني عواطف صبوتي ... إلى بدويات تثني لداتها
ولا لذة إلا الحديث كأنه ... لآل على جيداء واه جمانها[1]
عفاف كما شاء الإله يسرني ... وإن سيء منه بكرها وعوانها

(١) جيداء: وصف من الجيد بالتحريك وهو دقة العنق مع طول، والجُمان: على وزن غراب اللؤلؤ واحدته جمانة.

فما رأيكم في هذه الأبيات؟ أعلنوا رأيكم بصراحة، فليس بيني وبينكم حجاب، ألا ترونها جميعًا قوية، إلا هذه الشطرة.

عفاف كما شاء الإله يسرني ----------

وإنما أستضعف هذه الشطرة لأني أعتقد أن مشيئة الله أقحمت إقحامًا في هذه الأبيات مراعاة لأهواء الجهلاء!

وهذه الأبيات :

يشكو الحبيب إليَّ شدة شوقه ... وأنا المشوق وما يبين جناني
وإذا همست بمن أحب أمالني ... حصر يعوق وعفة تنهاني[1]
لله ما أغضت عليه جوانحي ... والشوق تحت حجاب قلبي عان[2]

فهل ترون فيها إلا اعتلاجًا في اعتلاج؟ هل ترون إلا رجلًا يخشى ثورة المجتمع على من يرشح نفسه لأعظم المناصب الدينية؟

وهذه الأبيات:

ولما أبى الأظعان إلا فراقنا ... وللبين وعد ليس فيه كِذَاب[3]
رجعت ودمعي جازع من تجلدي ... يروم نزالًا للجوى فيهاب
وأثقل محمول على العين دمعها ... إذا بان أحباب وعزَّ إياب
فمن كان هذا الوجد يعمر قلبه ... فقلبي من داء الغرام خراب
ومن لعبت بيض الثغور بعقله ... فعندي أحر الباردين رُضاب[4]

---

(١) الحصر: بالتحريك هو العي في المنطق.
(٢) عان : أسير.
(٣) كِذَاب: بكسر الكاف وفتح الذال.
(٤) الرضاب: بضم الراء هو الريق.

يعـف عـن الفحـشاء ذيـلي كـأنما ... عليـه نطـاق دونهـا وحجـاب
إذا لم أنـل مـن بلـدة مـا أريـده ... فـما سرني أن الـبلاد رحـاب

فهل ترون هذه الأبيات إلا صورة من صور النضال بين المجد والحب؟

إن الشاعر يصرح باللوعة، ثم يثور على هواه فيعلن أن قلبه من داء الغرام خراب؛ ليصح له أن يقول: إن المجد غاية مناه، وليس من الكثير على مثله أن يدوس الهوى في سبيل المجد، فتلك ثورة نفسية عرفها أحرار الرجال، ولكن من الواجب أن نتذكر هذا لنعرف أن صاحبنا لم يؤثر العفاف وهو طائع، وإنما اختار العفاف؛ لأنه أصلح الصفات لبلوغه من المجد ما يشتهيه، وللمجد شهوة أقوى وأفحل من شهوة الجمال.

ثم اسمعوا الأبيات الآتية فهي أغرب:

وأبقـت لي الأيـام حزمًـا وفطنـة ... ووقـرن جـأشي بـالأمور الغرائـب
تـوزع لحمـي في عـواجم جمـة ... وبـان عـلى جنبـيَّ وسـم التجـارب[1]
وأرض بهـا بعـت الـصبابة والـصبا ... ونـاهض قلبـي الهـم مـن كـل جانـب
وزور مـن الأضـغان نحـوي كـأنما ... يلاقـيهم شخـصي لقـاء المحـارب[2]
أناسـيهم بغـضاءهم غـير غافـل ... وأسـألهم معـروفهم غـير راغـب
وإني لأطـويهم عـلى عظـم دائهـم ... وأقعـد مـنهم بـين رام وجالـب
ألا رب مجـد قـد ضرحـت قذاتـه[3] ... وكـان عـلى الأيـام جـم الـشوائب
وسر كتمـت النـاس حتـى كتمـه ... ضـلوعي ولم أطلـع عليـه مـآربي
وأغيـد محـسود عـلى نـور وجهـه ... هجـرت سـوى لحـظ البعيـد المجانـب

---

(١) العواجم: جمع عاجم وهو الذي يعجم العود، أي: يعضه ليختبر صلاحيته لعمل الرماح، والوسم: في الأصل الكي، ومنه الميسم وهو المكواة.
(٢) الزَّور: بفتح الزاي هم الزائرون.
(٣) سرح القذاة: منعها ونحاها.

وغيداء قيدت للعناق ملكتها ... فنزهت عنها بعد وجد ترائبي
وما عفة الإنسان إلا غباوة ... إذا لم يكافح داء وجد مغالب

ألا ترون قوة النفس في هذا الشعر الغريب؟ ألا تشهدون عثير المعركة بين العقل والقلب؟

إن الرجل يصرح بأن العفة ضرب من الغباوة والجهل، ولا يرى لها أية قيمة إلا إن كانت بابًا من الكفاح، الكفاح ضد أدواء المغالب.

والشاعر بهذه الوثبة الشعرية يؤرخ قلبه أعظم تأريخ، فهو يدرك نور الوجوه -ولبعض الوجوه أنوار - ويدرك حلاوة العناق - وفي بعض العناق نشوة تزلزل الجبال - ولكنه بجانب ذلك يتذكر مطالبه العالية في ساحات المجد، والمجد فيه نور، وفيه رضاب، وفيه عناق، وفيه كل ما تشتهي أنفس الفحول، وهل يشقي الناس أنفسهم في سبيل المجد إلا إذا رأوه أروع وأفتن وأملح وأعذب من جميع ما تغريهم به بوارق الحسن الفتان!

ولكن هذا الجبار المتمرد على الحب قد يتفق له أن يرق فيقول:

يقر بعيني أن أرى لك منزلًا ... بنعمان يزكو تربه ويطيب[1]
وأرضًا بنوار الأقاحي صقيلة ... تردد فيها شمأل وجنوب
وأي حبيب غيب النأي شخصه ... وحال زمان دونه وخطوب
تطاولت الأعلام بيني وبينه ... وأصبح نائي الدار وهو قريب
لك الله من مطلولة القلب بالهوى ... قتيلة شوق والحبيب قريب

(١) يرى القارئ في الصفحات التالية من هذا الجزء أن الشريف دعا على نعمان بالعطش، وهو الآن يعطف عليه، وهذا يؤيد ما قلناه من أن النص على هذه المنازل قد لا يدل على أنه يعنيها بالذات - ونعمان اسم لعدة مواضع. أشهرها نعمان الأراك وهو بين مكة والطائف.

أقـل سـلامي إن رأيتـك خيفـة ... وأعـرض كـيما لا يقـال مريـب
وأطـرق والعينـان يـومض لحظهـا ... إليـك ومـا بـين الـضلوع وجيـب[1]
يقولـون مـشغوف الفـؤاد مـروَّع ... ومـشغوفة تـدعى بـه فتجيـب[2]
ومـا علمـوا أنـا عـلى غـير ريبـة ... بقـاء الليـالي نغتـدي ونثـوب
عفـافي مـن دون التقيـة زاجـر ... وصـونك مـن دون الرقيـب رقيـب
عـشقت ومـا لي -يعلـم الله- حاجـة ... سـوى نظـري والعاشـقون ضروب
ومـا لي يـا لمياء بالـشعر طائـل ... سـوى أن أشـعاري عليـك نـسيب[3]
أحبـك حبًّـا لـو جزيـت ببعـضه ... أطاعـك منـي قائـد وجنيـب
وفي القلـب داء في يـديك دواؤه ... ألا رب داء لا يـراه طبيـب

وهذه قطعة تصافح القلوب، ولكن ماذا صنع صاحبنا الشريف؟

لقد ترفق بمحبوبته فمنحها شطرًا من الفضل إذ جعل تصونها أعنف الرقباء، وهذا معنى إنساني نبيل، وهل ينكر منصف أن من النساء من يجاهدن الهوى كما يجاهده أعفاء الرجال؟! هل ينكر منصف أن هناك نساء نعاشرهن طوال السنين وفي قلوبنا وجد مشبوب ثم نكتفي منهن بحلاوة الأنس وبشاشة الحديث.

لا تقولوا: إن الشريف يتكلف العفاف، فإن حاله يختلف عن حال أبي نواس، وأمثال أبي نواس ممن لا يرون الوجوه الصِّباح إلا في المواخير، فإن التبذل في وصف ليالي الأنس يقبل من شاعر لا يرى وجه الدنيا إلا في سراديب الخانات، أما الشعراء الذين تسمح لهم مقاماتهم في المجتمع بأن

---

(١) كلمة (ما) في هذا الشطر اسم موصول.
(٢) في الديوان (تدعو به فيجيب).
(٣) لمياء: اسم امرأة . من اللمى وهو سمرة الشفتين. والعرب يحبون سمرة الشفاة. وما أحسبهم على ضلال.

يكونوا على صلات مع كرائم العائلات فلهم شأن آخر؛ لأنهم يدخلون بيوتًا لها قدسية المحاريب.

وليس من التزيد أن أقول: إني عرفت هذا النوع من الحياة فرأيته أغرب الألوان في عالم الشعر والخيال، وله لذة أنضر وأعمق من لذة العبث والمجون، ولكن أين من يدرك كرائم المعاني.

ثم اسمعوا أيضًا كيف يقول:

وله قلبي ما أرق على الهوى ... وأصبى إلى لثم الخدود النواضر
يحن إلى ما تضمن الخُمُر والحلى[٢] ... ويصدف[١] عما في ضمان المآزر
ولما غدونا للوداع ونقرت ... صروف النوى دون الخليط المجاور
عنيت[٣] من القلب العفيف بعازل ... ومن خدع الشوق السفيه بعاذر
عشية لا عرس الوفاء بمرمل ... لدينا ولا أم الصفاء بعاقر
ومن لم ينل أطماعه من حبيبه ... رضي غير راض بالخيال المزاور
وكنت أذود الدمع إلا أقله ... لسقيا حمى من بعد بينك داثر
وإني لا أرضى إذا ما تحملت ... إليه مرابيع السحاب المواطر

فهل رأيتم أدق من هذا الوصف؟، وهل رأيتم أظرف من هذا العاشق المنافق؟ ما هو الفرق بين ما يضمن الخمار، وما يضمن الإزار، يا مولانا الشريف؟

الفرق بعيد جدًّا، فالحنين إلى ما يضمن الخمار هو من النوازع التي يتفرد بها أصحاب الأذواق الرقاق، أما التطلع إلى ما يضمن الإزار فهو من شهوات

---

(١) في الديوان (يصدق) وهو تحريف.
(٢) الخُمُر: جمع خمار بكسر الخاء. والحلى: جمع حلية.
(٣) عنى يعني: من باب ضرب.

الأذواق الغلاظ.

ثم انظروا صورة النزاع بين العقل والقلب، انظروا كيف يبتلى الرجل بقوتين: قوة العاذر من الشوق السفيه! وقوة العاذل من القلب العفيف.

لقد سمعتم بما سماه القدماء خيال البحتري، ولعلكم قرأتم تفصيل ذلك في كتاب "مدامع العشاق" ولكن ألا ترون أن الشريف بلغ الغاية في وصف تفاهة الفرح بالطيف حين قال:

ومن لم ينل أطماعه من حبيبه ... رضي غير راض بالخيال المزاور

تأملوا عبارة: رضي غير راض.

وبعد هذه القطعة أبيات أرى إمتاع أسماعكم بها، فهي عندي من وثبات الخيال:

كليني إلى ليل كأن نجومه ... تغازل طرفي عن عيون الجاذر

أمرُّ بدار منك مشجوجة[1] الثرى ... بمجرى نسيم الآنسات الغرائر

تمر عليها الريح وهي كأنها ... تلفت في أعطاف تلك المقاصر

ألا ترون يا أدباء بغداد كيف يزعم شاعركم أن للطبيعة أحاسيس؟

ألا ترون كيف يدعي أن الرياح تمر بتلك الدار فتتلفت إلى ما فيها من مقاصير؟

ليت الوقت يسمح بإسماعكم فقرات من "كتاب التصوف الإسلامي" لتروا بقوة المنطق أن الشريف لم يكن عابثًا، وإنما كان يحس ما سيقوله أنصار القول بوحدة الوجود بعد مئات السنين. وهل يعقل أن تمر الريح بالوادي

---

(١) مشجوجة: مجروحة.

الجديب، كما تمر بالوادي الخصيب؟ هل يعقل أن تمر النسمات بوجوه أهل البلادة كما تمر بوجوه أرباب القلوب؟

وهل اختلت الموازين في الدنيا حتى نصدق أن الأرض التي تدوسها البهائم كالأرض التي تتخطر عليها أقدام الظباء؟

نترك هذه الفلسفة الوجدانية، وننتقل إلى قول الشريف:

يا وقفة بوراء الليل أعهدها ... كانت نتيجة صبر عاقر الوطر
والوجد يغصبني قلبًا أضن به ... والدمع يمنع عيني لذة النظر
طرقتهم والمطايا يستراب بها ... والليل يرمقني بالأنجم الزهر
أصانع الكلب أن يبدي عقيرته[1] ... والحيُّ مني إذا أغفوا على غرر[2]
وفي الخباء الذي هام الفؤاد به ... نجلاء من أعين الغزلان لا البقر[3]
أبرزتها فتخاصرنا مباعدة ... عن الخيام نعفي الخطو بالأزر
ثم انثنيت ولم أدنس سوى عبق ... على جنوبي لريا بردها العطر[4]

وفي هذه القطعة ألفاظ طريفة كعبارة: عاقر الوطر، ونعوذ بالله من الوطر العاقر، ونسأله السلامة من عقم الأماني! وفيها أيضًا سياسة يحسنها المحبون، وهي مصانعة الكلاب، ولا بدَّ لكل عاشق من مصانعة الكلاب!

ولكني أحب أن أنوه بتلك المحاضرة، فما يليق أن يعيش صاحبنا عيش المحروم في جميع الأحوال، وهل يتفق العفاف مع المخاصرة؟ تلك إحدى المعضلات!

---

(١) العقيرة: يراد بها الصوت.
(٢) الغرر بالتحريك: هو التعرض للهلاك.
(٣) في الديوان (والبقر).
(٤) الريا: الرائحة العطرة.

إن العفاف هنا ليس صورة للعفاف الذي يمضغه أدعياء الدين، وإنما هو عفاف الشاعر الذي يرى ما دون الرذيلة مباحًا من مباح، ويكفي لغفر ذنوبه أن يمتعنا بهذا البيت:

ثم انثنيت ولم أدنس سوى عبق ... على جنوبي لريا بردها العطر

الله أكبر ما هذا الفسق يا أظرف الفاسقين!

ثم ماذا؟ ثم يقول في مخاطبة الظباء:

أنا من علمتن الغداة نقية ... أزري وضامنة العفاف مآزري
فاعرفن كيف شمائلي وضرائبي ... وانظرن كيف مناقبي ومآثري
كمعاقد الجبل الأشم معاقدي ... ومجاور البيت الحرام مجاوري

وكان يمكن أن نعيب عليه النص على المآزر في هذا الكلام النفيس، ولكن ماذا يصنع والناس في سرهم وجهرهم يطوفون حول ذلك الجمر المدفون؟!

وحسبه من الشرف أن يقول: "ومجاور البيت الحرام مجاوري"

فهذا كلام لا يقوله إلا الفتيان الشرفاء، وفيه صور لا تخفى على اللبيب ثم يقول:

وكم ليلة بتنا على غير ريبة ... علينا عيون للنهي ومسامع
نفض حديثًا عن ختام مودة ... معاقلها أحشاؤنا والأضالع
يكاد غريب الليل عنه حديثنا ... يطير ارتياحًا وهو في الوكر واقع
خلونا فكانت عفة لا تعفف ... وقد رفعت في الحي عنا الموانع
سلوا مضجعي عني وعنها فإننا ... رضينا بما يخبرن عنا المضاجع

فإلى من توجه هذا الكلام أيها الفاجر العفيف:

وما رأيك إذا خبرناك أننا سألنا تلك المضاجع فأنبأتنا أن أكاذيبك الطريفة

لن تمنع من دخولك الجنة مع الصادقين!

أيها السادة:

تذكروا أن الشريف شاعر، وللشعراء أضاليل أفضل من الهداية وأكاذيب أشرف من الصدق، وعبث ماجن هو في جوهره أنضر وأطيب من الجد الرزين.

obeikandl.com

حجازيات الشريف

أيها السادة:

سمعتم فيما سلف أن الشريف الرضي تفتحت عبقريته بفضل طريق الحج، وموسم الحج، ورأيتم أقباسًا من جذوات وجده المشبوب، ونريد اليوم أن نتكلم بالتفصيل عن قصائده الحجازيات.

ولي مع تلك الحجازيات تاريخ، فقد ألقيت عنها محاضرة في نادي الموظفين بالقاهرة منذ سنين، ثم كتبت بعد ذلك فصولًا مطولة في جريدة البلاغ، وقد حاولت إحضار تلك الفصول من القاهرة؛ ولكني لم أستطع، فأنا أكتبها للمرة الثالثة، وذلك عناء أَتَقَبَّلَه في سبيل الشاعر البكَّاء الذي خلد مواسم العيون والقلوب.

أيها السادة:

إن أسلافنا لم يخطئوا حين جعلوا حجازيات الشريف من فرائد الشعر العربي، فهي قصائد تفردت بغرائب من الأحاسيس، والشريف في هذه القصائد من فحول الابتكار والابتداع، فهو لا يكرر ما سبق إليه الشعراء، وإنما تتفجر عبقريته عن معانٍ طريفة تشوِّق الأذواق والعقول.

والشريف في الحجازيات كأبي نواس في الخمريات، فإن أبا نواس ألحَّ إلحاحًا شديدًا في وصف الصهباء، وكانت لجاجته في وصفها خليقة بأن تقذف به في مهاوي الإسفاف؛ ولكنه تماسك وظل دائمًا من المبدعين.

وكذلك الشريف، فهو لم يكتفِ في وصف موسم الحج بقصيدة أو قصيدتين أو ثلاث قصائد أو سبع قصائد، وإنما قال وأعاد، ثم قال وأعاد حتى بلغت قصائده في الجنين إلى موسم الحج نحو الأربعين.

وأنتم تدركون أيها السادة خطر هذا الإسراف، فقد كان كفيلًا بأن يسوقه إلى مدارج الابتذال؛ ولكن الشاعر ظل قويًّا، وظلت معانيه جديدة على الزمان، فهو في حجازياته قادر على أن يبهر بيرون وجوت وميسيه، ومن إليهم من الشعراء الذي جعلوا الحب شريعة إنسانية لها من الشعر فرقان وإنجيل.

وإني لأخشى أيها السادة أن أكون بهذه الإشارة ظلمت الشريف، فالشعراء العشَّاق في فرنسا وإنجلترا وألمانيا والنمسا وإيطاليا عاشوا في بلاد لا تدعي أنها تحرس الدين والتقاليد في الأندية الأدبية.

أعني: أنهم نظموا قصائد الحب في بيئات يغلب عليها المرح، ويصرِّفها الفتون، فالشاعر كانت تسوقه المغريات إلى التشبيب، والملاح اللائي يدرن الأندية الأدبية إدارة الكئوس كنَّ يطلبن بالقول أو بوحي الملاحظ أن تكون لهن سيرة كالجدائل المعطرة في قصائد الشعراء، فلم يكن من المستغرَب ولا المستبعَد أن تتسع مذاهب القول في وصف الوسامة والجمال.

أما الشريف فكان ينظم الحجازيات في مواطن لا يجوز فيها رفث ولا فسوق، وينشدها بين أقوام يصطحبون ويغتبقون بالتسبيح والتكبير والتهليل.

فأنصفوا الحق أيها السادة، واعترفوا بأن الحجازيات ما كانت تصدر عن شاعر يعيش في بيئة مثقلة بالتحرج، والتعفف، والتنسك، إلا إن كانت جذوات صدره أقوى وأعنف من أن تطفئها شآبيب التحنف بين زمزم والحطيم.

أنتم اليوم في عصر يسمونه (القرن العشرين) ويزعمون أنه حرر المشاعر والقلوب من رباق التقاليد، فهل فيكم شاعر يملك من الجرأة ما كان يملك الشريف منذ نحو ألف سنة، يوم كانت قالة السوء تصرف رجلًا مثله عن ولاية المظالم، وإمارة الحج، ونقابة الأشراف؟

هل يستطيع طلعت حرب وهو رجل حر الذهن، والعقل أن يضيف إلى الشريط السينمائي، شريط الحج، منظرًا يمثل موقعة غرامية في سفح عرفات؟

إنه لو فعل؛ لقامت قيامة المتزمتين في مصر، والمغرب، والشام، واليمن، والحجاز، والعراق، ولقال القائلون: إنها دسيسة يراد بها انتهاك المناسك، والغض من هيبة الإسلام.

تصوروا أيها السادة أن وصف الحسن الذي ينثر أيام الصيف على الشواطئ المصرية يضيف الشاعر أو الكاتب إلى عصبة الماجنين، وإن صح لأحد شعرائنا أن يقول في شاطئ الإسكندرية:

رعاه الحب من شط جميل ... خفيف الروح مصقول أنيق
بهي الرمل تحسبه سجوفًا ... مطرَّزة بحبات العقيق
أطوف به فيغلبني خشوعي ... كأني طفت بالبيت العتيق
أيا حرم الظبا أنرت روحي ... بمكشاة من الحسن الرفيق
يراك الأكمهون حمى مباحًا ... يذكرهم بأسواق الرقيق
ولو كشفت غشاوتهم لقالوا ... صبايا الخلد تسبح في الرحيق

إنه لا مفر من الاعتراف بأن الشريف كان مثال الجرأة، والشجاعة حين استطاع أن يؤرخ هواه في أيام الحج بقصائده الحجازيات، وهذه الجرأة كانت من فيض الشاعرية، فإن الشاعر الحق أشجع الناس، وأقدرهم على الاستهانة بالمكاره، والحتوف.

قد تقولون: إن عمر بن ربيعة سبقه إلى هذه الجرأة.

ونجيب: بأن الفرق بعيد بين الشاعرين:

فعمر بن أبي ربيعة نشأ في صدر الإسلام يوم كان دينًا سمحًا لا تثقله

الأوهام التي أثقلته فيما بعد، حين حمل أوزار الواغلين الذين نقلوا إليه أوضار التزمت والجمود، فيما ورثوا عن أصولهم في الشرق أو في الغرب، من بلادات المتزهدين، وغباوات المتقشفين، ورقاعات المتنسكين، كان عمر بن أبي ربيعة يعيش بين أمراء وخلفاء كانوا في حقيقة الأمر من أشراف الفتيان، وكان الناسكون لعهده رجالًا ظرفاء لا ينكرون حقوق الأفئدة والقلوب.

أما الشريف فعاش في الصدر الثاني من القرن الرابع بعد أن حمل الإسلام ما حمل من عسير التقاليد، وبعد أن كانت بغداد قد عرفت ألوانًا من التزهد، والتقشف تجعل الغزل في مواسم الحج ضربًا من اللهو والفجور، مع استثناء الظرفاء من الصوفيين العراقيين الذين أطفنا بأخبارهم في كتاب (التصوف الإسلامي).

ذلك فرق بين العصرين: عصر صديقنا عمر، وعصر أستاذنا الشريف.

وهنا فرق بين الرجلين: فعمر بن أبي ربيعة كان في يأس من المجد السياسي، فلم يكن ينتظر أبدًا أن يكون له مجال في سياسة الدولة الإسلامية التي استبدَّ بها الأمويون؛ وكذلك أقبل على دنياه ينهب منها ما تسمح به مواسم الحج من التطلع إلى الخدود النواضر، والعيون الفواتك، ويخلق لنفسه آفاقًا من السيطرة الوجدانية تعوِّض ما فاته من السيطرة السياسية، والإنسان حيوان لئيم يهمه أن يسيطر في أي ميدان.

أما الشريف فكان له حال غير تلك الحال، كان الشريف علويًّا، والعلويون كانت لهم مطامع سياسية توارثوها من جيلٍ إلى جيل.

والذي يراجع ما فصلناه في كتاب (المدائح النبوية) يعرف أن أولئك القوم كانوا بلغوا غاية الغايات في رياضة أبنائهم، وأحفادهم، وأسباطهم على الإيمان بأنهم مظلومون، وأن الدنيا لا تصلح إلا إن رجع إليهم الأمر في قيادة

المسلمين، وقد وصلوا في ذلك إلى غاية لا تُحتمل ولا تُطاق؛ فكانوا يتصورون أن الدنيا -إن لم يسوسوها- ستظل ظلمات من فوقها ظلمات.

وكان الشريف الرضي يرى نفسه أهلًا للخلافة الإسلامية، وساعده على ذلك مركز أبيه في المجتمع، وتشرفه بالانتساب إلى علي بن أبي طالب، وكان لعلي بن أبي طالب سلطة روحية هائلة في تلك العهود، ويكفي أن نحدثكم أن الخليفة القادر أذاع في الناس أنه رأى في منامه نهر الصليق قد اتسع حتى صار عرض دجلة دفعات، وأنه سار على حافته؛ فرأى عليه قنطرة عظيمة؛ فأراد أن يعبر فانبثق النهر من حوله فرأى شخصًا يناديه أتريد أنه تعبر؟!

فقال: نعم؛ فمد يده حتى وصلت إليه وأخذه فعبر به وهاله الفعل؛ فسأل من يكون هذا المتفضل بنجاته؟!

فقال صاحب اليد الكريمة: علي بن أبي طالب، هذا الأمر صائر إليك، ويطول عمرك فيه، فأحسن إلى ولدي وشيعتي.

وهذه الرؤيا الصحيحة أو المخترعة تشهد بأن العلويين في ذلك العهد كان ينصب لهم ميزان، وكان الخلفاء العباسيون يرون من السياسة أن يداروهم بالثناء على جدِّهم أمير المؤمنين.

وكانت الظروف تسمح ببعض السماح بأن يتطلع الشريف إلى الخلافة، فقد كان له في ذات نفسه خصائص ترشحه لذلك المنصب: كان من أسباط الرسول، وكان متفوِّقًا في العلوم النقلية والعقلية، وكان جميل الوجه جدًّا، بحيث استطاع بعض أساتذته أن يقول: إنه لم تستبح النظر إلى وجهه إلا بعد أن اخضر شاربه، ونبت عارضاه، والجمال كان من الصفات المأثورة عن الرجل الذي أعز العرب في بقاع الأرض، وخلَّد لغتهم على وجه الزمان، الرجل الذي اسمه أحمد ﷺ، وحشرنا في زمرة أصفيائه يوم يقوم الحساب.

كان ذلك أيها السادة حال الشريف، فتصوروا كيف جاز لرجل له مثل تلك الأماني أن يفضح نفسه بين الناس؛ فيصرح بأنه من عبيد النحور والخدود والعيون؟

إن ذلك لا يقع إلا في حالين اثنين: حال الشعر، وحال الجنون.

وما أعتقد أن الشريف كان من المجانين، فلم يبقَ إلا أن يكون من الشعراء.

وما أدعوكم إلى الخروج على تقاليد المجتمع؛ لتعربدوا في معاقرة الحسن عربدة الشريف، لا، وإنما أرجوكم أن ترحموه وتعطفوا عليه، فهو من سلالة قلَّ فيها الشعر جدًّا، حتى صار من كنايات العرب أن يقال: فلان من نسل الرسول؛ ويعنون أنه لا يصلح للانتساب إلى الشعراء.

وما كان من الحق أن ينسلخ أسباط الرسول من الشاعرية، وإنما السبب في ذلك أن القبائل التي كانت ترشح نفسها للملك لم تكن ترى الشعر مما يليق بالملوك والخلفاء، وذلك باب من القول فصلته في كتاب (النثر الفني) فلا أعود إليه في هذا المساء، ويكفي أن تذكروا أن الشاعرية لا تزكو إلا إن عاش الشاعر عيش البلبل ينتقل كيف يشاء بين أماليد الأفانين، والتأهب للملك يوجب أن يصير الرجل من عبيد المجتمع؛ فيعيش كرئيس الجمهورية الفرنسية لا يلقي أية كلمة في أي محفل إلا بعد استئذان.

وأريد أيها السادة أن أقول: إن الشريف الرضي لم يكن يصلح لغير الشعر، وأخشى أن أقول: إن إمارته للحج لم تكن إلا منحة يتفضل بها عليه الخلفاء العباسيون؛ ليكون الفتى الذي اسمه الشريف الرضي خليفة للشيخ الذي اسمه أبو أحمد الموسوي.

ولكن شاعرنا جمع بين المزيتين، فكان أميرًا للحج، أميرًا فقيهًا يقدم إلى الحجيج العراقي ما يبصره بالمشاعر والمناسك، وكان شاعرًا يتلهف على الحسن تلهف الظامئ إلى الورد الممنوع.

فإن اختال علينا أهل الأدب والذوق من اللاتينيين، والسكسونيين، والجرمانيين بأن عندهم قسيسين ورهبانًا يدركون أسرار الأدب الرفيع، فسنقول إن عندنا "شيخًا" يؤدي الفرائض، والنوافل، ويقرأ الأوراد، وهو مع ذلك شاعر حساس يفوق جوت وبيرون ولامرتين.

فإن سألوا: ومن هو ذلك الشيخ الشاعر؟

قلنا هو الشيخ الذي ذهب لأداء فريضة الحج فبهرته الصباحة فقال:

نظرتك نظرة بالخيف كانت ... جلاء العين مني بل قذاها
ولم يك غير موقفنا فطارت ... بكل قبيلة منا نواها
فواهًا كيف تجمعنا الليالي ... وآهًا من تفرقنا وآها!!
وأقسم بالوقوف على ألال ... ومن شهد الجمار ومن رماها
وأركان العتيق وبانييها ... وزمزم والمقام ومن سقاها
لأنت النفس خالصة فإن لم ... تكوينها فأنت إذن مناها
نظرت ببطن مكة أم خشف ... تبغم وهي ناشدة طلاها
وأعجبني ملامح منك فيها ... فقلت أخا القرينة أم تراها
فلولا أنني رجل حرام ... ضممت قرونها ولثمت فاها

تلكم إحدى طلائع الحجازيات، فلنتناولها بشيء من التحليل ولنبدأ بهذين البيتين:

ولم يك غير موقفنا فطارت ... بكل قبيلة منا نواها
فواهًا كيف تجمعنا الليالي ... وآهًا من تفرقنا وآها!!

فذلكم شاعر يطوف بالبيت فتقع عينه على غرائب الحسن، ثم يكشف الواقع غشاوة هواه، إذ يعرف أنها لحظة لن تعود، ومن الذي يضمن للشاعر أن يسمح الزمان اللعوب بأن يرد إليه هوى قلبه بعد عام أو عامين؟

وهل يمكن أن تسمح ظروف العيش لإنسانة هاجرت في سبيل الحج من الأندلس أو المغرب أو مصر أو الشام أن تعود لتلك المواقف مرة ثانية؟

من الذي يضمن لك حين تقع عينك على وجه جميل في بلدٍ غريبٍ أن تجود الأيام برؤيته مرة ثانية، ولو في عرض الطريق؟ وهل تعرف المقادير قلب الشاعر فتعطف على جواه؟

إن الشريف يؤلف المقاطع من قلبه الممزق وهو يقول:

فواهًـــا كيـــف تجمعنـــا الليـــالي وآهًـــا مـــن تفرقنـــا وآهـــا!!

وإن حاله لشبيه بحال صديق أعرفه بعض المعرفة، ولعله يلبس إهابي، وربما كانت معرفتي بذلك الصديق هي السر في اهتمامي بحجازيات الشريف، وكان ذلك الصديق رأى فتاة ألمانية بقطار المترو في باريس؛ فدعاها إلى معاقرة الحديث ساعة أو ساعتين؛ فاعتذرت بأنها على سفر ثم قالت وهي تواسيه: On se verra peut être!

وقد ركب صديقنا المترو ألف مرة، وحج باريس مرات، ولم يسمح الزمن بأن تقع عينه مرة ثانية على تلك العيون فوا حرَّ قلباه!

واتفق لذلك الصديق أن يدعوه فريق من أصفيائه إلى زيارة نورمنديا في موسم الأزهار؛ أزهار التفاح، فزارها وهو باسم، وهاله أن يرى أزهار التفاح فوق الأشجار وفوق الخدود، فأقسم ليزورن نورمنديا في كل عام مرة؛ ولكن الزيارة الأولى لبساتين التفاح كانت في الوقت الذي فرغ فيه من دراسته

بالسوربون، فكانت أيامه بتلك البساتين أول العهد وآخر العهد، وقد رجع إلى فرنسا بعد ذلك؛ ولكنه وا أسفاه كان يصل بعد (مايو) شهر الأزهار والرياحين، وقد علمت أن شواغله في دنياه لن تسمح له أبدًا برؤية نورمنديا في شهر مايو، إلا أن يصبح من تقاليد الحكومات أن ترسل البعثات؛ لتثقيف الذوق والوجدان!

يكفي هذا في الطواف حول هذين البيتين، ونترك لأذواقكم درس الحسن في بقية القطعة، وننتقل إلى الأبيات الآتية وقد قالها في مدينة الرسول في المحرم سنة ٣٩٤:

وما كنت أدري الحب حتى تعرضت ... عيون ظباء بالمدينة عين
فوالله ما أدري الغداة رميننا ... عن النبع أم عن أعين وجفون
بكل حشًا منا رميَّة نابل ... قوي على الأحشاء غير أمين
جلون الحداق النجل وهي سقامنا ... وواريـن أجيادًا وسود قرون
ولولا العيون النجل ما قادنا الهوى ... لكل لبان واضح وجبين
يلجلجن قضبان البشام عشية ... على ثغب من ريقهن معين
ترى بردًا يعدي إلى القلب برده ... فينقع من قبل المذاق بحين
تماسكت لما خالط اللب لحظها ... وقد جن منه القلب أي جنون
وما كان إلا وقفة ثم لم تدع ... دواعي النوى منهن غير ظنون
نصحت المطايا أبتغي رشد مذهبي ... فأقلعن عني والغواية دوني

فما رأيكم في هذه الأبيات؟ قد تقولون: إن فيها معاني مألوفة، وهو كذلك؛ ولكن هل تغيب عنكم قوة إحساسه بالمألوف من تلك المعاني؟!

أرجوكم أن ترجعوا إلى الفصل الذي أنشأناه عن المبتذل والطريف في الجزء الأول من كتاب النثر الفني؛ لتعرفوا بوضوح كيف يكون المعنى مألوفًا ثم يكون صاحبه أشعر الناس؛ لأنه أحسَّه أقوى إحساس.

ومن الذي ينكر قوة الشاعرية في هذا البيت؟!

يلجلجن قضبان البشام عشية ... على ثغب من ريقهن معين

من الذي ينكر أن كلمة (يلجلجن) على ثقلها وقعت أجمل موقع في هذا البيت؟!

ومن الذي ينكر طرافة الخيال في هذا البيت؟

ترى بردًا يعدي إلى القلب برده ... فينقع من قبل المذاق بحين

والمهم عندي هو النص على عبقرية السحر في هذا البيت:

وما كان إلا وقفة ثم لم تدع ... دواعي النوى منهن غير ظنون

المهم أن تتصوروا مبلغ إحساسه بالوحشة لفقد الجمال، وأن تذكروا كيف يتشوق ويلتاع.

وهذه الأبيات:

تذكرت بين المأزمين إلى منى ... غزالًا رمى قلبي وراح سليبا

لئن كنت أستحلي مواقع نبله ... فإني ألاقي غبهن ألوبا

أصاب حرامًا ينشد الأجر حسبة ... فما عاد مأجورًا وعاد أثيبا

فلو كان قلبي بارئًا ما ألمته ... ولكنَّ أسقامًا أصبن سقيبا

إذا بل من داء أعادت له المها ... نكاسًا إذا ما عاد عاد مقيبا

يظنونني استطرفت داءً من الهوى ... وهيهات داء الحب كان قديبا

قنصت بجمع شادنًا فرحمته ... وأخفق قناص يكون رحيبا

أأغدو مهينًا بالحبائل ساعة ... غزالًا على قلبي الغداة كريبا؟

تراءت لنا بالخيف نفح لطيمة ... سرت عنك إلا عبقة ونسيبا

ولم أر مثل الماطلات عشية ... ذوات يسار ما قضين غريبا

وهذا أبيات هادئة النفس؛ ولكن ما رأيكم في هذا البيت؟

أصاب حرامًا ينشد الأجر حسبة ... فما عاد مأجورًا وعاد أثيمًا

إن الشريف كان يتوهم أنه كحمام الحرم لا يطرد ولا يصاد، وكان يجهل أن الحرم يباح فيه صيد القلوب!... وهذا البيت.

قنصت بجمع شادنًا فرحمته ... وأخفق قناص يكون رحيما

فهو يمثل الحسرة اللاذعة التي يحسها من يرحم الجمال، فيضيع منه الجمال.

وهذا البيت:

ولم أر مثل المطالات عشية ... ذوات يسار ما قضين غريما

وهو يمثل لؤم الملاح؛ فهن يملكن الوفاء، ثم لا يقدمن غير الصدود.

وفي منطق الشريف أن المليحة يقبح منها المطل؛ لأنها موسرة بالحسن والصباحة، والشاعر لا يطلب غير الأنس بالحسن؛ والصباحة والجود لا يتلف المحاسن كما يتلف الأموال!

وما رأيكم في هذه القصيدة التي سارت في المشرقين والمغربين، وعارضها جمهور من الشعراء:

يا ظبية البان ترعى في خمائله ... ليهنك اليوم أن القلب مرعاك

الماء عندك مبذول لشاربه ... وليس يرويك إلا مدمع الباكي

هبت لنا من رياح الغور[1] رائحة ... بعد الرقاد عرفناها بريّاك

ثم انثنينا إذا ما هزّنا طرب ... على الرحال تعللنا بذكراك

سهم أصاب ورامية بذي سلم ... من بالعراق لقد أبعدت مرماك

---

(١) الغور: اسم لعدة مواضع.

وعدٌ لعينيك عندي ما وفيت به ... يا قرب ما كذبت عيني عيناك
حكتْ لحاظك ما في الريم من مُلح[1] ... يوم اللقاء فكان الفضل للحاكي
كأن طرفك يوم الجزع يخبرنا ... بما طوي عنك من أسماء قتلاك
أنت النعيم لقلبي والعذاب له ... فما أَمَرَّكَ في قلبي وأحلاك
عندي رسائل شوق لست أذكرها ... لولا الرقيب لقد بلغتها فاك
سقى منى وليالي الخيف ما شربت ... من الغمام وحياها وحياك
إذا يلتقي كل ذي دين وماطله ... منا ويجتمع المشكوُّ والشاكي
لما غدا السرب يعطو[2] بين أرحلنا ... ما كان فيه غريم القلب إلّاك
هامت بك العين لم تتبع سواك هوى ... مَن علَّم العين أن القلب يهواك حتى
حتى دنا السرب ما أحييت من كمد ... قتلى هواك ولا فاديت أسراك
يا حبذا نفحة مرت بفيك لنا ... ونطفة غمست فيها ثناياك
وحبذا وقفة والركب مغتفل ... على ثرى وخدت فيه مطاياك[3]
لو كانت اللمة السوداء من عددي ... يوم الغميم[4] لما أفلت أشراكي

فماذا ترون في هذه القصيدة العصماء؟ خبروني ماذا ترون فإنها تسمو على كل تحليل؟

أيكون السحر في أن يصبح القلب مرعى تلك الغزالة؟ أيكون السحر في أن لا يرويها الماء المبذول وإنما يرويها الدمع المسفوح؟! أم يكون في أن يعرف العاشق مهب الريح بما تحمل عنها من نفحات؟! وما هو ذلك السهم الذي يبعد مرماه فيصيب وهو بذي سلم أحشاء مَن في العراق؟

---

(١) جمع مُلحة: بضم الميم وهي ما يستملح ويستطاب.
(٢) يعطو: من العطو وهو التناول ورفع الرأس واليدين.
(٣) مغتفل: من الغفلة والمراد بها الإغفاء. والوخد: سير.
(٤) الغميم: موضع.

إن هذه من الحقائق النواصع، لو تعلمون، فالعاشق تقوى عنده ذاكرة النظر ويتصور ملامح معشوقه على بعد الديار، وعلى بعد السنين؛ فتغزوه الملامح الفتانة في كل وقت، كلما أدار أبصار فكره على ما رأت عيناه في عالم الفتون.

والجاهل هو الذي لا يعرف ذلك، الجاهل هو المحروم من نعمة الخيال الوثاب الذي يمثل ما نأى وما بَعُدَ وكأنه مشاهد ملموس، والشعراء بهذه المنحة الربانية يتمتعون بالمحاسن في صور مختلفات، ويشهدون المنظر الفاتن ألوف المرات، على حين لا يراه الجاهل غير مرة واحدة، إن كان الجاهل يدرك ما يراه، وأكثر أهل الأرض جهلاء، وإن ظفروا بأعظم الألقاب، وعلى الله رزق الدواب.

ويحدثنا الشاعر عن وعد العيون، وللعيون وعود:

فهل يسمح الشريف بأن نعترض على ما نسبه إلى محبوبته من خلف الوعد؟

هل يصدقنا الشريف إذا حكمنا بأن العيون عالم منفصل عن عالم القلوب؟

هل يصدقنا الشريف إذا جزمنا بأن العين تَعِدُ وتُخْلِف، وتبرم وتنقض، في غيبة القلب؟!

إن الناس يظنون منذ ألوف السنين أن العيون رسل القلوب؛ فليعرفوا منذ اليوم أن العين خلق عجيب لا يعرف أسراره غير علام الغيوب!

ولعل الشريف فطن إلى ذلك حين استدرك فقال:

يـــا قـــرب مـــا كـــذبت عينـــي عينـــاك

وحين قال:

كـأن طرفـك يـوم الجـزع يخبرنـا ... بما طوي عنك من أسماء قتلاك

فهو يرى للعيون أعمالًا يجهلها أهل العيون، والأمر والله كذلك؛ ولكن أكثر الناس لا يفقهون.

ويقول:

حكت لحاظك ما في الريم من مُلَح ... يوم اللقاء فكان الفضل للحاكي

فيرينا أن الحلاوة في عيون النساء أمتع من الحلاوة في عيون الظباء.

والحق في هذه لقضية أن عيون الغزلان في غاية من الروعة؛ ولكنها محرومة من صفة أساسية في عيون الملاح وهي الإفصاح، أو ما يعبر عنه الفرنسيون بكلمة Regrad tissrpeex فعين الظبية تروعك؛ ولكنها لا تحدثك، أما عين المرأة فتروعك وتفضي إليك في لحظة واحدة بألف حديث وحديث، ولعل الشريف قصد إلى ذلك حين قال:

فكان الفضل للحاكي

وانظروا كيف سجل مناسك الحج بهذين البيتين:

سقى منى وليالي الخيف ما شربت ... من الغمام وحياها وحياك

إذ يلتقي كل ذي دين وماطله ... منا ويجتمع المشكوُّ والشاكي

فهل رأيتم أظرف من هذا الكلام؟! وهل تدركون ما فيه من دقيق الإشارات؟!

اغفروا لي هذه الهفوة، فما أتهمكم بالجهل، والعياذ بالذوق، وإنما أريد أن أهجم على الشريف فأقول: إنه كان يتخذ أيام الحج مواعيد غرام، وأخشى أن أقول: إنه لم يكن يفارق مناسك الحج إلا على ميعاد.

وهذا يفسر حرصه على إمارة الحج بالأصالة عن نفسه أو بالنيابة عن أبيه، ولا تستكثروا أن يحج الرجل؛ ليرى امرأة يهواها، أو أن تحج المرأة؛ لترى رجلًا تهواه، فقد كنا ننظم المواعيد في القطار بين ليون وباريس، مواعيد لعام أو عامين، ثم نفي فنلتقي بعد عام أو عامين، وللقلوب غرائب لا تدركها العقول.

وما الذي يمنع من مجاراة أبي عمرو بن العلاء في الحكم بين الأعشى ولبيد؟!

أتذكرون ما قال أبو عمرو بن العلاء؟!

إنه قال: لبيد رجل صالح، والأعشى رجل شاعر.

وكذلك أَحْكُمُ بأن الشريف رجل شاعر وليس برجل صالح.

وهل قلَّ الصالحون في الدنيا حتى نشرفهم بالشريف؟!

إن الأغبياء يعدون بالألوف، وألوف الألوف، وإمارة الحج تولَّاها مئات ممن يحسنون التسبيح والتهليل، فليكن فيهم رجل واحد يفهم أن الحج معرض من معارض الجمال في أمة قامت تقاليدها على الاستهانة بالجمال.

لتكن حجازيات الشريف هي الشاهد على أن ماضينا لم يكن كتلة من الجمود، وإنما كان ماضي أمة حية تدرك دقائق الأحاسيس تأملوا هذه الصورة:

لما غدا السرب يعطو بين أرحلنا ... ما كان فيه غريم القلب إلاك

هامت بك العين لم تتبع سواك هوى ... مَن علَّم العين أن القلب يهواك

ثم انظروا كيف يضل المرء بين الحسان وليس له فيهن إلا محبوبة واحدة، وذلك أظرف أنواع الضلال؟

وتأملوا قوله:

وحبذا وقفة والركب مغتفل ... على ثرى وخدت فيه مطاياك

فهذا البيت يشهد بأن شاعرنا كان ينتهب الفرص التي يغفو فيها الركب ليمتع القلب اليقظ بما يوحي الهوى من انتهاب القبلات.

وما رأيكم في هذه الأبيات:

أيها الرائح المغذ[١] تحمل ... حاجة للمعذب المشتاق
أقر عني السلام أهلي المصلى[٣] ... فبلاغ السلام بعض التلاقي[٢]
وإذا ما مررت بالخيف فاشهد ... أن قلبي إليه بالأشواق
وإذا ما سئلت عني فقل نضـ ... ـو هوى ما أظنه اليوم باقي
ضاع قلبي فانشده لي بين جمع ... ومني عند بعض تلك الحداق
وابك عني فطالما كنت من قبل ... أعير الدموع للعشاق

ما رأيكم في إحساس من يحكم بأن بلاغ السلام بعض التلاقي؟

ما رأيكم فيمن يشعر بالأنس حين يمر بخاطر من يهواه؟

والشاعر واثق بأن هناك قلوبًا تسأل عنه حين يغيب، وما أسعد مَن يشعر بأن في الدنيا قلوبًا تسأل عنه حين يغيب! وشاعرنا لا تفارقه السيطرة العلوية، فهو يحب أن يبكيه الأحباب، فيوصي الرسول بأن يحدثهم أنه أصبح في حكم الفانين، عساه يظفر منهم بزفرة أو شهقة أو أنين.

وما هذا البيت:

---

(١) المغذ: المسرع.
(٢) في الديوان (وبلاغ السلام بعد التلاقي) والصواب ما أثبتناه.
(٣) المصلى: اسم موضع.

ضـاع قلبـي فانـشده لي بـين جمـع ومنـى عنـد بعـض تلـك الحـداق

أتعرفون كيف تضيع القلوب؟ وكيف ينشدها الناشدون؟ أتحسون المعنى الملفوف في هذه الكلمة "عند بعض تلك الحداق"؟ أتفهمون من هذا أن الرجل كان له في الحجاز هوى خاص؟

وهذا البيت:

وابـك عنـي فطالمـا كنـت مـن قبـل أعـيـر الـدموع للعـشاق

أنت كنت تعير الدموع للعشاق؟

ليت العباس بن الأحنف كان رآك قبل أن يقول:

نـزف البكـاء دمـوع عينـاك فاسـتعر عينًـا لغـيرك دمعهـا مـدرار
مَـن ذا يعـيرك عينـه تبكـي بهـا؟ أرأيـت عينًـا للـدموع تعـار؟

لقد بكى العشاق عنك، وبكوا ثم بكوا، فإن لم تصدق فأنصت من عالم الغيب؛ لترى كيف يسمع أهل العراق أبياتك هذه مرات في كل يوم من حنجرة أم كلثوم.

وهذه الأبيات:

حـيٍّ بـين النقـا وبـين المـصلى وقفـات الركائـب الأنـضاء[1]
ورواح الحجـيج ليلـة جمـع وبجمـع مجـامع الأهـواء
وتـذكر عنـي منـاخ مطيـي بأعـالي منـى ومرسـى خبـائي[2]
وتعمـد ذكـري إذا كنـت بـالخيف لظبـي مـن بعـض الظبـاء
قـل لـه: هـل تـراك تـذكر مـا كـان بـباب القبيبـة الحمـراء

(١) الأنضاء: المهازيل.
(٢) مرسى: من أرسى إذا أقام ومنه: ﴿ مجراها ومرساها ﴾.

قـــل لي: صـــاحبي غـــداة التقينـــا نتـــشاكى حـــر القلـــوب الظـــماء
كنـــت خبرتنـــي بأنـــك في الوجـــ ـــد عقيـــــدي وأن داءَك دائـــــي
مـــا تـــرى النفـــر والتحمـــل للبـــين فـــــماذا انتظارنـــــا للبكـــــاء[1]
لم يقلهـــا حتـــى انثنيـــت لمـــا بي أتلقـــى جمعـــي بفـــضل رادئـــي

إن الشاعر يحس معنى الحياة في وقفات الركائب الأنضاء؛ لأن السفر لا ينضي الركائب إلا بعد أن تصل بالعاشق إلى هواه، فهو يطرب لوقفاتها في قرار واطمئنان.

والشاعر يوصي رفيقه بأن يتذكر عنه مناخ مطاياه، وتلك لفتة شعرية لا يدركها إلا الأقلون.

وكما حدثنا عن بعض تلك الحداق يحدث عن بعض تلك الظباء فيقول:

وتعمـــد ذكـــري إذا كنـــت بـــالخيف لظبـــي مـــن بعـــض تلـــك الظبـــاء
قـــل لـــه: هـــل تـــراك تـــذكر مـــا كـــا ن ببـــــاب القبيبـــــة الحمـــــراء؟

وعبارة "ما كان" عبارة لطيفة يوشيها الذوق، وهي أبرع من عبارة ابن المعتز إذ يقول:

وكـــان مـــا كـــان ممـــا لـــست أذكـــره فَظُنَّ خـيرًا ولا تـسأل عـن الخـبر

لأن ابن المعتز أحاط عبارته بالشبهات، أما الأبيات الأخيرة فهي تشعركم بأن الشريف لم يكن يودع مناسك الحج بالتلبية والتكبير، وإنما كان يودعها بزفرة من الملتاع على ما يفارق من خدود وعيون.

---

(١) النفر: هو تفرق الحاج عن منى.

أيها السادة:

ما رأيكم في هذا القصيد المرقص:

مَـــن معيـــد لي أيـــا ... مـــي بجـــزع الـــسمرات[١]

وليـــالي بجمـــع ... ومنـــى والجمـــرات

وظبـــاء حاليـــات ... كظبـــاء عـــاطلات

رائحـــات في جلابيـــب ... الـــدجا مختمـــرات[٢]

راميـــات بـــالعيون النجـــ ... ـل قبـــل الحـــصيات

ألعقـــر القلـــب راحـــوا ... أم لعقـــر البـــدنات

كيـــف أودعـــت فـــؤادي ... أعينًـــا غـــير ثقـــات

أيهـــا القـــانص مـــا ... أحـــسنت صـــيد الظبيـــات

فاتـــك الـــسرب ومـــازو ... دت غـــير الحـــسرات

يـــا وقوفًـــا مـــا وقفـــن ... في ظـــلال الـــسلمات[٣]

موقفًـــا يجمـــع فتيـــا ... ن الهـــوى والفتيـــات

نتـــشاكى مـــا عنانـــا ... بكـــلام العـــبرات

نظـــر يـــشغل منـــا ... كـــل عـــين بقـــذاة

كـــم نـــأى بـــالنفر عنـــا ... مِـــن غـــزال ومهـــاة!

آهٍ مـــن جِيـــد إلى الـــدا ... ر كثـــير اللفتـــات!

وغـــرام غـــير مـــاض ... بلقـــاء غـــير آت

فُـــسقى بطـــن منـــى والخـــ ... ـيف صـــوب الغاديـــات

وزمانًـــا نـــائم العـــذَّا ... ل مـــأمون الوشـــاة

---

(١) السمُرات: بضم الميم جمع سمُرة وهو اسم موضع. والسمُر: في الأصل ضرب من الشجر.

(٢) المختمرات: لابسات الخمار.

(٣) السَلَمات: جمع سَلَمَة بالتحريك وهي ضرب من الشجر.

في ليـــــالٍ كـــــاللآلي فـــــالغواني مقمـــــزات
غرســـت عنـــدي غـــرس الـــشوق ممـــرور الجنـــاة
أيـــــن راقٍ لغرامـــــي وطبيـــــب لـــــشكاتي

ما رأيكم فيمن يرى أن يسمِّي هذه القصيدة "أنشودة الحجيج"؟

لا تعجبوا من هذا الاقتراح! فمواسم الحج تحتاج إلى ضروب من الأناشيد، ومواسم الحج في شوق إلى من يرجعها إلى عهدها الأول، يوم كانت أقدم ما عرف الناس من المعارض الدولية، مواسم الحج تحتاج إلى شاعر كالشريف؛ يفرق بين عقر البدنات وعقر القلوب، وتحتاج إلى شاعر يعلم الناس أدب الصيد فيقول:

أيهـــا القـــانص مـــا أحـــسنت صـــيد الظبيـــات
فاتـــك الـــسرب ومـــازو دت غـــير الحـــسرات

وتتشوف إلى من تلهف على أيامها فيقول:

آه مِـــن جِيـــد إلى الـــدا ر كثـــير اللفتـــات
وغـــرام غـــير مـــاض بلقـــاء غـــير آت

وأعظم الحسرات أن تتشوف إلى أنس لن يعود، ويرحم الله أرباب القلوب!

وهذه القصيدة التي تسجل لوعة القلب إلى ما شهد في طريق الحج من سباب الفتون:

خذي نفسي يا ريح من جانب الحمى فلاقى بها ليلًا نسيم ربا نجد
فإن بذاك الحمى إلفًا عهدته وبالرغم من أن يطول به عهدي
ولولا تداوى القلب من ألم الجوى بذكر تلاقينا قضيت من الوجد

ويـا صـاحبيَّ اليـوم عوجّـا لتـسألا ... رُكَيْبًا من الغورين أنضاؤهم تُخدي[1]
عـن الحـي بالجزعـاء جزعـاء مالـك ... هـل ارتبعـوا واخـضر واديهـم بعـدي؟
كـأن بعينـي بعـدهم عـائر القـذى[2] ... إذا أنـا لم أنظـر إلى العلـم الفـرد
شـممت بنجـد شـيحة حاجريـة ... فأمطرتهـا دمعـي وأفرشـتها خـدي
ذكـرت بهـا ريـا الحبيـب عـلى النـوى ... وهيهـات ذا يـا بعـد بينهما عنـدي
وإني لمجلـوب لِيَ الـشوق كلـما ... تـنفس شـاك أو تـألم ذو وجـد
تعـرَّض رسـل الـشوق والركـب هاجـد ... فتـوقظني مـن بـين نـوامهم وحـدي
فقلـت لأصـحابي ألا تتزافـروا ... رويـدكم إن الهـوى داؤه بعـدي
ومـا شرب العـشاق إلا بقيتـي ... ولا وَرَدُوا في الحـب إلا عـلى وِرْدِي

والقصيدة واضحة لا تحتاج إلى من يدل على ما فيها من محاسن؛ ولكن لا بد من النص على هذه العبارة: "**هل ارتبعوا واخضر واديهم بعدي؟**"

فإنها تصور فهمه لمعاني السعادة في البوادي، وقد يكون في الارتباع والاخضرار إشارة إلى ما يتخوفه من أن يأنس الأحباب بغير هواه بعد الفراق، ثم انظروا إحساسه بالفروسية في الحب إذ يقول:

تعرض رسل الشوق والركب هاجد ... فتوقظني من بين نوامهم وحدي
وما شرب العشَّاق إلا بقيتي ... ولا وَرَدُوا في الحب إلا على وِرْدِي

وحدثوني عن شعوركم بهذا المعنى الطريف؟

فذلكم شاعر يرى أن أطياف الشوق تعرفه بين الركب بسيماه، ويعتقد أن العشاق لا يَرِدُونَ في الحب إلا على ورده، ولا يشربون إلا بقاياه، والعشاق كالأنبياء لا تجود الدنيا بهم كل يوم؛ وإنما تسمح بهم من جيلٍ إلى أجيال.

---

(١) الرُكَيْب: مصغر ركب، وتخدى: تسرع.
(٢) العائر: كل ما أعل العين، وفي الديوان (غائر) بالغين المعجمة وهو تحريف.

وما رأيكم في هذه الأبيات:

تحمل جيراننا عن منى ... وقالوا النقا بيننا موعد
وهل نافع قول ذي غلة ... وقد بعد الركب لا يبعدوا
تنادوا بأن التنائي غدا ... لك السوء من طالع يا غد
فلله ما جمع المأزما ... ن وجمع لقلبي والمسجد
يضاع فينشد قعب[1] الغبوق ... وقلبي يضاع ولا ينشد
وغيداء من ماطلات الديون ... لها بالحمى زمن أغيد
تريع[2] كما التفتت ظبية ... بذي البان عن لها المورد
نظرت وهيهات من ناظريك ... ظباء تهامة يا منجد
ويا ربما والهوى ضلة ... ترى العين ما لا تنال اليد

ألا ترون هذه الحسرة الدامية؟ ألا تحسون اللوعة في هذا البيت؟

تنادوا بأن التنائي غدا ... لك السوء من طالع يا غد!

بأوجع من لوعة المفارق الذي لا يعرف متى يعود؟ أي لوعة آلم وأوجع من لوعة من يودع ناسا لا يدري أيلقاهم مرة ثانية، أم يكون أنسه بهم آخر العهد في دنياه؟

وهذا البيت:

وربما والهوى ضلة ... ترى العين ما لا تنال اليد

وهل في الدنيا أفظع وأشنع من أن ترى العين ما لا تنال اليد؟

إن هذا أصل الشقاق والنزاع بين طوائف الإنسان والحيوان، وكل شقاء

---

(١) القعب: بفتح فسكون هو القدح الضخم.
(٢) تريع: ترجع.

في عالم الذوق والوجدان يرجع إلى أصل واحد: هو أن ترى ولا تملك.

وهل يعرف أحد حقيقة اللوعة في قلب الشاعر الذي يرى امرأة جميلة وهو يعرف أن لن تنالها يده، وأنها مع ذلك قد تكون ملكا لرجل سخيف لا يدرك أسرار الجمال؟

نترك هذا الشطط وننتقل إلى هذه الأبيات:

ألا يا ليالي الخيف هل يرجع الهوى ... إليكن لي لا جازكن ندى القطر
فيا دين قلبي من ثلاث على منى ... مضين، ولم يبقين غير جوى الذكر
ورامين وهنا بالجمار وإنما ... رموا بين أحشاء المحبين بالجمر
رموا لا يبالون الحشا وتروحوا ... خليين والرامي يصيب ولا يدري
وقالوا: غدا ميعادنا النفر عن منى ... وما سرني أن اللقاء مع النفر
ويا بؤس القرب الذي لا نذوقه ... سوى ساعة ثم البعاد مدى الدهر
فيا صاحبي إن تعط صبرا فإنني ... نزعت يدي اليوم من طاعة الصبر
وإن كنت لم تدر البكا قبل هذه ... فميعاد دمع العين منقلب السفر

وهذا شعر واضح؛ ولكن لا بد من التذكير ببعض المحاسن؛ كأن ننص على الخيال في هذا البيت:

ورامين وهنا بالجمار وإنما ... رموا بين أحشاء المحبين بالجمر

وما هو بخيال، وإنما هو حقيقة تراها العيون، ومن الذي ينكر أنه يتمنى أن يكون شيطانا ترجمه بعض الأنامل الرقاق؟ فهل يستكثر على الشريف أن يقول: إن بعض الراميات لا ترمي بالجمار، وإنما ترمي الأحشاء بالجمر المشبوب؟

ما هذه البدعة الطريفة التي تفرد بها الحج الإسلامي؟ ما هذا التلطف الظريف الذي شرعه الإسلام، وهو يوجب على المرأة المليحة أن تمد معصمها

لترمي الجمار؟

أما خطر ببال أحد الفقهاء أن يتصور أن المعصم الجميل قد يكون أفتن، وأخطر من الشيطان الذي يرجمه الحجاج؟!

ليت الدهر يسمح بأن نرى مرة كيف ينعم صديقنا الشيطان، وهو يتلقى الرميات من أيدي الملاح! إن حظه لو تعلمون عظيم!

وهذا البيت:

رمـوا لا يبـالون الحـشا وتروحـوا خلين والرامي يـصيب ولا يـدري

والمهم هو النص على أن الرامي قد يصيب وهو لا يدري، ذلك منطق الشريف! والأغرب منه أن ننص على أن الرامي قد يقصد هدفا واحدا فيصيب هدفين!

وهذا البيت:

ويـا بـؤس القـرب الـذي لا نذوقـه سوى ساعة ثم البعاد مـدى الـدهر

فذلك هو المعنى الأصيل الذي يدور حوله الشريف في سائر الحجازيات.

وهذه الأبيات وقد قالها عند دخول الحجيج إلى مدينة السلام في شهر صفر سنة ٣٩٥:

عارضـا بي ركـب الحجـاز أسـائله متـى عهـده بـسكان سـلع[1]

---

(١) معارضة الركب: هي السير حيال الركب، وسلع: بفتح أوله وسكون ثانيه جبل أو موضع بقرب المدينة تتصل به قصة وجدانية، فقد سمع يزيد بن عبد الملك جاريته تغني هذه الأبيات:

لعمـرك إنـني لأحـب سـلعا لرؤيتهـا ومـن بجـوار سـلع

تقـر بقربـه عينـي وإني لأخـشى أن تكـون تريـد فجعـي

واستملا حديث من سكن الخيف ... ولا تكتباه إلا بدمعي
فاتني أن أرى الديار بطرفي ... فلعلي أرى الديار بسمعي

هل ترون! ألا تحسون لوعة المشتاق إلى أنفاس الظباء بالحجاز؟!

ذلكم شاعر فاته أن يحج فلم يبق أمامه إلا أن يتنسم أرواح القادمين ليرى الديار بأذنيه، وقد فاته أن يراها بعينيه، والعاشق يستبيح كل شيء حتى الأنس بالخيال، وهو والله مظلوم فقد ينشد القدح الضائع، ولا ينشد الفؤاد المفقود.... وهذه الأبيات:

إني علقت على منى ... لمياء يقتلني لماها
راحت مع الغزلان قد ... لعبت بقلبي ما كفاها
تبغي الثواب فمهجتي ... هذين القريحة من رماها
وقف الهوى بي عندها ... وسرت بقلبي مقلتاها
بردت علي كأنما ... ظل الغمامة عارضاها
شمس أقبل جيدها ... يوم النوى وأجل فاها
وأذود قلبا ظامئا ... لو قيل وردك ما عداها
ولو استطاع لقد جرى ... مجرى الوشاح على حشاها
يا يوم مفترق الرفا ... ق ترى تعود لملتقاها
قالت سيطرقك الخيا ... ل من العقيق على نواها
فعدي بطيفك مقلة ... إن غبت تطمع في كراها

حلفت برب مكة والمصلى ... وأيدي السابحات غداة جمع
لأنت على التنائي فاعلميه ... أحب إلى من بصري وسمعي

ثم رأها تتنفس الصعداء فقال: لم تتنفسين! والله لو أردته لقلعته حجرا حجرا.
فقالت: وما أصنع به؟! إنما أردت ساكنيه!

إني شربت من الهوى حمراء صرف ساقياها
يا سرحة بالقاع لم يبلل بغير دمي ثراها
ممنوعة لا ظلها يدنو إلي ولا جناها
أكذا تذوب عليكمو نفسي وما بلغت مناها؟
أين الوجوه أحبها وأود لو أني فداها
أمسي لها متفقدا في العائدين ولا أراها
واها ولولا أن يلو م اللائمون لقلت آها

ما رأيكم في هذا الشعر المرقص؟! وما هي التعابير التي تفصح عما فيه من فتون؟ ما رأيكم في العذوبة التي تتموج بين ألفاظه، ومعانيه كما يتموج البريق في الثنايا العذاب؟!

حدثوني عند أي بيت نقف لنحدد غرائب البيان؟!

انظروا هذا البيت:

إني علقت على منى لمياء يقتلني لماها

تجدوا المعنى قديما مبذولا تناهبه مئات الشعراء، ولكن ألا توافقون على أن الشريف أداه تأدية رشيقة حتى كاد يصبح من المبتكرات،؟!

وهذا البيت:

راحت مع الغزلان قد لعبت بقلبي ما كفاها

وهو أيضا معنى قديم؛ ولكن هل تدركون الصورة الشعرية التي تتمثل في قوله:

لعبت بقلبي ما كفاها

وهو يريد أنها لم ترح مع الغزلان إلا بعد أن شبعت لعبًا بذلك القلب الخفاق، وهل تشبع الظباء من اللعب بالقلوب؟!

وهذا البيت:

وقـــف الهـــوى بي عنـــدها وسرت بقلبـــي مقلتاهـــا

فقد يمكن رجع صدره إلى قول دعبل:

وقف الهوى بي حيث أنت فليس لي متـــأخر عنـــه ولا متقـــدم

ولكن من الذي يجهل قيمته اللطف في هذه الشطرة "... وسرت بقلبي مقلتاها"؟

وهذا البيت:

بـــردت عـــليَّ كـــأنما ظـــل الغمامـــة عارضـــاها

والبرد كلمة لها في التشبيب مدلول خاص، وهي تشبه الكلمة الفرنسية fraisheur

وهذا البيت:

شـــمس أقبْـــل جيـــدها يـــوم النـــوى وأجـــل فاهـــا

هو أيضًا معنى قديم؛ ولكن لا يكذب من يقول: إنه من مبتكرات الشريف.

وهذا البيت:

وأذود قلبًـــا ظامئًـــا لـــو قيـــل وردك مـــا عـــداها

وما أحسبكم تطالبونني بالتنبيه على ما في هذا البيت البارع من جمال، فإني

أخشى أن تفسده الشروح، وانظروا كيف عقَّب عليه بهذا البيت:

ولـــو اســـتطاع لقـــد جـــرى مجـــرى الوشـــاح عـــلى حـــشاها

وأحب أيها السادة أن تتأملوا الحسن في هذه الأبيات:

ياسرحـــــــة بالقـــــــاع لم يبلـــل بغـــير دمـــي ثراهـــا
ممنوعـــــــة لا ظلهـــــــا يـــــــدنوا إليَّ ولا جناهـــــــا
أكـــــذا تـــــذوب عليكمـــــو نفـــسي ومـــا بلغـــت مناهـــا
أيـــــن الوجـــــوه أحبهـــــا وأود لـــــو أني فـــــداها
أمـــــسي لهـــــا متفقـــــدًا في العائـــــدين ولا أراهـــــا
واهًـــــا ولـــــولا أن يلـــــو م اللائمـــــون لقلـــــت آهـــــا

أتدركون قيمة العذوبة في هذا القصيد؟

أعتذر مرة ثانية، وثالثة، ورابعة عن الارتياب في أذواقكم، فمثلي لا يسيء الظن بأذواق أهل العراق، وإنما أعجب حين أرى من يتهمني بالتعصب للشريف، ويطالبني بكشف ما عنده من عيوب، وأنا، والله مستعد لكشف عيوب الشريف؛ ولكن متى؟ بعد أن يعرف الناس محاسن الشريف.

أليس من العجب العاجب أن لا يعرف هذه القصيدة مغنٍ في تونس أو مراكش أو الجزائر أو صنعاء أو مكة أو المدينة أو دمشق أو بيروت أو القاهرة أو بغداد، وما إلى أولئك من الحواضر العربية.

لو كانت هذه القصيدة العذبة مما نظم ميسيه أو بيرون أو جوت لكانت على جميع الألسنة في بلاد الفرنسيس،والإنجليز، والألمان؛ ولكنها وا أسفاه من نظم شاعر يجهله أكثر العرب، وينكره بعض أهله في العراق.

أنا لا أقول بأن الشريف ابتكر جميع معانيه، فلأكثرها أصول عند أسلافه

بأقوى، وأعنف ما تتصورون من الإحساس، وقد دعوتكم من قبل إلى مراجعة كتاب "النثر الفنى" لتروا كلمة الحق، والصدق في المبتذل، والطريف، ولتعرفوا أني في إنصاف هذا الشاعر لم أكن من العابثين.

وهل أستطيع مرة ثالثة أن أدلكم على الحسن في هذين البيتين:

أيـــن الوجـــوه أحبهـــا وأود لـــو أني فـــداها
أمـــسي لهـــا متفقـــدا في العائـــدين ولا أراهـــا

إن المعنى فيهما مأخوذ من قول بعض الشعراء:

مـا أقـبح النـاس في عينـي وأسـمجهم إذا نظرت فلـم أبـصرك في النـاس!

ولكن الصورة مختلفة كل الاختلاف.

وأنا أيها السادة أقدر منكم على تجريح الشعراء؛ لأني قضيت عشرين سنة أو تزيد في تعقب الألفاظ النثرية، والأخيلة الشعرية، وأستطيع أن أهجم على شاعر مثل المتنبي فأثبت أن معانيه كلها من الحديث المعاد؛ ولكني لو فعلت لكنت من الظالمين؛ لأني أعرف أن المتنبي أحس معاني شعره أصدق إحساس، وأومن بأنه لم يكن يغير على معاني سواه، وإنما كان يفترع المعاني افتراعا، وإن أنس بها من قبله كثير من الشعراء.

وهل تظنونني أجبن عن مصارحتكم بكلمة العدل في هذه القضية، وأنا الذي جبهت بها أساتذتي في السوربون في محضر جمهور يعد بالمئات؟

هل تظنونني أجبن عن التصريح بأن النقاد القدماء كانوا يلعبون حين أتعبوا أنفسهم وأتعبوا قراءهم فيما سموه بالسرقات الشعرية؟

لقد آن لنا أن نقيم النقد على قواعد علم النفس، وأظنني وصلت في ذلك إلى بعض ما أريد.

ثم ننتقل إلى هذه الأبيات:

يـــا رفيقـــي قفـــا نـــضويكما ... بـــين أعـــلام النقـــا والمنحنـــى
وانـــشدا قلبـــي فقـــد ضـــيعته ... باختيـــاري بـــين جمـــع ومنـــى
عارضـــا الـــسرب فـــإن كـــان فتـــى ... بـــالعيون النجـــل يقـــضي فأنـــا
إن مـــن شـــاط[1] عـــلى ألحاظهـــا ... ضـعف مـن شـاط عـلى طـول القنـا
نجـــرح الأعـــين فينـــا والطـــلى[2] ... قاتـــل الله الطليو الأعينـــا
ثـــم كانـــت بقبـــاء وقفـــة ... ضـــمنت للـــشوق قلبـــا ضـــمنا[3]
وحـــديث كـــان مـــن لذاتـــه ... أحـــد[4] يـــصغي إلينـــا أذنـــا
غـــادروني جـــسدا تظهـــره ... لهـــم الـــشكوى ويخيفـــه الـــضنى
حبـــذا مـــنكم خيـــال طـــارق ... مـــر بـــالحي ولم يلمـــم بنـــا
باخـــل بخـــل الـــذي أرســـله ... ســـئل النيـــل ومـــا جـــاد لنـــا
سرحـــة أعجلهـــا البـــين ومـــا ... لبـــث[5] الظـــل ولا ذيـــق الجنـــى
مـــا رأت عينـــي مـــذ فـــارقتكم ... يـــا نـــزول الحـــي شـــيئا حـــسنا

وهذه أبيات تذكرون ما فيها من روعة الخيال، ويكفي أن نقف عند هذا البيت:

وحـــديث كـــان مـــن لذتـــه ... أحـــد يـــصغي إلينـــا أذنـــا

وليس من العجيب أن تصغي الجبال لأحاديث المحبين، فقد صح لأحد أن يقول:

---

(١) شاط: احترق وهلك.
(٢) الطلي: بالضم الأعناق أو أصولها، المفرد طلية أو طلاة.
(٣) ضمن: فعل ماض من الضمنة: بالضم وهي المرض.
(٤) أحد بضمتين اسم جبل كانت به موقعة مشهورة جدا.
(٥) في الديوان (لبس) وهو تحريف.

وقـــف الـــنجم وألقـــى بالـــه ... ليعـد اللمـح مـن قلبـي وقلبـك
ويـــح هـــذا الـــنجم ممـــا هالـــه ... في ضمير الليـل مـن حبـي وحبـك

على أن صبابات الشريف في مواسم الحج، وفي طريق الحج لم تكن كلها من الوجد العابر الذي يمر مرور الطيف ولا يبقى من نعيمه غير العقابيل، فقد حدثنا أنه طاف بمعاني الوصل إذ قال:

يـا ليلـة الـسفح ألا[1] عـدت ثانيـة ... سـقى زمانـك هطـال مـن الـديم
ماض من العيش لـو يفـدي بـذلت لـه ... كرائم المال مـن خيـل ومـن نعـم[2]
لم أقـض منـك لبانـات ظفـرت بهـا ... فهـل لي اليـوم إلا زفـرة النـدم
فليـت عهـدك إذ لم يبـق لي أبـدا ... لم يبـق عنـدي عقـابيلا[3] مـن السقم
تعجبـوا مـن تمنـي القلـب مؤلمـه ... ومـا دروا أنـه خلـو مـن الألم
ردوا عـلي ليـالي التـي سـلفت ... لم أنـسهن ولا بالعهـد مـن قـدم
أقـول للائـم المهـدي ملامتـه ... ذق الهـوى وإن اسـطعت المـلام لم[4]
وظبيـة مـن ظبـاء الأنـس عاطلـة ... تستوقف العين بـين الخمـص والهـضم[5]
لـو أنهـا بفنـاء البيـت سـانحة ... لـصدتها وابتـدعت الـصيد في الحـرم
قـدرت منهـا بـلا رقبـى ولا حـذر ... عـلى الـذي نـام عـن لـيلي ولم أنـم
بتنـا ضـجيعين في ثـوبي هـوى وتقـى ... يلفنـا الـشوق مـن فـرع إلى قـدم
وأمـست الـريح كـالغيرى تجاذبنـا ... عـلى الكثيـب فـضول الـريط واللمـم[6]

(١) ألا: كلمة تحضيض مثل هلا.
(٢) النعم: بالتحريك وقد تسكن عينه: الإبل والشاء، أو هو خاص بالإبل والجمع أنعام.
(٣) العقابيل: بقايا العلة والعداوة والعشق؛ وما يخرج على الشفة غب الحمى، والشدائد. واحد الكل عقبولة وعقبول بضم العين. وهو ذو عقابيل! أي شرير.
(٤) لم يثبت الفاء في جواب الشرط للضرورة.
(٥) الخمص: ضمور البطن، والهضم: بالتحريك لطف الكشح، والكشح ما بين الخاصرة إلى الضلع الخلف.
(٦) الريط: الثياب، واللمم: جمع لمة بالكسر وهي الشعر المجاوز شحمة الأذن؛ والمعنى

يـشي بنـا الطيـب أحيانـًا وآونـة ... يـضيئنا الـبرق مجتـازا عـلى إضـم[1]
وبـات بـارق ذاك الثغـر يوضـح لي ... مواقـع اللـثم في داج مـن الظلـم
وبيننـا عفـة بايعتهـا بيـدي ... عـلى الوفـاء بهـا والرعـي للـذمم
يولـع الطـل بردينـا وقـد نـسمت ... رويحـة الفجـر بـين الـضال والـسلم[2]
وأكـتم الـصبح عنهـا وهـي غافلـة ... حتـى تكلـم عـصفور عـلى علـم[3]
فقمـت أنفـض بـردا مـا تعلقـه ... غـير العفـاف وراء الغيـب والكـرم
وألمـستني وقـد جـد الـوداع بنـا ... كفـا تـشير بقـضبان مـن العـنم[4]
وألثمتنـي ثغـرا مـا عـدلت بـه ... أرى الجنـى بينـات الوابـل الـرذم[5]
ثـم انثنينـا وقـد رابـت ظواهرنـا ... وفي بواطنتنـا بعـد مـن الـتهم
يـا حبـذا لمـة بالرمـل ثانيـة[6] ... ووقفـة ببيـوت الحـي مـن أمـم[7]
وحبـذا نهلـة مـن فيـك بـاردة ... يعـدي عـلى حـر قلبـي بردهـا بفمـي
ديـن عليـك فـإن تقـضيه أحـي بـه ... وإن أبيـت تقاضـينا إلى حكـم
عجبـت مـن باخـل عنـي بريقتـه ... وقـد بـذلت لـه دون الأنـام دمـي
مـا سـاعفتني الليـالي بعـد بينهم ... إلا بكيـت ليالينـا بـذي سـلم
ولا اسـتجد فـؤادي في الزمـان هـوى ... إلا ذكـرت هـوى أيامنـا القـدم
لا تطلـبن لي الأبـدال بعـدهم ... فـإن قلبـي لا يـرضى بغـيرهم

أن الريح كانت تداعب العاشقين بمجاذبة الشعر والثياب.

(١) إضم: على وزن عنب جبل، والوادي الذي فيه المدينة النبوية يسمى أسفله ضم.

(٢) ولع الطل البرد: رقمه، والضال والسلم: مما تنبت البادية.

(٣) المراد بالعلم -بالتحريك- المكان المرتفع.

(٤) العنم بالتحريك: شجرة حجازية لها ثمرة حمراء يشبه بها البنان المخضوب.

(٥) المراد من أرى الجنى: عصير الفواكه ممزوجا بماء الغيث، والوابل: المطر، والرذم: المتدفق.

(٦) من أمم: -بالتحريك- أي من قرب.

(٧) اللمة: بالفتح هي المرة من اللمام، أي المرور.

والحسرات في هذه القصيدة حسرات شاعر، وهي أقوى من حسرات André chénier على الجدائل المتموجة، والأقدام العارية.

وصورة الشاعر مع محبوبته فوق الرمل وبين وشاية الطيب والبرق، وفي هداية الثغر البراق وفي حراسة العفاف صورة جذابة جدا، وصورة التوديع الذي عاناه بعد ذلك أرق وأظرف وأسف الشاعر على تلك الليلة يذيب القلوب.

والفتوة في صدر الشريف هي التي أنطقته بهذه المعاني، فمن المؤكد أن الدنيا لعهده لم تكن تخلو من أغبياء يصعب عليهم أن يدركوا كيف يصح العفاف لمن يبيتان ضجيعين، هو رجل خلق للشعر والخيال، ولم يخلق لمدارة المجتمع، ومن كان في مثل حاله لا يصلح للنجاح في المعترك السياسي؛ ولكنه يؤدي لوطنه، وقومه خدمات يعجز عنها السياسيون؛ لأنه يخلق ثقافة الذوق، ويروض النفوس على الأريحية، ويغرس فيها الشوق إلى حب الحياة.

ومن الواضح أن حجازيات الشريف لا تصلح دستورا للحجاج، فقد يجب أن تكون لهم شواغل غير التطلع إلى النحور، والمباسم، والعيون؛ ولكن هل يدعي الشاعر أنه يضع الشرائع للناس؟ وهل للشاعر شريعة واضحة الرسوم حتى يفكر في سن الشرائع؟

إن الشعراء كالأنهار يحلو لهم الاعوجاج، أما ترون نهر دجلة يمضي يمنة ثم يرجع يسرة؟ أما ترون نهر السين كيف يسير على غير هدى؟ وبفضل ذلك الاعوجاج حسنت مواقع المدائن التي تقوم على شواطئ الأنهار والبحار، ولو كان شاطئ البحر الذي تقوم عليه مدينة الإسكندرية يعرف الاعتدال؛ لكان من المستحيل أن تظفر الإسكندرية بذلك الموقع البديع الذي يمكن الناظر من أن يراها في الليل، وهي كالعقد على نحر المحيط، وشواطئ الإسكندرية لم

تجمل إلا بفضل ذلك الاعوجاج.

كنت أستطيع أن أناقش الشريف فيما ادعاه من العفاف، فأعيد الكلمة التي جاءت في الجزء الثاني من كتاب البدائع؛ كلمة أستاذنا الدكتور: منصور فهمي الذي يرى أن الشهوة قد تخرج من العيون.

ولكن ما رأيكم في أن الله -عز شأنه- لم يضع عقوبة للشهوة التي تخرج من العيون؟

أنكون أغير من الله؟

إن الشريف رجل شاعر، ولا يعيب شعره أن لا يكون من الصالحين.

كم كنت أتمنى أن أحاسب الشريف على ما ادعاه لنفسه من العفاف، ثم صدني عن ذلك شعوري بأنه لم يكن منافقا، وأنا رجل يرى الكفر أهون من النفاق.

أيها السادة:

لقد طال القول في حجازيات الشريف، وما نريد الاستقصاء، فلنختم البحث بقصيدته اليائية وقد قالها قبل أن يموت بأربع سنين، قالها عند توجه الناس إلى الحج في ذي القعدة من سنة ٤٠٠ وهو يتلهف على مواقع عينيه في أرض الحجيج.

أقول لركب رائحين لعلكم ... تحلون من بعدي العقيق اليمانيا
خذوا نظرة مني فلاقوا بها الحمى ... ونجدا وكثبان اللوى والمطاليا
ومروا على أبيات حي برامة ... فقولوا لديغ يبتغي اليوم راقيا
عدمت دوائي بالعراق فربما ... وجدتم بنجد لي طبيبا مداويا
وقولوا لجيران على الخيف من منى ... تراكم من استبدلتمو بجواريا

ومن حل ذاك الشعب[٢] بعدي وراشقت ... لواحظه تلك الظباء الجوازيا[١]
ومن ورد الماء الذي كنت واردا ... به ورعى الروض الذي كنت راعيا
فوا لهفتى كم لي على الحى شهقة ... تذرب عليها قطعة من فؤاديا[٣]
صفا العيش من بعدي لحي على النقايا ... حلفت لهم لا أقرب الماء صافيا
فيا جبل الريان إن تعر منهمو ... فإني سأكسوك الدموع الجواريا
ويا قرب ما أنكرتم العهد بيننا ... نسيتم وما استودعتم الود ناسيا
أأنكرتمو تسليمنا ليلة النقا ... وموقفنا نرمي الجمار لياليا
عشية جاراني بعينيه شادن ... حديث النوى حتى رمى بي المراميا
رمى مقتلي من بين سجفي غبيطة[٤] ... فيا راميا لامسك السوء راميا
فيا ليتني لم أعل نشزا إليكمو ... حراما ولم أهبط من الأرض واديا
ولم أدر ما جمع وما جمرتا منى ... ولم ألق في اللاقين حيا يمانيا
ويا ويح قلبي كيف زايدت في مها[٥] ... بذي البان لا يشرين إلى غواليا
ترحلت عنكم لي أمامي نظرة ... وعشر وعشر نحوكم لي ورائيا
ومن حذر لا أسأل الركب عنكمو ... وأعلاق وجدي باقيات كما هيا
ومن يسأل الركبان عن كل غائب ... فلا بد أن يلقى بشيرا وناعيا
وما مغزل أدماء تزجى بروضة ... طلى قاصرا عن غاية السرب وانيا[٦]

---

(١) الظباء الجوازى: التي يغنيها العشب عن الماء.
(٢) الشعب بالكسر: الطريق في الجبل، ومسيل الماء في بطن أرض أو ما انفرج بين الجبلين.
(٣) ارجع إلى تحليل هذه المعاني في كتاب (مدامع العشاق).
(٤) الغبيط: على وزن أمير هو المركب.
(٥) في الديوان (منى).
(٦) المغزل: ذات الغزال، والأدماء: وصف من الأدمة بالضم وهي لون مشرب سوادا أو بياضا، المذكر آدم على وزن أفعل، وبه سمي أبونا آدم، ولم يكن بالتأكيد من الظبا والطلى-بالفتح- ولد الظبي حين يولد والصغير من كل شيء. والواني: المتهمل من

لهـا بغـيات خلفـه تـزعج الحـشا ... كجـس العـذارى يختـبرن الملاهيـا

يحـور إليهـا بالبغـام فتنثنـي ... كما التفت المطلوب يخشى الأعاديا[1]

بـأروع مـن ظمياء[2] قلبـا ومهجـة ... غـداة سـمعنا للتفـرق داعيـا

تودعنـا مـا بـين شـكوى وعـبرة ... وقـد أصـبح الركـب العراقـي غاديـا

فلـم أر يـوم النفـر أكثـر ضـاحكا ... ولم أر يـوم النفـر أكثـر باكيـا

هذه أيها السادة أنشودة القلب الحزين، وبها نختم الحجازيات، وكنت أحب أن أتناولها بالنقد، والتحليل؛ ولكني عرضت لها قبل ذلك في مؤلفاتي عدة مرات، وما أدري أين عرضت لها فقد كثرت مؤلفاتي وطالت، وربما كنتم تعرفون عن مؤلفاتي أكثر مما أعرف فارجعوا إلى ما كتبت في تحليل هذه القصيدة إن كنت تذكرون!

الضعف.

(١) يحور: يرجع.

(٢) ظمياء: معشوقة الشاعر، وهو اسم اصطفاه الشريف وتلميذه مهيار، وبه سميت ظمياء وصيفة ليلى المريضة في العراق، شفاها الله.

بكاء الشباب

أيها السادة:

رأيتم غراميات الشريف، وحجازيات الشريف، فلم يبق إلا أن تروا ما صنع في بكاء الشباب، وأنا أستعير هذا العنوان المفجع من كتاب (مدامع العشاق)؛ لأن الشريف بكى شبابه بكاء لم يتفق لشاعر قديم أو حديث، وما ظنكم بشاعر لم يعش أكثر من سبع وأربعين سنة ثم اتفق له أن يبكي شبابه في أكثر من سبع وأربعين قصيدة؟!

ما ظنكم بشاعر مؤجج الإحساس، مرهف الذوق، مفطور القلب، يبكي دنيا الحب بكاء الأطفال، ويخشع أمام ذكريات الشباب خشوع المؤمن أمام المحراب؟

ما ظنكم بشاعر لا يمسي، ولا يصبح، إلا وهو على موعد من عيون الظباء، ثم يروعه الشيب فجأة؛ فيفهم أن الدهر يؤذنه بإلقاء السيف، وطي اللواء؟!

ما ظنكم بشاعر معروف ملاعب الهوى على شواطئ دجلة، وشواطئ الفرات وساقه القلب إلى معاقرة العيون في شتيت البقاع وذاق أطايب الخلوات في مكة والمدينة، وبغداد، ثم ينظر فإذا هو مهدد بالرحيل عن فردوس الصبابة العاتية، والوجد المشبوب؟

ما ظنكم بشاب حاد الشباب عنيفه -كما عبر الدكتور طه حسين- وهو يصف بعض الشبان؟ ما ظنكم بشاب هذا حاله يتلفت فيرى دنيا العافية تهجره، وتجفوه بلا ذنب، ولا جريرة؛ فيوقن أن دنيا المحبين إلى زوال؟!

ما ظنكم بشاعر يؤمن بأن الله لم يخلق أجمل من الشباب، ولم يبدع أنضر من الحب، ثم ينظر مرتاعا إلى مصيره في الشباب، ومصيره في الحب؟!

ما ظنكم بشاعر يعيش عزيزا بين الملاح، ثم يعترف بالذل، والضيم حين يرى في فوديه طلائع البياض؟!

والبياض يعشق في كل موضع إلا في الرأس، البياض يعشق في الخدود، والصدور، والمعاصر، والمباسم؛ ولكنه في الشعر بغيض ممجوج.

البياض في الزهر بشير الأنس والابتهاج؛ ولكنه في الشعر نذير الحزن والاكتئاب.

ولن أنسى ما حييت تلك اللوعة التي سمعتها من المسيو ماسينيون في باريس سنة ١٩٢٩، وكنا نقرأ بعض الأشعار الغرامية؛ فتنهد وقال: لقد فارقت شبابي! فقلت: لا تجزع، فإن الشاعر العربي يقول:

يقولون هل بعد الثلاثين ملعب ... فقلت، وهل قبل الثلاثين ملعب؟
لقد جل خطب الشيب أن كان كلما ... بدت شيبة يعري من اللهو مركب

فتنهد مرة ثانية، وقال: إن الشاعر قال: الثلاثين، ولم يقل: الخمسين!

وسأعيش دهري كله أتحسر على مصاير من عرفت من الرجال في باريس؛ الرجال الذي رأيتهم يبالغون في التلطف مع النساء، وما أتعس الرجل الذي لا تبقى له الأيام من مزية غير التلطف، والترفق في معاملة الملاح!

أيها السادة:

أتحسبونني أبكي شبابي؟، وهل عرفت نعيم الشباب حتى أبكي الشباب؟

إنما أريد أن أهيئ قلوبكم إلى إحساس الفجيعة التي سيتوجع منها الشريف الفجيعة القاسية التي تصور سقوط السماء على الأرض، وغيض البحار، وزوال الجبال!!

أريد أن أصنع مثل الذي صنعت، وأنا أتكلم عن عمر بن أبي ربيعة بالجامعة المصرية في أواخر سنة ١٩١٨، وكنت يومئذ طالبا لا يدري عواقب ما يصنع؛ فقد دعوت المستمعين إلى استقدام صباباتهم؛ ليدركوا ما تصنع الصبابة بالشاعر اللعوب، واليوم، وأنا ألقي محاضرتي بكلية الحقوق في أوائل سنة ١٩٣٨ أدعوكم إلى استقدام صباباتكم؛ بل أدعوكم إلى استقدام أساكم، وشجاكم؛ لتدركوا ما يصنع الحزن على الشباب بشاعر كان وهاج الشباب.

ولست أدعوكم إلى انتهاب ما توحي الغواية، والفتون، وإن كنت أتمنى؛ أن يكون فيكم خلفاء لعمر بن أبي ربيعة، والشريف الرضي، فقد كان عمر على ضلاله رجلا شهما ينزه عن التزلف، ويترفع عن مدح الخلفاء، في زمن كان شعراؤه عبيد الخلفاء، وكان الشريف الرضي على غرامه الأثيم -إن كان في الغرام إثم- رجلا شهما يحسب له في مصاير الأمور ألف حساب، ولم يمت إلا وهو مهيب جليل.

فإن عجزتم عن اللحاق بهذين الشاعرين فلا أقل من أن تدركوا ما يهدد اللغة العربية من القحط؛ قحط العواطف، والقلوب، فإن اللغات لا ترقى بالثرثرة اللفظية التي يغرم بها النحويون، والفقهاء، وإنما ترقى اللغات بما يبدعون في وصف المشاعر، والأحاسيس؛ ولكم أن تذكروا كيف ارتقت الإنجليزية بأمثال شلي، وبيرون، وكيف ارتقت الفرنسية بأمثال ميسيه، ولامرتين؟

وهل عاشت العبرانية وقد تقوض ملكها منذ أزمان وأزمان إلا بفضل اللوعة المبثوثة في سفر أيوب؟

ولو أن اللغة العبرانية وقفت عند ما يحسن اليهود في الميادين الاقتصادية لأدركها الموت منذ مئات السنين؛ ولكنها مضت تشرح آلام اليهود، ومآتمهم،

ومآسيهم، وأحزانهم، وأشجانهم فعاشت على وجه الزمان.

إنما ألح في شرح هذا المعنى، وألح فرارا من شر المتزمتين، فقد يقولون: لقد رأت بغداد أديبا يزين اللهو والمجون.

وما أنا بلاه، ولا عابث، ولا ماجن، وإنما أنا رجل يبكي مصير لغته بين اللغات، ويؤذيه أن تصبح لغته جافة، جامدة، غبية، بليدة، لا تتكلم عن غير أسعار القطن، وأسعار الحبوب، ولا تروج إلا بحرب الهجاء في الجرائد والمجلات.

أريد أيها السادة أن تتعبوا قليلا في إنهاض لغتكم؛ وهي لن تنهض إلا يوم تصبح قيثارة تعبر عن المآسي الإنسانية، وأخطر المآسي هي مآسي القلوب، ولن تصلوا إلى هذه الغاية إلا يوم تدوسون النفاق بأقدامكم، كما داسه عمر الخيام الذي خلق للغة الفارسية ألوفا وملايين من الأنصار والمعجبين.

لست بلاه أيها السادة، ولست بماجن، ولا عابث، كما قد يتوهم من لا يفهمون، والذين قرءوا منكم كتاب (حب ابن أبي ربيعة) يذكرون أني دعوت منذ سنين إلى التنبه إلى أثر المرأة في تلوين العواطف والأحاسيس؛ وهي دعوة أجد أثرها اليوم عند بعض الأدباء في مصر؛ ولكن أدباء مصر على علمهم وذكائهم لا يهتمون بأسرار القلوب، كما يهتمون بأهواء العقول.

فما الذي يمنع من إيجاد نهضة أدبية، وذوقية في العراق؟

ما الذي يمنع من أن تتذكروا ماضيكم الجميل يوم كان علماؤكم أعلم الناس، وشعراؤكم أشعر الناس؟

ما الذي يمنع من أن تقوم المنافسة بين القاهرة وبغداد؟ المنافسة القوية التي يسمو بها الشعر، والفن، والخيال؟

أترونني أجدت الاعتذار عن نفسي؟

أنا أريد أن أنقلكم إلى الأجواء الروحية التي عاش فيها الشريف وهو يبكي صباه.

أنا أريد أن ندرك معا سرائر هذا الروح الحزين؛ لنعيش معه لحظات في فردوس الوجدان.

ويجب أن نتفق أولا على أن الشاعر قد يزور عواطفه في بعض الأحيان؛ فتكون مدائحه مثلا ضربا من المجاملة أو الرياء، حتى الحب قد تزور فيه العواطف؛ فيكون الدمع في عين العاشق كالسم في ناب الثعبان، وبعض المحبين يبكون؛ ليخدروا فرائسهم فتعجز عن المقاومة، كما يلدغ الثعبان؛ ليخدر الفريسة، ثم يبتلعها بلا عناء.

إن تزوير العواطف مما يعرف الشعراء، ولا أستثني الشريف؛ ولكن هناك عاطفة لا تزوير فيها، ولا رياء، وهي سورة الحزن على الشباب.

لكم أن ترتابوا في صدق الشاعر حين يحب أو يبغض، وحين يمدح أو يعاتب؛ ولكن الارتياب في صدقه حين يبكي صباه أمر غير مقبول.

وأعيذكم أن تروا في هذا البكاء لونا من الضعف، لا؛ فهو من فيض القوة، وأظنني حدثتكم فيما سلف أن الحزن على ما نفقد هو الشاهد على قوة شعورنا بقيمة ما نفقد، والحزن عاطفة كاد يتفرد بها الإنسان من بين سائر الحيوان.

فبكاء الشريف على شبابه هو دليل القوة، والحيوية، وهو يصور إدراكه لمعاني السعادة في الحياة، ويرينا كيف كانت الدنيا في عينيه، وفي قلبه، وفي خياله، وفي رؤياه. فالقصائد التي سندرسها معا في هذا المساء هي عنوان

الصدق، وعنوان الحيوية، وهي من شعر العافية لا من شعر المرض، كما يتوهم بعض من لا يعقلون.

أيها السادة:

نزل الشيب ضيفا ثقيلا برأس الشريف، وهو في الثالثة والعشرين، والشيب في مثل تلك السن لا يخيف؛ ولكن شاعرنا تفجع فقال:

يا ذابلا صوح فينانه ... قد آن للذابل أن يختلى[1]

حط برأسي يققا أبيض ... كأنما حط به منصلا

قل لعذولي اليوم نم صامتا ... فقد كفاني الشيب أن أعذلا

طبت به نفسا ومن لم يجد ... إلا الردى أذعن واستقبلا

فهو يرى الشيب نذير الموت، وإن كان لا يزال في معية صباه، ويشير على العذول بالصمت والنوم، فالشيب أقوى زاجر، وأعنف عذول.

ثم يراجع نفسه فيرى الشيب نبت الحلم والسيادة:

رأت شعرات في عذارى طقة ... كما انتر طفل الروض عن أول الوسمي

فقلت لها ما الشعر سال بعارضي ... ولكنه نبت السيادة والحلم

يزيد به وجهي ضياء وبهجة ... وما تنقص الظلماء من بهجة النجم

ثم تنقله الأيام إلى سن السابعة والعشرين فيقول:

واها على عهد الشباب وطيبه ... والغصن من ورق الشباب الناضر

سبع وعشرون اهتصرن شبيبتي ... وألن عودي للزمان الكاسر

كان المشيب وراء ظل قالص ... لأخ الصبا وأمام عمر قاصر

تعشو إلى ضوء المشيب فتهتدي ... وتضل في ليل الشباب الغابر

---

(١) الاختلاء: هو القلع والنزع.

لـــو يفتـــدى ذاك الـــسواد فديتـــه ... بـسواد عينـي بـل سـواد ضـمائري[1]
أبيـــاض رأس واســـوداد مطالـــب؟ ... صـبرا عـلى حكـم الزمـان الجـائر!

فماذا ترون؟ هذا شاعر يرحب بالمشيب لو أنه ظفر بحقوق المشيب: وهي السيادة والملك؛ ولكنه يجمع بين النكبتين: بياض الرأس وسواد البخت!

وبعد أن جاوز الثلاثين بقليل وقع له حادث مزعج في الحجاز؛ فقد حلق شعره في منى، ثم تطلع إلى الشعر وهو مرمي على الأرض؛ فرأى الخصل البيض تختلط بالخصل السود؛ فتوقع أن يكون ذلك آخر العهد بغلبة السواد على البياض.

لا يبعـــدن الله بـــرد شـــبيبة ... ألقيتـــه بمنـــى ورحـــت ســـليبا
شـعر صـحبت بـه الـشباب غرانقـا[2] ... والعـيش مخـضر الجنـاب رطيبـا
بعـــد الثلاثـــين انقـــراض شـــبيبة ... عجبـا أمـيم لقـد رأيـت عجيبـا
قـــد كـــان لي قططـــا يـــزين لمتـــى ... شروى[3] الـــسنان يـــزين الأنبوبـــا
فـــاليوم أطلـــب الهـــوى مـــتكلما ... حـصرا وألقـى الغانيـات مريـا
لـــو كـــان يرجـــع ميـــت بتفجـــع ... وجوى شـقفت عـلى الـشباب جيوبـا
ولـــئن حننـــت إلى منـــى مـــن بعـــدها ... فلقـــد دفنـــت بهـــا الغـــداة حبيبـــا

ثم ينقله الدهر إلى السابعة والثلاثين فيقول:

راحـت تعجـب مـن شـيب ألم بـه ... وعـاذر شـيبه الـتهمام والأسـف!
ولا تـــزال همـــوم الـــنفس طارقـــة ... رسل البيـاض إلى الفـودين تختلـف
إن الثلاثـــين والـــسبع التـــوين بـــه ... عـن الـصبا فهـو مـزور ومنعطـف

---

(١) المراد من سواد الضمائر: سواد القلب، أو ما يسمونه حبة القلب، وهي في كلامهم سوداء.
(٢) الغرانق: الشاب الأبيض.
(٣) القطط: بالتحريك الشعر القصير الجعد، وشروى: مثل.

فما له صبوة يبكي بها طلل ... ولا له طربة يعلي بها شرف
أين الذين رموا قلبي بسهمهم ... ولم يداووا لي القرف[1] الذين قربوا
يشكو فراقهم القلب الذين جرحوا ... مني وتبكيهم العين التي طرفوا

ويطيب لشاعرنا أن يوازن بين جنايات الليالي، وعنده أن جناية الشيب أفظع من جناية الفراق:

قل لليالي قد ملكت فاسجحي ... ولغيرك الخلق الكريم الأسجح[2]
من أي خطب من خطوبك أشتكي؟ ... وعن أي ذنب من ذنوبك أصفح؟
إن أشك فعلك من فراق أحبتي ... فلسوء فعلك في عذارى أقبح
ضوء تشعشع في سواد ذوائبي ... لا أستضيء به ولا أستصبح
بعت الشباب به على مقة[3] له ... بيع العليم بأنه لا يربح
لا تنكرن من الزمان غريبة ... أن الخطوب قليبها لا ينزح[4]

وهو قد أشار مرة إلى بلواه بالشيب والعذل:

قل للعواذل مهلا فالمشيب غدا ... يغدو عقالا لذي القلب الذي طمحا
هيهات أحوج من شيبي إلى عذل ... فالشيب أعذل ممن لامني ولحا

وتكرير هذا المعنى يشهد بأنه كان يعرف أن الجمهور لا ينظر إلى غرامياته بعين الارتياح، وهو يبادر بانتهاب اللذات ويراها إمارة يتولاها الرجل بالشباب ويعزل عنها بالمشيب.

سواد الرأس سلم للتصابي ... وبين البيض والبيض الحروب[5]

---

(١) القرف: قشر الجرح.
(٢) السجاحة: هي السهولة، واللين، والاعتدال.
(٣) المقة: الحب.
(٤) القليب: البئر.
(٥) النساء البيض والشعرات البيض.

وولاك الشباب على الغواني فبادر قبل يعزلك المشيب

وهو لا يعجب من أن يعيش بعد فراق الأحباب؛ لأنه عاش بعد فراق الشباب:

غدا في الجيرة الغادين لبي جميعا ثم راجعني وثابا
لئن فارقتها وبقيت حيا لقد فارقت بعدهم الشبابا

ويرجع إلى التفكير في النكبتين: بياض الرأس وسواد البخت، فيقول:

صحبنا الدهر والأيام بيض ونحن نواضر سود الشعور
فلما اسودت الدنيا برزنا لها بيض الذوائب بالقتير[1]

وتقهره البلية؛ بلية الشيب، على عرفان الحق، فيذكر أن الشيب قد يفسد ما بينه وبين الحسان من وثيق الصلات.

يا قاتل الله الغواني لقد سقينني الطرق بعيد الجمام[2]
أعرضن عني حين ولى الصبا واختلج الهم بقايا العرام[3]
وشاعت البيضاء في مفرقي شعشعة الصبح وراء الظلام
سيان عندي أبدت شيبة في الفود أو طبق عضب حسام[4]
ألقى بذل الشيب من بعدها من كنت ألقاه بدل الغلام
ترى جميم الشيب لها دوي يراجع العظلم بعد الثغام[5]
كم جدن بالأجياد لي والطلى فاليوم يبخلن برد السلام!

---

(١) القتير: الشيب.
(٢) الطرق: الماء الذي خوضته الإبل، ومثله المطروق، والجمام: الماء الصافي.
(٣) العرام: القوة والفتك.
(٤) يريد أن وقع الشيب برأسه مثل وقع السيف.
(٥) الجميم: الكثير من كل شيء، ومثله الجم، والعظلم: على وزن زبرج، الليل المظلم، والثغام: على وزن سحاب نبت أبيض، ولون ثاغم: أبيض كالثغام.

وكنـــت إن أقبلـــت أســـمعنني قعـــاقع الحـــلي وراء القـــرام[1]

ويرى تعبيره بالشيب لؤما وقلة أدب؛ لأنه لم يبتدع الشيب حتى يحاسب عليه.

تعـــيرني شـــيبي كـــأني ابتدعتـــه ومـــن لي أن يبقـــى بيـــاض المفـــارق
وإن وراء الـــشيب مـــا لا أجـــوزه بعائقـــة تنـــسى جميـــع العوانـــق
ولـيس نهـار الـشيب عنـدي بمزمـع رجوعـا إلى ليـل الـشباب الغرانـق[2]

ويؤكد لمحبوبته أنه لم يفوف برد الشيب، وإنما فوفته الأيام.

لا تأخـــذيني بالمـــشيب فإنـــه تفويـــف ذي الأيـــام لا تفـــويفي[3]
لـــو أســـتطيع نـــضوت عنـــي بـــرده ورميـــت شـــمس نهـــاره بكـــسوف
كـــان الـــشباب دجنـــة فتمزقـــت عـــن ضـــوء لا حـــسن ولا مـــألوف
ولـــئن تعجـــل بالنـــصول فخفـــه روحـــات ســـوق للمنـــون عنيـــف
وإذا نظـــرت إلى الزمـــان رأيتـــه تعـــب الـــشريف وراحـــة المـــشروف

وتوجعه سخرية الغواني فيقول:

تـــشاهقن لمـــا أن رأيـــن بمفرقـــي بياضا كأن الشيب عندي من البدع
وقلـن عهـدنا فـوق عـاتق ذا الفتـى رداء مـن الحـرك الرقيـق فما صـنع
ولم أر عـــضبا عيـــب منـــه صـــقله وكـــان حبيبـــا للقلـــوب عـــلى الطبـــع[4]
وقـــالوا غـــلام زيـــن الـــشيب رأســـه فبعـــدا لـــرأس زانـــه الـــشيب والنـــزع[5]

---

(١) القرام: على وزن كتاب ستر رقيق.
(٢) الغرانق: بضم الغين الشاب الأبيض الجميل.
(٣) التفويف: التلوين.
(٤) الطبع: بالتحريك هو الوسخ الشديد من الصدأ والشين والعيب.
(٥) النزع: بالتحريك هو انحسار الشعر من جانبي الجبهة.

تسلى الغواني عنه من بعد صبوة ... وما أبعد النبت الهشيم من النجع[1]
وكن يخرقن السجوف إذا بدا ... فصرن يرقعن الخروق إذا طلع

ويرى دنياه كلها تذهب بذهاب الشباب؛ فلا حب ولا قتال، ويرى نفسه كالقوس بلا وتر، والثعبان بلا ناب، و الغصن بلا ورق، والغمد بلا سيف، والخميلة بلا أزهار.

من شافعي وذنوبي عندها الكبر ... إن المشيب لذنب ليس يغتفر؟
راحت تريح عليك الهم صاحية ... وعند قلبك من غي الهوى سكر
رأت بياضك مسودا مطالعه ... ما فيه للحب لا عين ولا أثر
وأي ذنب للون راق منظره ... إذا أراك خلاف الصبغة الأثر
وما عليك ونفسي فيك واحدة ... إذا تلون في ألوانه الشعر؟
أنساك طول نهار الشيب آخره ... وكل ليل شباب عيبه القصر
إن السواد على لذاته لعمى ... كما البياض على علاته بصر
البيض أوفى وأبقى لي مصاحبة ... والسود مستوفزات للنوى غدر[2]
كنت البهيم وأعلاق الهوى جدد ... وأخلقتك حجول الشيب والغرر[3]
وليس كل ظلام دام غيهبه ... يسر خاطبه أن يطلع القمر
أما ترين كصل تحت هضبته ... بالرمل أطرق لا ناب ولا ظفر
مسالما يأمن الأقران عدوته ... ملقى الحنية[4] عرى متنها الوتر
كالفرع ساقط ما يعلوه من ورق ... والجفن أفرد عنه الصارم الذكر

(١) النجع: جمع نجعة بالضم وهي طلب الكلأ في موضعه.
(٢) مستوفزات للنوى: متطلعات للفراق.
(٣) البهيم: ما لا شية فيه من الخيل، وأخلقته: أبلته، والحجول: جمع حجل وهو بياض في قوائم الفرس، والغرر: جمع غرة وهي بياض في الجبهة.
(٤) الحنية: القوس.

إن أشهد القوم لا أعلم نجيهم ... ماذا قضوا ويجمجم[1] دوني الخبر
كان الشباب الذي أنضيت مندله[2] ... عقب الخميلة لما صوح الزهر
من بعد ما كنت أستسبي المها شغفا ... أمست تراع بي الغزلان والبقر
لم أدر أن الصبا تبلى خميصته[3] ... وأن منصات ذاك العود ينأطر[4]
إن أمس لا يتقى زجري ولا غضبي ... ولائد الحي مملولا لي العمر
فقد أرد العفرنى[5] عن أكيلته ... وأزجر الضيغم العادي فينزجر

فما رأيكم في هذه القصيدة؟

إن جامع الديوان لم يذكر متى قالها الشريف؛ ولكن يظهر من روح الشاعر أنه قالها بعد الأربعين، ونراه مع ذلك يمتلك عزيمته أقوى امتلاك، وهل يستطيع رجل فان أن يقول هذا البيت:

راحت تريح عليك الهم صاحية ... وعند قلبك من غي الهوى سكر

ففي هذا البيت صور شعرية يدرك قيمتها من تستبيهم كرائم المعاني، والشاعر يؤكد لمحبوبته أن قلبه لم يتلون، وإن كان شعره تلون:

وما عليك ونفسي فيك واحدة ... إذا تلون في ألوانه الشعر

ويغالط نفسه فيزعم أن السواد عمى على ما فيه من لذات، وأن البياض بصر على ما فيه من علات، ويزعم أن الشعر الأبيض أوفى؛ لأنه لا يفارق الرأس، وأن الشعر الأسود غادر؛ لأنه يهجر وطنه في الرأس ثم لا يرجع:

إن السواد على لذاته لعمى ... كما البياض على علاته بصر

---

(١) يجمجم: يكتم.
(٢) المندل: على وزن مقعد هو الخف.
(٣) الخميصة: كساء أسود مربع له علمان.
(٤) المنصات: المستوى، وينأطر: ينحني.
(٥) العفرنى: الأسد، واللبؤة عفرناة.

البـــيض أوفى وأبقـــى لي مـــصاحبة والـسود مـستوفزات للنـوى غـدر

ويبالغ في تضليل نفسه فيزعم أنه كان كالجود البهيم يوم كان أسود الشعر؛ ثم عاد كالجواد الأغر المحجل منذ اختلط البياض بالسواد.

كنـت البهـيم وأعـلاق الهـوى جـدد وأخلقتك حجول الـشيب والغـرر

ثم يفيق فيقول:

ولـــيس كـــل ظـــلام دام غيهبـــه يـــسر خاطبـــه أن يطلـــع القمـــر

ثم يقع الحزن على صدره وقوع الصواعق؛ صواعق الغدر التي تنفزع من هولها صدور الأوفياء، فيقول:

أمـــا تريـنـــي كـــصل تحـــت هـــضبته بالرمـل أطـرق لا نـاب ولا ظفـر

وهذا بيت قليل الأمثال، وهو يصور جزع الشريف على صباه، وهل هناك صورة تحزن وتوجع كصورة الصل وهو يطرق بالرمل إطراق المساكين؛ لأن الشيخوخة أسقطت ما كان يملك من أنياب حداد؟

مـــسالما يـــأمن الأقـــران عدوتـــه ملقـى الحيـة عـرى متنهـا الـوتر

وهل رأى الراءون أذل من القوس وهي ومعراة من الوتر؟

ثم ماذا؟ ثم يرى الشريف أنه أمسى:

كـالفرع سـاقط مـا يعلـوه مـن ورق والجفـن أفـرد عنـه الـصارم الـذكر

فهل تحسون جزع الغصن حين يسقط عنه الورق؟ لقد أحسست هذا المعنى منذ أعوام قبل أن يقول بعض العلماء بإحساس النبات؟

وهل تحسون جزع الغمد على فراق السيف؟!

أرجو أن لا يطويكم الموت قبل أن تدركوا هذه المعاني؛ فما أحب لأحدكم

أن يلقى الله إلا وهو من الأذكياء.

ثم ماذا؟ ثم يبكي شاعرنا فيقول:

إن أشهد القوم لا أعلم نجيهمو ... ماذا قضوا ويجمجم دوني الخبر

وهذا البيت مزعج؛ وهو يردني إلى حادثة لن أنساها طول حياتي يوم رأيت أبناء عمي يطوون بعض الأخبار عن أبي فمضيت أتوجع في مقال نشرته بجريدة البلاغ، ثم وقعت مخاوفي مع الأسف القتال فمات أبي بعد أسابيع، رحمك الله يا أبي وطيب مثواك.

ثم ماذا؟ ثم يقول الشريف:

كان الشباب الذي أنضيت مندله ... عقب الخميلة لما صوح الزهر

وأنتم تعرفون مصاير الخمائل بعد ذبول الأزهار، وهلاك الرياحين.

ثم ماذا؟ ثم يذكر الشاعر خلاصة حياته فيقول:

من بعد ما كنت أستسبي المها شغفا ... أمست تراع بي الغزلان والبقر

لم أدر أن الصبا تبلى خميصته ... وأن منصات ذاك العود ينأطر

إن أمس لا يتقى زجرى ولا غضبى ... ولائد الحي مملولا لي العمر

فقد أرد العفرنى عن أكيلته ... وأزجر الضيغم العادي فينزجر

وليس في الدنيا آلم ولا أوجع من أن يصبح الرجل بلا حول ولا طول، بعد أن كان ينتهب طعام الأسود، وليس هذا كل ما عند الشريف في بكاء الشباب، فله وقفات يحلل فيها مصاير الرجال، كأن يقول:

وطيف حبيب راع نوم خياله ... وعرفني طول الليالي ملمه

وما زارني إلا ليخجل طيبه ... نسيم الصبا أو يفضح الليل ظلمه[1]

---

(١) الظلم: بالفتح بريق الأسنان.

تطلع من أرجاء عيني دمعها ... وما كان لولا الوجد ينقاد سجمه
ألا هل لحب فات أولاه رجعة ... وإن زاد عندي أو تضاعف وسمه؟
ليالي أسرى في أصيحاب لذة ... ومخ الدجا رار[1] وقد دق عظمه
وأغدو على ريعان خيل تلفها ... صدور القنا والنقع عال أحمه
رأيت الفتى يهوى الثراء وعمره ... يرى كل يوم زائدا منه عدمه
عقيب شباب المرء شيب يخصه ... إذا طال عمر أو فناء يعمه
طليعة شيب بعدها فيلق الردى ... برأسي لها نقع وبالقلب كلمه[2]
أغالط عن نفسي حمامي وإنما ... أداري عدوا مارقا في سهمه
وليس يقوم المرء يوما بحجة ... إذا حضر المقدار والموت خصمه
فوا عجبا للمرء والداء خلفه ... ومن حوله المقدار والموت أمه![3]
يسر بماضي يومه وهو حتفه ... ويلتذ ما يغذى به وهو سمه
وورود من الآجال لا يستجمنا ... وورد من الآمال لا نستجمه

فماذا ترون في هذه القطعة؟ ماذا ترون؟

حدثوني فإني أخشى أن تقولوا: إنها من الحديث المعاد، ففيها معان عرفها الشعراء قبل الشريف، وهذا حق، ولكن، تذكروا ما حدثتكم به في المحاضرة الماضية، تذكروا أني قلت لكم: إن أساس الابتكار هو الإحساس، فالعاشق الذي يخاطب هواه فيقول: "أحبك" لا يتهم بالمحاكاة والتزييف؛ بحجة أن هذه الجملة قالها قبله الناس منذ أجيال وأجيال، وكذلك كان شاعرنا، فهو يحس المعاني أصدق إحساس.

وقد فهمت من جملة حاله أنه كان يشكو مرضا يكتمه عن الأطباء،

(١) الرار: هو الذائب من المخ.
(٢) النقع: الغبار، والكلم: الجرح.
(٣) أمه: أمامه.

ولذلك شواهد كثيرة في شعره نكتمها عنكم؛ وبسبب ذلك المرض المكتوم، لم يعش نصف ما عاش أبوه، وقد حملته تلك العلة على بغض العيش، وهذه القطعة تمثل إحساسه بما كان يعانيه، وقد كان مع ذلك قليل البخت؛ فلم يجد من يتوجع على بلواه، ولو فكرتم لرأيتم أنه طاف حول المعاني التي فصلها ناظم "سفر أيوب" ولكن ناظم "سفر أيوب" وجد من ينصفه بعد مئات السنين، وجد الشاعر الفرنسي العظيم "لامرتين" الذي كتب عن "سفر أيوب" كتابا وجدانيا حملني وأنا طالب في باريس أن أبيع ساعتي وطائفة من ثيابي؛ لأشتري نسخة أنيقة من التوراة.

أراكم تستغربون هذا الحديث! لا بأس، فهو والله غريب، فمن أدب هذا الزمان أن ننسى ماضينا وأن نصرح بأن الأدب الحق لا يكون إلا عند اللاتينيني والسكسونيين والجرمان.

ارجعوا إلى هذه القطعة مرة أو مرتين أو مرات، ثم انظروا كيف بكى شاعرنا مصير الإنسانية؟ وكيف توجع لمصير الرجال؟

انظروا إلى هذين البيتين:

عقيب شباب المرء شيب يخصه ... إذا طال عمر أو فناء يعمه

طليعة شيب بعدها فيلق الردى ... برأسي له نفع وبالقلب كلمه

انظروا إلى هذين البيتين ثم اسألوا أنفسكم كيف جمع مصاير الرجال في بيتين؟ وكيف لون هذه الصورة تلوينا أخاذا تنفطر له القلوب القاسية وتنزعج منه راجحات العقول.

وهذا البيت:

فوا عجبا للمرء والداء خلفه ... ومن حوله الأقدار والموت أمه!

فهو يصور الإنسان في حومة حرب مع الداء ومع الأقدار ومع الموت ثم... ، ثم ماذا؟

ثم يتوجع الشاعر ويلتاع حين يرى مصيره بين العذال وعند الملاح فيقول:

يا عذولي قد غضضت جماحي ... فاذهبا حيث شئتما بزمامي
بعد لوثي عمامة الشيب أختا ... ل ببردي بطالة وعرام؟؟
خفضت نزوة الشباب وحال ... الهم بين الحشا وبين الغرام
غالطوني عن المشيب وقالوا ... لا ترع، إنه جلاء الحسام
أيها الصبح زل ذميما فما أظـ ... ـلم يومي من بعد ذاك الظلام
أرمضت شمسك المنيرة فودي ... فمن لي بظل ذاك الغمام
قلت: ما أمن من على الرأس منه ... صارم الجد في يد الأيام
إن ذنبي إلى الغواني بشيبي ... ذنب ذئب الغضا إلى الآرام
كن يبكين قبله من وداعي ... فبكاهن بعده من سلامي

أترون كيف قال الشاعر "يا عذولي" والشعراء جميعا يقولون "يا خليلي" والبيت الأول مختلس برفق من قول مالك بن الريب:

خذاني فجراني ببردي إليكما ... فقد كنت قبل اليوم صعبا قياديا

ولكن هذا الاختلاس هو الشاهد على براعة الشريف؛ فقد نقل موقف الموت إلى موقف الشيب، وصح له أن يقول:

يا عذولي قد غضضت جماحي ... فاذهبا حيث شئتما بزمامي

وإلى أين يذهب العاذلان بزمام الشاعر الأشيب؟ إلى أين؟ إلى المساجد؟ وهو كذلك؛ ولكن الشاعر كان يتقرب إلى ربه وهو شاب بالتأمل في ملكوت النحور والثغور والخدود والعيون، واليوم يتقرب إلى ربه بالعظة والاعتبار

فيكبر ويسبح كلما رأى جنازة في الطريق!

ويرى الشاعر أنه لا مجال لبرد البطالة وبرد الفتك، بعد أن لبس عمامة الشيب، وكيف يفتك أو يصول بعد أن خدمت نزوة الشباب، وحال الهم بين حشاه وبين الغرام؟ ويذكر أنهم غالطوه فزعما أن الشيب جلاء الحسام؛ فيصرخ كما صرخ من قبله مئات الشعراء:

أيها الصبح زل ذميما فما أظلم ... يومي من بعد ذاك الظلام
أرمضت شمسك المنيرة فودي ... فمن لي بظل ذاك الغمام؟

ثم يذكر ما أجاب به من غالطوه:

قلت: ما أمن من على الرأس منه ... صارم الجد في يد الأيام

ولكم أن تتأملوا عبارة "صارم الجد" فهي من غرائب التعابير ثم يحدد مصيره فيقول:

إن ذنبي إلى الغواني بشيبي ... ذنب ذئب الغضا إلى الآرام
كن يبكين قبله من وداعي ... فبكاهن بعده من سلامي

وهو يصور الشيب أفظع تصوير؛ فيرى موقفه وهو أشيب موقف الذئب من الآرام، وكان موقفه وهو شاب موقف الذئب من الآرام أيضا؛ ولكن الفرق بين الموقفين بعيد؛ فقد كانت الآرام في عهد شبابه تشتهي أن يفترسها، ثم أصحبت وهو أشيب يؤذيها الافتراس؟

ثم ماذا؟ ثم يرى أن لا مفر من تحية الشيب؛ لأنه رسول الموت فيقول:

ألاحي ضيف الشيب إن طروقه ... رسول الردى قدامه ودليله
لقد كان يبكيني لشعري نزوله ... فقد صار يبكيني لعمري رحيله

ومعنى ذلك أنه كان يبكي أولا لما حل بالشعر، فصار يبكي لما حل بالعمر،

فوا حر قلباه.

ثم يعود إلى تحليل تلك التحية في موطن آخر فيقول:

وطـــارق للـــشيب حييتـــه ... ســـلام لا الـــراضي ولا الجـــاذل
أجـرى عـلى عـودي ثقـاف الهـوى ... جـرى الثقـافين عـلى الـذابل
واعـــدني عقـــر مراحـــي لـــه ... لا در در الـــشيب مـــن نـــازل
فـــاليوم لا زور طربـــة ... نـــام رقيبـــي وصـــحا عـــاذلي

أترون كيف يرى الشاعر ما صنع الشيب في تثقيف هواه؛ ولكن أي تثقيف؟ لقد هذبه تهذيبا أليما فاقتلع الأنابيب التي يتوقد بقوتها الصيال.

أترون هذا الميعاد "واعدني عقر مراحي له"؟ وهل هنا موعد أشأم من هذا الموعد؟

إنه موعد فاجع، الموعد الذي يعقر فيه ملح الشباب، فوا حر قلباه؟

ثم... ؟ ثم ماذا؟

ثم يرى الشاعر لقاء الشيب أفظع من لقاء العدو فيقول:

مـــا لقـــائي مـــن عـــدوي ... كلقـــائي مـــن مـــشيبي
موقـــد نـــارا أضـــاءت ... فـــوق فـــودي عيـــوبي
وبيـــاض هـــو عنـــد الـــ ... ـــبيض مـــن شر ذنـــوبي

وهذا حق، فنحن نحارب الأعداء بعزائم الشباب، فبأي سلاح نحارب يوم يودع الشباب؟

وفي موطن آخر يعالج الشاعر هذه المعضلة فيقول:

أشـوقا ومـا زالـت لهـن قبـاب ... وذكـر تـصاب والمـشيب نقـاب

وغـــير التـــصابي للكبـــير تعلـــة ... وغـير الغـواني للبيـاض صـحاب
ومـــا كـــل أيـــام الـــشباب مريـــرة ... ولا كـــل أيـــام الـــشباب عـــذاب
أؤمـــل مـــا لا يبلـــغ العمـــر بعـــضه ... كـــأن الـــذي بعـــد المـــشيب شـــباب
وطعـم لبـازي الـشيب لا بـد مهجتـي ... أسـف عـلى رأسي وطـار غـراب

أيها السادة:

أخشى أن يطول القول إذا مضينا في استعراض حسرات الشاعر على صباه، وهو يبكي نصيبه من الغواني.

فلننتقل إلى موضع آخر وهو جزعه من الشيب بسبب ما سيضيع من حظوظه في المعالي، وكان الشاعر يدخر صباه؛ ليصيب به أعظم الأغراض من هموم الرجال، وانظروا كيف يقول:

ورب دار أوليهـــــا مجانبـــــة ... وبي إلى الـدار أطـراب وأشـجان
إذا تلفـــت في أطلالهـــا ابتـــدرت ... للعـين والقلـب أمـواه ونـيران
كلـــم بقلبـــي أداويـــه ويقرفـــه ... طـول ادكـاري لمـن لي منـه نـسيان
لا للـــــوائم إقـــــصار بلائمـــــة ... عـن العميـد ولا للقلـب سـلوان
عـلى مواعيـدهم خلـف إذا وعـدوا ... وفي ديـونهم مطـــل وليـــان
هـــم عرضـــوا بوفـــاء العهـــد آونـــة ... حتـى إذا عـذبوني بـالمنى خـانوا
لا تخلـــدن إلى أرض تهـــون بهـــا ... بالـــدار دار وبـــالجيران جـــيران
أقـول المركـب قـد خـوت ركـائبهم ... مـن الكـلال ومـر الليـل عجـلان
مـــدوا علابيهـــا واســـتعجلوا طلبـــا ... إذا رضي بـالهوينى معـشر هـانوا
نرجـو الخلـود وباقينـا عـلى ظعـن ... والـدار قاذفـة بـالزور مطعـان
إن قلص الدهر مـا أضـفناه مـن جـدة ... فـصنعة الـدهر إعطـاء وحرمـان
كـم مـن غـلام تـرى أطـماره مزقـا ... والعرض أملس والأخساب غـران!
إذا الفتـى كـان في أفعالـه شـوه ... لم يغـن أن قيـل إن الوجـه حـسان

obeikandl.com

لا تطلب الغاية القصوى فتحرمها ... فإن بعض طلاب الربح خسران
والعزم في غير وقت العزم معجزة ... والازدياد بغير العقل نقصان

وهذه الأبيات من قصيد طويل، وهي تريكم أنه كان يدخر الشباب لعظائم الأعمال.

انظروا أيضا كيف يتوجع على ما ضاع من أمانيه في المعالي بسبب الشيب فيقول:

فؤادي بنجد والفتى حيث قلبه ... أسير وما نجد إلي حبيب
وما لي فيه صبوة غير أنني ... خلعت شبابي فيه وهو رطيب
بلى، إن قلبي ربما التاح لوحة ... فهل ماؤه للواردين قريب
ألا هل ترد الريح يا جو ضارح ... نسيمك يحلولي لنا ويطيب
وهل تنظر العين الطليحة نظرة ... إليك وما في الماقيين غروب
وما وجد أدماء الإهاب مروعة ... لأحشائها تحت الظلام وجيب
ترود طلى أودت به غفلاتها ... وفي كل حي للمنون نصيب
بغوم على آثاره وقد اكتسى ... ظلام الدياجي غائط وسهوب
فلما أضاء الصبح لاح لعينها ... دم بين أيدي الضاريات صبيب
كوجدي وقد عرى الشباب جواده ... وغير لون العارضين مشيب
ولكنها الأيام أما قليبها ... فمكد وأما برقها فخلوب
إذا ما بدأن الأمر أفسدن عقبه ... وعفى على إحسانهن ذنوب
فلله دري يوم أنفث[1] قولة ... لها في رءوس السامعين دبيب
ولله دري يوم أركب همة ... إلى كل أرض أغتدي وأثوب
وكم مهمه جاذبت بالسير عرضه ... وغالبته بالعزم وهو غلوب
وليل رأيت الصبح في أخرياته ... كما انسل من سر النجاد قضيب

(١) في الديوان (أنعت).

سريت به أوفى على كل ربوة ... وليس سوى نجم علي رقيب
وأزرق ماء قد سلبت جمامه ... يعوم الشوى في غمره ويغيب
وهاجرة فللت بالسير حدها ... ولا ظل إلا ذابل ونجيب
ويوم بلا ضوء يترجم نقعه ... عن الروع والإصباح فيه مريب
حبست به قلبا جريا على الردى ... وقد رجفت تحت الصدور قلوب
وطعنة رمح قد خرطت نجيعها ... كما ماج فرغ في الإناء ذنوب[1]
وضربة سيف قد تركت مبينة ... وحاملها عمر الزمان معيب
نظرت إلى الدنيا بعين مريضة ... وما لي من داء الرجال طبيب
ومن كان في شغل المنى ففراغه ... مثال الأماني أو ردى وشعوب
فما لي طول الدهر أمشي كأنني ... لفضلي في هذا الزمان غريب
إذا قلت قد علقت كفي بصاحب ... تعود عواد بيننا وخطوب

وهذه أبيات تفيض بالإحساس وقوة الروح، وهي تشعركم بأن الشاعر كانت له من شبابه غايات أشرف من الأنس بالغواني.

إن شاعرنا أيها السادة، لم يبك شبابه وهو عابث، وإنما بكاه؛ لأنه كان الوسيلة إلى إدراك ما في الدنيا في صبوات وأمجاد، والصبوة والمجد معنيان من أشرف المعاني، والشاعر الحق هو الذي يدرك قيمة الصبوة وقيمة المجد.

كان شاعرنا إماما في الفتوة وفي الفروسية، فارحموه إن رأيتموه يبكي على شبابه بكاء الأطفال، فليس في الدنيا ما يستحق أن تسال في سبيله دموع الرجال غير الشباب.

قديما قيل: إن أبا العتاهية أشعر الناس؛ لأنه قال:

روائح الجنة في الشباب

---

(١) الفرغ: مخرج الماء من الدلو، والذنوب: بالفتح هو البتر.

أيها السادة:

لقد طوفت بكم حول المناحة التي أقامها الشريف على صباه، والآن أنظر فأراكم فريقين: فريق الشباب وفريق الكهول.

أما الكهول: فإني أرجو أن لا يصنعوا مثل صنيع الشريف؛ فيقتلوا عزائمهم بكثرة النوح على الشباب، فإن لله حكمة عالية حين قضى بأن لا يحمل نبيه الرسالة إلا بعد الأربعين، ليعرف من لم يكن يعرف أن شباب العزائم لا يبتدئ إلا بعد الأربعين.

أما الشبان: الذين واظبوا على هذه المحاضرات من طلبة دار المعلمين العالية وطلبة كلية الحقوق وأدباء بغداد، فإن لي في سبيلهم مع الله كلمة، ولي في سبيل المجد معهم كلمة.

أما كلمتي مع الله تباركت أسماؤه؛ فهي دعوة أرجو أن تستجاب.

أدعو الله أن تعيشوا يا تلاميذي ويا حواري حتى تشيب نواصيكم.

أدعو الله أن يبقيكم جميعا حتى تطول بلواكم بالشيب.

أدعو الله أن تعيشوا حتى يشيب أبناؤكم وأنتم أقوياء.

أدعو الله أن يمنحكم البركة في العمر، والبركة في العافية، فلا يدرككم الشيب إلا ولكم في بلادكم منازل عالية تحقق بعض آمال العراق.

أما كلمتي معكم في سبيل المجد فهي كلمة عنيفة، هي دعوتكم إلى إنفاق الشباب في سبيل المجد، لا في سبيل الحب؛ لأن أكثر الحب في زماننا متاع رخيص لا يذكي الأفئدة، ولا يوقظ القلوب.

تذكروا دائما يا تلاميذي ويا حوري أن في مقدور الشاب النبيل أن يخلق

لنفسه عرائس من الخيال، تذكروا أن سهر الليل في تحقيق مشكلة فلسفية، أو معضلة علمية، ألذ وأمتع من سهر الليل بين غانية وكأس.

وتذكروا يا تلاميذي ويا حواري أن شهوة المجد أقوى من شهوة الحب، تذكروا أن عشق المعاني هو الذي يخلق العظماء، والمرأة نفسها لا تذكي قريحة الرجل فتصيره عظيما إلا إن كانت عظيمة في الشمائل والخصال.

إني أخاف عليك هذا الزمان، يا تلاميذي ويا حواري، فإن لم يكن لكم بد من درس الوجود فادرسوه دراسة الرجال، وليكن موقفكم منه موقف الطبيب من العليل، وأنا لا أدعوكم إلى إغماض أعينكم، وإنما أدعوكم إلى التخلق بالقوة والجبروت فلا يدرككم الشيب إلا بعد أن تكونوا رفعتم قواعد الحياة العلمية والأدبية والاقتصادية في هذه البلاد.

وقد رأيتموني أعطف على الشريف وهو يبكي صباه؛ وإنما كان ذلك لأني أومن بأن الشريف كان رجلا سليما وكانت مواهبه شبيهة بالمائدة الغريبة الألوان؛ فكان شاعرا، وكان كاتبا، وكان نحويا، وكان فقيها، وكان فارسا، وكان سياسيا، كان يجمع بين الحلاوة والمرارة، والجد والهزل، والقلب والعقل.

ومثل هذه الشخصية القوية لا ينظر إليها رجل مثلي بغير العطف والإعجاب.

فمن شاء منكم أن يقضي حق الشباب؛ فأنا حارسه وراعيه؛ ولكن على شرط أن يقيم البراهين على أنه رجل عظيم يضر وينفع، ويبرم وينقض، ولا يبيت إلا وهو مثقل بهموم الرجال.

تلاميذي الأعزاء:

احترسوا، ثم احترسوا، فما توغلت في هذه الدراسات الوجدانية؛

لأحولكم إلى قوم بكائين، وإنما قضى واجب الدرس أن نفهم شاعرنا حق الفهم؛ فننظر كيف كان يدرك ما في الوجود من ألوان.

وما جاز له لا يجوز لكم في كل حين.

وليتكم تغنمون لأنفسكم ما غنم لنفسه من القوة والجبروت، فقد طاب له أن يلهو ويلعب، ومع ذلك لم يفارق دنياه إلا بعد أن هذب ألوفا من التلاميذ، وبعد أن ترك ثروة شعرية وأدبية وفقهية تعز على من رامها وتطول.

تلاميذي الأعزاء:

ستحيون بإذن الله حتى تشيب نواصيكم، وستكون لكم في سبيل المجد وثبات صوادق، وسيذكر العراق أن أبناءه لم يخذلوه، وأنهم استطابوا في سبيله كل عذاب حتى الحرمان من نعيم الشباب.

obeikandl.com

الشاعر الوصاف

أيها السادة:

نحدثكم الليلة عن الوصف في أشعار الشريف، ونبدأ فنحكم بأنه خليق بأن يسمى (الشاعر الوصاف)، وإنما سارعنا إلى هذا الحكم؛ لأن الشريف مظلوم من هذه الناحية، فما قال أحد من القدماء أو المحدثين بأنه كان من الوصافين، وليس معنى هذا أنهم أنكروا عليه القدرة على الوصف؛ ولكن لم يتفق لإحدى قصائده أن تظفر بشهرة وصفية، فالمتنبي له قصيدة في وصف الأسد، والبحتري له قصيدة مشهورة في وصف إيوان كسرى، وأبو تمام له قصيدة مشهورة في وصف الربيع، وشوقي له قصيدة في وصف "أنس الوجود" أشهر القصور في التاريخ.

لم يقل أحد بأن الشريف كان من الوصافين، وتجاهل هذه الناحية يشهد بأن النقاد لم يعرفوا هذا الشاعر كما كان يجب أن يعرف.

فلنحاول نحن إنصافه ولنكشف عبقريته في هذا الباب، ونسارع فنقرر أن الشريف لم يصف الخمر، وكان وصف الخمر من أهم الفنون عند شعراء العراق، فما السبب في ذلك؟

لا موجب للمداورة، فالشريف لم يكن يرى من الوقار أن يتبذل في وصف الخمر والسقاة كما فعل غيره من الشعراء؛ لأنه كان يرشح نفسه لأعظم المناصب الدينية، وربما جاز أن نحكم بأنه لم ير الخمر رأي العين.

وهكذا الحكم يبدو غريبا؛ ولكن يسهل تصوره حين نذكركم بابن الفارض الذي شغل الناس بقصائده الخمريات، فمدينة القاهرة لعهد ابن الفارض لم تكن تعرف الخمر، والبيئة التي نشأ بها ابن الفارض لم تكن تعرف إلا أن الخمر شراب حرام، ومع ذلك وصفها الشاعر وأجاد الوصف كما اتفق

لأحد الشعراء العميان أن يجيد وصف الحروب. وقد رأيت في بغداد ناسا يعرفون تخطيط القاهرة ولم يروها، وإنما تمثلوا خططها بالسماع عن طريق الجرائد والمجلات[1].

وما أنكر أن العراق يكاد يكون أقدم شعب عرف الخمر في التاريخ؛ ولكن الخمر كانت مع ذلك متاعا يجهله الجمهور في العراق، وإسراف أبي نواس في وصف الخمر هو الشاهد على أنها كانت قليلة الوجود، ولولا قلتها لما أمكن أن يتهالك عليها كل ذلك التهالك وأن يفتن بها ذلك الفتون.

وفرنسا التي تشرب الخمر في كل وقت ولا يكاد أهلها يعرف طعم الماء، فرنسا هذه لم ينبغ فيها شاعر يصف الخمر على نحو ما نبغ أبو نواس، وكان ذلك؛ لأن الناس يقل غرامهم بما يملكون.

فإن كنتم في ريب من ذلك فانظروا قول السري الرفاء شاعر الموصل وهو يقول في استهداء النبيذ.

يا من أناملـه كالعارض الساري ... وفعلـه أبـدا عـار مـن العـار
أما ترى الثلج قد خاطت أناملـه ... ثوبا يـزر عـلى الـدنيا بـأزرار
نـار ولكنهـا ليـست بمبديـة ... نـورا وماء ولكـن لـيس بالجـاري
والـراح قـد أعوزتنـا في صـبيحتها ... بيعـا ولـو وزن دينـار بـدينار
فـامنن بـما شـئت مـن راح تكـون لنـا ... نـارا فأنـا بـلا راح ولا نـار

فهذا الشعر يشهد بندرة الخمر في تلك العهود.

وانظروا أيضا قول السلامي:

(١) استغرب أحد العلماء هذا الحكم، وقال: "أنا أؤكد أن ابن الفارض كان يعصر الخمر بيديه"، وربما كان هذا العالم أعرف مني بأساليب القوم الصالحين، ولعل الأستاذ محمد بهجت الأثري يحكم بيني وبين ذلك العالم المفضال.

أرسلت أشكو إليكم غدوة ظمئي ... وما شككت بأني سوف أغتبق
فقد كتبت إلى أن خانني قلمي ... وقد تردد حتى ملني الطرق
أنت امرؤ جوده غمر ونائله ... همر ووبل نداه مسبل غدق
فابعث إلي بصفو والراح يشبهه ... مني قريضي ومنك العرف والخلق

وقد لاحظت مثل هذه الملاحظة في كتاب "النثر الفني" حين تكلمت عن أبي الفرج الببغاء.

قد تقول: هؤلاء الشعراء يستجدون!

وأجيب بأن الشعراء لا يستجدون إلى حين لا يجدون.

كانت الخمر في العراق قليلة جدا بدليل اللهفة الظاهرة في كلام الشعراء، وما عرفها الشريف فيما أفترض، وإن كان صرح بأنه عرفها في هذا البيت الحزين.

ويمنعني المدام طروق همي ... فما يحظى بها إلا نديمي

وهو قد وصف الخمر بالفعل؛ ولكنه نص في الديوان على أنه سئل وصفها على لسان بعض الناس فقال:

اسقني فاليوم نشوان ... والربى صاد وريان
كفلت باللهو وافية ... لك نايات وعيدان
جاز[1] وفد الريح فالتطمت ... منه أوراق وأغصان
كل فرع مال جانبه ... فكأنه الأصل سكران
وكأن الغصن مكتسيا ... من رياض الطل عريان
كلما قبلت زهرتها ... خلت أن القطر غيران

(١) في الديوان (حاز).

ومقيل بين أخبية ... قلته والحي قد بانوا
في أصيحاب مفارشهم ... ثم أنقاء وكثبان
عسكرت فيها السحاب كما ... حط بالبيداء ركبان
فارتشفنا ريق سارية ... حيث كل الأرض غدران
فاسقني فالوصل يألفني ... إن يوم البين قرحان
غير سمعي للملام إذا ... ضج ساجي الصوت مرنان
رب بدر بت ألمه ... صياحا والبدر نشوان
قدت خيل اللئم أصرفها ... حيث ذاك الخد ميدان
لي غدير من مقبله ... ومن الصدغين بستان
وندامي كالنجوم سطوا ... بالمنى والدهر جذلان
كم تخلت عن ضمائرهم ... ثم ألباب وأذهان
خطروا والخمر تنفضهم ... وذيول القوم أردان
كل عقل ضاع من يقظ ... فهو في الكاسات حيران
إنما ضلت عقولهم ... حيث يعيبهن وجدان
فاختلس طعن الزمان بها ... إنما الأيام أقران

وهي قصيدة تظهر فيها الرشاقة، وخفة الروح؛ ولكن أين هي من خمريات الفاجر أبي نواس!

وسئل مرة ثانية وصف الخمر فقال:

راح يجول[1] شعاعها ... بين الضمائر والعقول
فكأنها في كأسها ... والليل منسحب الذيول
ماء الهجير مرقرقا ... في سرة الظل الظليل

(١) في الديوان (يحول)

وهي أبيات ظريفة جدا، وقد تجمل فيها تجمل النبلاء.

ويصح أن نذكركم بما قضينا به يوم درسنا غراميات الشريف، فقد قلنا إنه وقف عند المعاني الوجدانية، ولم يشغل نفسه بوصف الجوانب الحسية إلا قليلا.

وكذلك فعل حين وصفها الصهباء.

كان الشريف شاعرا وصادقا. ولكن أين الشواهد؟

حدثوا أنه سئل وصف فرخ حمامة فقال:

لحب إلي بالدهناء ملقى ... لأيدي العيس واضعة الرحال[1]

مناخ مطلحين تقاذفتهم ... غريب الحاج والهم العوالي[2]

أراحوا فرق أعضاد المطايا ... قد افترشوا زرابي الرمال[3]

فبين ممضمض بالنوم ذوقا ... وبين مقيد بعري الكلال

إلى أن روع الظلمات فتق ... أغر كجلحة الرجل البجال[4]

فقاموا يرتقون على ذراها ... سلاليم المعالق والجبال

وأرقني دعاء الورق فيها ... على جرح قريب الاندمال

تذكرني بسالفة الليالي ... وسالفة الغزالة والغزال

وأيام الشباب مساعفات ... جمعن لنا وأيام الوصال

كأنفاس الشمول كرعت فيها ... على ظمأ وأنفاس الشمال

---

(١) الدهناء: اسم مكان.

(٢) الحاج: هي الحاجات، والمطلحون: هم المهزولون.

(٣) الزرابي: هي الأبسطة، وهي كلمة قرآنية، ولا تزال مستعملة في بلاد المغرب.

(٤) الجلحة: انحسار الشعر عن الرأس، والبجال: على وزن سحاب هو الشيخ الكبير مع جمال ونبل.

أقـــول لهـــا وقـــد رنـــت مراحـــا ... لبـــا لـــك ياحمامـــة غـــير بـــالي[١]
تباعـــد بيننـــا مـــن قيـــل شـــاك ... تغلـــق بـــالغرام وقيـــل ســـالي
تريـــــع إلى درادق عـــــاطلات ... وهـــــن بعيـــد آونـــة حـــوالي[٢]
لهـــا صـــنع يطـــول عـــلى طلاهـــا ... قلائـــد لا تفـــصل بـــاللآلي[٣]
عـــوار لا تـــزال الـــدهر حتـــى ... تجملهـــا بـــربط غـــير بـــالي
وكـــل أزيـــرق قـــصرت خطـــاه ... كـــشيخ الحـــي طأطـــأ للعـــوالي
مراحـــك قبـــل طارقـــة المنايـــا ... وقبـــل مـــرد عاديـــة الليـــالي[٤]

وهذه القصيدة تمثل مذهب الشريف في الوصف أصدق تمثيل، فهي في الأصل نظمت في وصف فرخ الحمام؛ ولكن فرخ الحمام من ذلك جاء فرعا ولم يجئ أصلا، فقد شغل الشاعر نفسه بوصف مناخ العيس وحولها الركب الطليح، وشاءت له الشاعرية أن يصف ذلك المنظر أجمل وصف، فلما وصل إلى فرخ الحمام لم يشغل نفسه بوصفه إلى قليلا.

وهنا نجد الأدلة التي تساعد على الحكم بالقول الفصل، فالشريف شاعر وصاف؛ ولكن الوصف عنده لا يقع إلا عن طريق الاستطراد.

وقد حدثناكم منذ أشهر يوم تكلمنا عن العلا والمعالي في قصائد الشريف أن جامع الديوان عنون إحدى قصائده بوصف الأسد، ثم أريناكم أنه ما وصف الأسد، وإنما وصف نفسه، أعني أن شبه نفسه بالأسد فساقه ذلك إلى وصف الأسد عن طريق الاستطراد،وأنتم تذكرون أنه قال:

سيرعب القوم مني سطو ذي لبد ... لـــه بعثـــر أعـــراس وولـــدان

---

(١) رنت: صاحت وسجعت.
(٢) تريع: ترجع، والدرادق: الأطفال، مفردها درق.
(٣) الصنع: بالكسر من معانيه الثوب، والمراد به الريش، والطلى: بالضم هي الأعناق.
(٤) هذا البيت دعوة إلى انتهاب الصفو في أيام الشباب.

لا يطعم الطعم إلا من فريسته ... إن يعدم القرن يوما فهو طيان
ماشي الرفاق يراعي أين مسقطهم ... والسمع منتصب والقلب يقظان

إلى آخر الوصف.

وكذلك يفعل الشريف في أكثر الأوصاف، فمن أراد أن يعرف قدرته الوصفية فليتابعه حيث استطرد، فهنالك قدرته على التصوير والتلوين.

ومن شواهد ذلك قصيدته البائية في وصف الركب، ركب الحجيج، وما كانت القصيدة نظمت لوصف الركب، ولكن الشاعر استطرد فقال:

ثمانون من ليل التمام نجوبها ... رفيقين تكسونا الدياجي ثيابها
نؤوم بكعب العامري نجومها ... إذا ما نظرناها انتظرنا غيابها
نقوم أيدي اليعملات وراءه ... ونعدل منها أين أو ما رقابها[1]
كأنا أنابيب القناة يؤمها ... سنان مضى قدما فأمضى كعابها
كذئب الغضا أبصرته عند مطمع ... إذا هبط البيداء ثم ترابها
بعين ابن ليل[2] لا تداوي من القذى ... يريب أقاصي ركبه ما أرابها
تراه قبوعا بين شرخي رحاله ... كمذروبة ضموا عليها نصابها[3]
فمن حلة نجتابها وقبيلة ... نمر بها مستنبحين كلابها
ومن دار أحباب نبل طلولها ... بماء الأماقي أو نحيي جنابها
ومن رفقة نجدية بدوية ... تفاوضنا أشجانها واكتئابها
ونذكرها الأشواق حتى تحنها ... وتعدي بأطراف الحنين ركابها
إذا ما تحدى الشوق يوما قلوبنا ... عرضنا له أنفاسنا والتابها
وملنا على الأكوار طربى كأنما ... رأينا العراق أو نزلنا قبابها

(١) اليعملات: النوق.
(٢) في الديوان (ليل)
(٣) المذروبة والمذرب: السيف.

نشاق إلى أوطاننا وتعوقنا ... زبادات سير ما حسبنا حسابها
وكم ليلة بتنا نكابد هولها ... ونمزق حصباها إذا الغمر هابها
وقد نصلت أنضاؤنا من ظلامها ... نصول بنان الخود تنضو خضابها
وهاجرة تلقى شرار وقودها ... على الركب أنعلنا المطي ظرابها
إذا ما ظللنا بعد ظمأ بهائها ... وعج الظوامي أوردتنا سرابها
تمنى الرفاق الورد والريق ناضب ... فلا ريق إلا الشمس تلقي لعابها

ففي هذه القصيدة وصف الشاعر القافلة، ووصف الدليل أجمل وصف، وكان السياق يوجب أن تكون القصيدة في التودد إلى رفيقه في السفر وهو ابن أبي الزمان.

أحب أيها السادة أن تذكروا هذه الحقيقة التي استكشفناها بطول الدرس، وهي أن الوصف عند الشريف يقع غالبا على طريق الاستطراد، فإن ذكرتم هذه الحقيقة لم يصعب عليكم استقراء ما عنده من جيد الأوصاف.

وقد أشرنا إلى أنه وصف الأسد عن طريق الاستطراد. تظنون فهل أن ذلك وقع مرة واحدة؟ لا، فهناك شاهد ثان.

بني عامر ما العز إلا لقادر ... على السيف لا تخطو إليه المظالم
ضجيع الهوينا يغلب الخصم رأيه ... وأكبر سلطان الرجال الخصائم
أرى إبل العوام تحدي على الطوى ... وتأكل حوذان الطريق المناسم
وتظمأ على الأغذاذ أشداق خيله ... وتشرب من أفواههن الشكائم
يحاول أمرا يرمق الموت دونه ... لقد زل عنه ما تروم المراوم
أقام يرى شم النسيم غنيمة ... ولا بد يوما أن ترد الغنائم
وتعجبه غر البروق يشيمها ... سراعا إذا مرت عليها الغمائم
ولي بين أخفاف المراسيل حاجة ... ستصحب والأيام بيض نواعم
تحاربني في كل شرق ومغرب ... وأكبر ظني أنها لا تسالم

أقـول إذا سـالت مـع الليـل رفقـة ... تقاذفهـا حتـى الـصباح المخـارم
دعـي جنبـات الـوادين فـدونها ... أشـم طويـل الـساعدين ضـبارم
إذا هـم لم تقعـد بـه عزماتـه ... وإن ثـار لا تعيـا عليـه المطـاعم
كـأن عـلى شـدقيه ثغـرا وراءه ... ذوابـل مـن أنيابـه وصـوارم
فـما جـذب الأقـران منـه فريسة ... ولا عـاد يومـا أنفـه وهـو راغـم
يـرى راكـب الظلـماء في مـستقره ... وتـستن منـه في العـرين الغمائـم
نمـر وراء الليـل نكتمـه الـسرى ... وقـد فـضحتنا بالبغـام الرواسـم
لـه كـل يـوم غـارة في عـدوه ... تـشاركه فيهـا النـسور القـشاعم
كـأن المنايـا إن توسـد باعـه ... تـيقظ مـن أنيابـه وهـو نـائم
ومـا الليـث إلا مـن يـدل بنفـسه ... ويمـضي إذا مـا بادهتـه العظـائم
ومـا كـل ليـث يغـنم القـوم زاده ... إذا خفقـت تحـت الظـلام الـضراغم

فهذه القصيدة نظمت في الأصل لغرض غير وصف الأسد، ثم جاء وصف الأسد عن طريق الاستطراد؛ ولكن أي وصف؟ يكفي أنه قال:

كـأن المنايـا إن توسـد باعـه ... تـيقظ في أنيابـه وهـو نـائم

وكذلك فعل في قصيدة:

وذي ضـغن معـسولة كلماتـه ... ومـسمومة تـترى إلى القلـب نبلـه

فهي قصيدة قالها في محاربة بعض الأعداء؛ ولكنه استطرد إلى وصف الأسد فأجاد، ويكفي أنه قال:

قليـل ادخـار الـزاد يعلـم أنـه ... متـى مـا يعـاين مطعـما فهـو آكلـه

وفي مثل ما صنع في وصف الأسد صنع في وصف الحية.

نبهـت منـي يـا أبـا الغيـداق ... أصـم لا يـسمع صـوت الراقـي

وهي قصيدة رآها جامع الديوان في وصف الحية فعنونها بذلك، وهي حقيقة في وصف الحية، وإن كانت وقعت على طريق التشبيه؛ ولكن جامع الديوان نسي أن الشريف استطرد فوصف قصائد الهجاء أخطر وصف، إذ قال:

أهـــدفت الأرعـــاد والأبـــراق ... نـــصب مـــسيل العـــارض البعـــاق
ترقـــع عرضـــا منـــك ذا انخـــراق ... كـــما رفـــدت النعـــل بـــالطراق
حـــذار مـــن مذروبـــة ذلاق ... ترفـــع عنـــك جانـــب الـــرواق
هواجمـــا مقطوعـــة الربـــاق ... حتـــى عـــلى الآذان والأحـــداق
تنـــزع الأصـــول بـــالأعراق ... يلجـــأ إليهـــا الحـــر إلى الإبـــاق
أعقـــدها مواضـــع الأطـــواق ... لهـــذا عـــلى الأعنـــاق وســـم بـــاق

إلى آخر القصيدة، وقد وصفت فيها الأهاجي بأخطر ما وصفت به الحية.

أيها السادة:

ذلكم قولنا في الوصف عند الشريف، ومنه ترون أن الوصف له عنده خصائص قد تباين ما عند غيره من سائر الشعراء.

وقد يمزج بين الوصف والرثاء كقوله في وصف الحيرة، وبكاء ملوكها السالفين من آل المنذر بن ماء السماء.

أيـــن بـــانوك أيهـــا الحـــيرة البيـــ ... ـــضاء والموطنـــون منـــك الـــديارا
والألى شـــققوا ثـــراك مـــن العـــشـ ... ـــب وأجـــروا خلالـــك الأنهـــارا
المهيـــون بالـــضيوف إذا هبـــ ... ـــت شـــمالا والموقـــدون النـــارا
كلـــما بـــاخ ضـــوءها أقـــضموها ... بالقبيـــات منـــدليا وغـــارا
رابطـــوا حولـــك الجيـــاد وخطـــوا ... لـــك مـــن مركز العـــوالي عـــذارا
وحمـــوا أرضـــك الحـــوافز حتـــى ... لقبـــوا أرضـــها خـــدود العـــذارى
لم يـــدع منـــك حـــادث الـــدهر إلا ... عـــبرا للعيـــون واســـتعبار

وبقايا من دارسات طلول ... خبرتنا عن أهلها الأخبارا
عبقات الثرى كأن عليها ... لطميين ينفضون العطارا
وقباب كأنما رفعوا منها ... لمسترشد الظلام منارا
عقدوا بينها وبين نجوم الأفق ... من سالف الليالي جوارا
أين عقبانك الخواطف حلقن ... وأبقين عندك الأوكارا
ورجال مثل الأسود مشوا فيـ ... ـك تداعوا قوائما وشفارا
حبذا أهلك المحلون أهلا ... يوم بانوا وحبذا الدار دارا
لم يكونوا إلا كركب تأنى ... برهة في مناخه ثم سارا

وما أظنكم تحتاجون إلى من يرشدكم إلى جوانب الدقة والروعة في هذا القصيد.

وقد مر بالحيرة مرة ثانية فراعه بلاؤها بالزمان وجاش صدره بهذه القصيدة:

ما زلت أطرق المنازل بالنوى ... حتى نزلت منازل النعمان
بالحيرة البيضاء حيث تقابلت ... شم العماد عريضة الأعطان
شهدت بفضل الرافعين قبابها ... ويبين بالبنيان فضل الباني
ما ينفع الماضين أن بقيت لهم ... خطط معمرة بعمر فاني
باق بها حظ العيون وإنما ... لاحظ فيها اليوم للآذان[1]
وعرفت بين بيوت آل محرق ... مأوى القرى ومواقد النيران
ومناط ما اعتقلوا من البيض الظبا ... ومجر ما سحبوا من المران
ورأيت مرتبط السوابق للمها ... ومعاقل الآساد للذؤبان[2]
الهاجمين على الملوك قبابهم ... والضاربين معاقد التيجان

---

(١) هذا بيت جيد.
(٢) وهذا أيضا بيت جيد.

وكأن يوم الإذن يبرز منه ... أسد الشرى وأساود الغيطان
ولقد رأيت بدير هند منزلا ... ألما من الضراء والحدثان
أغضى كمستمع الهوان تغيبت ... أنصاره وخلا من الأعوان[1]
بالي المعالم أطرقت شرفاته ... إطراق منجذب القرينة عان[2]
أو كالوفود رأوا سماط خليفة ... فرموا على الأعناق بالأذقان
وذكرت مسحبها الرياط بجوه ... من قبل بيع زمانها بزمان
أمقاصر الغزلان غيرك البلا ... حتى غدوت مرابض الغزلان[3]
وملاعب الأنس الجميع طوى الردى ... منهم فصرت ملاعب الجنان
من كل دار تستظل رواقها ... أدماء غانية عن الجيران
ولقد تكون محلة وقرارة ... لأغر من ولد الملوك هجان
يطأ الفرات فناءها بعبابه ... ولها السلافة منه والروقان
ووقفت أسأل بعضها عن بعضها ... وتجيبني عبر بغير لسان
قدحت زفيري فاعتصرت مدامعي ... لو لم يؤل جزعي إلى السلوان
ترقا الدموع ويرعوي جزع الفتى ... وينام بعد تفرق الأقران
مسكية النفحات تحسب تربها ... برد الخليع معطر الأردان
وكأنما نشر التجار لطيمة ... جرت الرياح بها على العقيان
ماء جيب الدرع تصقله الصبا ... ونقا يدرجه النسيم الواني
حلل الملوك رمى جذيمة بينها ... والمنذرين تغاير الأزمان
طردا كدأب الدهر في طرد الألى ... وإلى الحفائظ في بني الديان
نعق الزمان بجمعهم عن لعلع ... وأقض منزلهم على نجران

---

(١) في هذا البيت خيال طريف.
(٢) للقارئ أن يتأمل في إطراق الشرفات وتشبيهها بالبعير المقرون. وهذا بيت نفيس جدا، والمعنى قديم ولكن الشاعر أورده وردا قويا.
(٣) هذا معنى يكرره الشريف وسنراه في المراثي.

وكـــآل جفنـــة أزعجـــتهم نبـــوة ... نقلـــت قبـــابهم عـــن الجـــولان
وعـــن المـــدائن جلجلـــت برعادهـــا ... عركًـــا لكلكلهـــا عـــن الإيـــوان
وإلى ابـــن ذي يـــزن غـــدت مرحولـــة ... نفـــضت حويتهـــا عـــلى غمـــدان[1]
زفـــر الزمـــان عليـــه فتفرقـــوا ... وجلـــوا عـــن الأوطـــار والأوطـــان

ويضيق الوقت عن تحليل هذه القصيدة النفيسة، وقد ظلت على نفاستها منسية، فلم أرَ إليها إشارة في أي كتاب.

وبكاء الديار قديم في الشعر العربي؛ ولكن كان في الأغلب مقصورًا على ديار الأحباب، وأظهر من شرع مذهب بكاء الآثار بين القدماء هو البحتري في القرن الثالث، وأظهر من شرع هذا المذهب بين المحدثين هو إسماعيل صبري في أوائل القرن الرابع عشر، وقد أشرنا في الطبعة الثانية من كتاب (الموازنة بين الشعراء) إلى أن شوقي نقل عن صبري هذا المذهب، فوصف الآثار المصرية والأندلسية بقصائد سارت مسيرة الأمثال.

أما بعد فهل ترونني أقنعتكم بأن الشريف كان من الشعراء الوصَّافين؟

---

(١) الحوية: كساء محشو يوضع حول سنام البعير.

مراثي الشريف

أيها السادة:

نحن مقبلون على فن أجاد فيه الشريف وهو الرثاء،ومراثي الشريف تنقسم إلى قسمين: رثاء أهل البيت، ورثاء الأصدقاء والرؤساء والملوك.

أما رثاء الشريف لأهل البيت: فلن أحدثكم عنه في هذه المحاضرة؛ لأني كتبت عنه فصلًا مطوَّلًا في كتاب (المدائح النبوية) وقد نشرته مكتبة مصطفى الحلبي منذ ثلاث سنين، وأنا أكره الحديث المعاد، فمن شاء منكم أن يعرف كيف رثى الشريف أهل البيت فليرجع إلى ذلك الكتاب.

وأما مراثي الشريف للأصدقاء، والرؤساء، والملوك، والخلفاء فلها ألوان، وقد مرت لبعضها في هذه المحاضرات إشارات، وما أشرت إليه من قبل لا أعود إليه في هذا المساء.

وأسارع فأقرر أن مراثي الشريف تفصح عن رأيه في دنياه، وتشهد بأنَّه كان يشعر بأن نهايته قريبة وأن متاعه في الحياة قليل.

ويظهر أن شوقي تأثره من هذه الناحية، مع الفرق بين الشاعرين فالشريف كان يتألم ويتضجَّر من سخف الحياة، وشوقي كان يحب أن يعرف ما بعد الموت، وقصائد شوقي في هذا المعنى من الأعاجيب في الأدب العربي، ولها مذاق مرير، والشواهد الآتية تبين لكم ضجر الشريف من دنياه.

قال في تعزية محمد بن الحسن بن صالح عن والدته، وقد توفيت سنة ٣٧٨:

هي ما علمت فهل ترد همومها ... نوب أراقم لا يبل سليمها[1]

---

(١) السليم: هو الملدوغ أو الملسوع، ويبل: يبرأ، والأراقم: الحيات.

أرواحنا دين وما أنفاسنا ... إلا قضاء والزمان غريمها
فلأي حال تستلذ نفوسنا ... نفحات عيش لا يدوم نعيمها
يمضي الزمان ولا نحس كأنه ... ريح تمر ولا يشم نسيمها
لم يشفع الدهر الخؤون لهجة ... في العمر إلا عاد وهو خصيمها
وكأنما الدنيا الغرورة بردة ... بيدي بلى ويروقنا تسهيمها[1]
يا دهر كم أسهرت لي من ليلة ... قد كنت فيك أنامها وأنيمها
والأرض دار لا يلذ نزيلها ... عمر الزمان ولا يذيم مقيمها[2]
كم باع أباء تفل بطونها ... وأديم جبار يقد أديمها
قبر على قبر لنا وأواخر ... يلقي رميم الأولين رميمها

وقال في رثاء بنت أحد الأصدقاء:

عجزنا عن مراغمة الحمام ... وداء الموت مغرى بالأنام
وما جزع الجزوع وإن تناهى ... بمنتصف من الداء العُقام
وأين نحور عن طرق المنايا ... وفي أيدي الردى طرف الزمام[3]
نوائب ما أصخن إلى عتاب ... يطول ولا خدرن على ملام
هي الأيام تأكل كل حيٍّ ... وتعطف بالكرام وباللئام
وكل مفارق للعيش يلقى ... كما لقي الرضيع من الفطام
وكم ليد النوائب من صريع ... بداء السيف أو داء السقام
فمن ورد المنية عن وفاة ... كآخر عائر العرنين دامي[4]
وما يغتر بالدنيا لبيت ... يفر من الحياة إلى الحمام
خطوب لا أجم لها جوادي ... وعزم لا أحط له لثامي

---

(١) التسهيم: التخطيط.
(٢) يذيم: من الذام وهو العيب، ويقال ذام يذيم ذيمًا وذاما فهو مذيم ومذيوم.
(٣) بيت جيد.
(٤) العرنين: بالكسر هو الأنف.

رأيت الموت يبلغ كل نفس ... على بعد المسافة والمرام
سواء أن شددت له حزيمي ... زماعًا أو حللت له حزامي[١]

وقال أيضًا في رثاء بنت أحد الأصدقاء، وقد حدثناكم من قبل عن غرامه برثاء البنات والنساء:

نخطو وما خطونا إلا إلى الأجل ... وننقضي وكأن العمر لم يطل
والعيش يؤذننا بالموت أوله ... ونحن نرغب في الأيام والدول
يأتي الحمام فينسي المرء منيته ... وأعضل الداء ما يلهي عن الأجل
ترخي النوائب من أعمارنا طرفًا ... فنستعز وقد أمسكن بالطول[٢]
لا تحسب العيش ذا طول فتركبه ... يا قرب ما بين عنق اليوم والكفل
نروغ عن طلب الدنيا وتطلبنا ... مدى الزمان بأرماح من الأجل
يقودني الموت من داري فأتبعه ... وقد هزمت بأطراف القنا الذبل
والمرء يطلبه حتفه فيدركه ... وقد نجا من قراع البيض والأسل
ليس الفناء بمأمون على أحد ... ولا البقاء بمقصور على رجل
تعز ما استطعت فالدنيا مفارقة ... والعمر يعنق والمغرور في شغل[٣]
ولا تشك زمانًا أنت في يده ... رهن فمالك بالأقدار من قبل[٤]

وقال في رثاء تقية بنت سيف الدولة:

نغالب ثم تغلبنا الليالي ... وكم يبقى الرمي على النبال
ونطمع أن يمل من التقاضي ... غريم ليس يضجر بالمطال

---

(١) الحزيم: على وزن أمير هو الصدر.
(٢) الطول: على وزن عنب هي طاقات الحبل.
(٣) يعنق: يسرع، والعنق بالتحريك: ضرب من السير.
(٤) القبل على وزن عنب: هو القدرة.

أنتظر كيف تسفع بالنواصي ... ليالينا وتعثر بالجبال[1]
يحيط السيل ذروة كل طود ... رهونًا بالجنادل والرمال
هي الأيام جائزة القضايا ... وملحقة الأواخر بالأوالي
يمنين الورود فإن دنونا ... ضربن على الموارد بالحبال[2]
نطنب للمنون قباب حي ... ويحفزنا المنون إلى الرحال
ونسرح آمنين وللمنايا ... شبًا بين الأخامص والنعال
وبينا المرء يلبسها نعيمًا ... تهجر ضاحيًا بعد الظلال

وقال في رثاء عمر بن إسحاق بن المقتدر:

أيرجع ميتًا رنة وعويل ... ويشفى بأسراب الدموع غليل
شباب الفتى ليل مضل لطرقه ... وشيب الفتى عضب عليه صقيل
فما لوننا قبل المشيب بدائم ... ولا عصرنا بعد الشباب طويل[3]
وحائل لون الشعر في كل لمة ... دليل على أن البقاء يحول
نؤمل أن نروي من العيش والردى ... شروب لأعمار الرجال أكول
نقول مقيل في الكرى لجنوبنا ... وهل غير أحشاء القبور مقيل
دع الفكر في حب البقاء وطوله ... فهمك لا العمر القصير يطول
ولا ترج أن تعطى من العيش كثرة ... فكل مقام في الزمان قليل
ومن نظر الدنيا بعين حقيقة ... درى أن ظلًا لم يزل سيزول

وفي رثاء بعض الأصدقاء يقول:

وما العيش إلا غمة وارتياحة ... ومفترق بعد الدنو وملتقى
هو الدهر يبلي جدة بعد جدة ... فيا لابسًا أبلى طويلًا وأخلقا

---

(١) تأمل هذا الخيال.
(٢) وتأمل هذا أيضًا.
(٣) في الديوان: "فما لون ذا، وما عصر ذا".

فكم من علي فيك حلق وانهوى وكم من غني نال منك وأملقا

وقال في رثاء الصاحب عميد الجيوش:

وهل نحن إلا مرامي السهام يحفزها نابل دائب
نسر إذا جازنا طائش ونجزع إن مسنا صائب
ففي يومنا قدر لا بد[1] وعند غد قدر واثب
طرائد تطلبها النائبات ولا بد أن يدرك الطالب

وفي رثاء علي بن الحسين نقيب العباسيين يقول:

تناهى بنا الآجال عن كل مدة وما تنتهي بالطالبين المطالب
نغر بإبعاد الردى وهو صادق ونطمع في وعد المنى وهو كاذب

وفي رثاء خاله أحمد بن الحسين الناصر يقول:

لنا كل يوم رنة خلف ذهب ومستهلك بين النوى والنوادي
وقلعة إخوان كأنا وراءهم نرامق أعجاز النجوم الغوارب[2]
نوادع أحداث الليالي على شفًا من الحرب لو سالمن من لم يحارب
ونأمل من وعد المنى غير صادق ونأمن من وعد الردى غير كاذب
وما الناس إلا دراع مثل حاسر يصاب وإلا داجن مثل سارب
إلى كم نمنى بالغرور وننثني بأعناقنا لمطمعات الكواذب
نراع إذا ماشيك أخمص بعضنا وأقدامنا ما بين شوك العقارب
ونمسي بآمال طوال كأنما أمنا بيات الخطب دون المطالب

وفي تعزية أبي سعيد بن خلف عن ابنه يقول:

وأرى الناس وافرًا وملقًّى بالرزايا والأرض دارًا وقبرًا

---

(١) اللابد: المتخفي، وهي كلمة لا تزال مستعملة في مصر.
(٢) القلعة: بالضم لانقلاع، وهو على قلعة أي على رحلة.

منـــزلي قلعـــة ولبـــث فهـــذا ... ك مجـــازًا لنـــا وهـــذا مقـــرًّا
كـــل يـــوم نـــذم للـــدهر عهـــدًا ... خـــان فيـــه ونـــشتكي منـــه غـــدرًا
قـــد أنيخـــت لنـــا الركائـــب فالحـــا ... زم عبّـــا زادًا ووطْـــأ ظهـــرًا
أســـمع الحاديـــان واســـتعجل الركـــ ... ـــب زماعًـــا إلى المنـــون ونفـــرًا
كـــم فقيـــد لنـــا طوتـــه الليـــالي ... دفـــن منـــه حلـــوًا وذوّقـــن مـــرًّا
وكـــأن الأيـــام يـــدركن ثـــارًا ... عنـــدنا فيـــه أو يقـــضين نـــذرًا
إنـــما المـــرء كالقـــضيب تـــراه ... يكتـــسي الأخـــضر الرطيـــب ليعـــرى

أيها السادة:

أتعرفون لماذا أطلت في سرد هذه الشواهد؟

إنما أطلت؛ لأني رأيت جماعة منكم ينكرون فيما سلف أن أكتم الأشعار التي تشهد بأن الشريف كان يعاني علّة خفية، وكانت حجتهم أن الدرس لا يعرف الكتمان، فليفهموا في هذا المساء كيف عجز الشريف عن أن يعيش نصف ما عاش أبوه، وليفهموا كيف كان يدعوا إلى انتهاب الصفو من أيام الشباب، وستعرفون فيما بعد أنه مات في السابعة والأربعين، وهي ميتة مبكرة جدًّا، بالنسبة لرجل مثله من أسرة كان أكثرها من العماليق.

وهناك جانب محزن في مراثي الشريف هو يأسه من وفاء الباكين، كأن يقول:

كـــم ذاهـــب أبكـــى النـــواظر مـــدة ... ومـــضى وطـــاب لمقلـــة تهويمهـــا
أو ثغـــر محـــزون تبـــسّم ســـلوة ... والعـــين لمـــا يـــرق بعـــد ســـجومها

وكأن يقول:

مـــن مـــات لم يلـــق مـــن يحيـــا يلائمـــه ... فكـــن بكـــل مـــصاب غـــير محتفـــل

وكأن يقول وهو يرثي الحيرة:

ووقفت أسأل بعضها عن بعضها ... وتجيبني عبر بغير لسان
قدحت زفيري فاعتصرت مدامعي ... لو لم يؤل جزعي إلى السلوان
ثرفا الدموع ويرعوي جزع الفتى ... وينام بعد تفرق الأقران

وهو مذهب قديم أعلنه أبو العتاهية إذ قال:

إذا ما انقضت يومًا من الدهر مدتي ... فإن غناء الباكيات قليل
سيعرض عن ذكري وتنسى مودتي ... ويحدث من بعد الخليل خليل

ويأس الشريف من الدنيا والناس راضه عن التأسي والتجلد:

صبرت عنك فلم ألفظك من شبع ... لكن أرى الصبر أولى بي من الجزع
وإن لي عادة في كل نازلة ... أن لا تذل لها عنقي من الضرع
لذاك شجعت قلبي وهو ذو كمد ... ومات بالدمع عني وهو ذو دفع
ماض على وقعات الدهر إن طرقت ... غدًا بحمل أذاها جسد مضطلع
وحاسر يتلقى كل نائبة ... تدمي فيصبر فيها صبر مدرّع
ما غاض دمعي إلا بعدما انحدرت ... غروبه بين منهل ومنهمع
لولا اندفاع دموع العين غالبة ... لم يعقب الصبر دمعًا غير مندفع
في اليأس منك سلو عنك يضمره ... وقبل يومك يقوى الحزن بالطمع
وهوّن الوجد أن الموت مشترك ... فينا وأنا لذا الماضي من التبع
هي الثنايا إلى الآجال نطلعها ... فمن حثيث ومن راق على ظلع
شيهات لا قارح يبقى ولا جزع ... عن نوائب كر الأزلم الجذع[1]

ولكن هذا المتجلد تهتاجه اللوعة من حين إلى حين فيقول:

لقد ذهب العيش الرقيق بذاهب ... هو الغارب المجزول من ذروة المجد[2]

---

(١) الأزلم: هو الدهر.
(٢) الغارب المجزول: هو السنام المقطوع.

وإني إذا قالوا مضى لسبيله ... وهيل عليه التراب من جانب اللحد
كساقطة إحدى يديه إزاءه ... وقد جبَّها صرف الزمان من الزند
وقد رمت الأيام من حيث لا أرى ... صميمي بالداء العنيف على عمد
فلا تعجبا أني نحلت من الجوى ... فأيسر ما لاقيت ما حزَّ في الجلد
ولو أن رزءًا غاض ماء لكأنه ... وجفت له خضر الغصون من الرند

ويقول:

جوانب[1] أنباء وردت بأنني ... صممت لهاما أورق العود مسمعًا
تصاممت حتى أبلغ النفس عذرة ... وما نطق الناعون إلا لأسمعا
بأن أبا حسان كبت جفانه ... وأخمد نيران القرى يوم ودعا
أعز على عيني من العين موضعًا ... وألطف في قلبي من القلب موقعًا
أكن غليلي بالضلوع ولم أجد ... لقلبي وراء الهم مذ غاب مطلعًا
وفارقني مثل النعيم مفارقًا ... وودعني مثل الشباب مودعًا
غلا الوجد بي حتى كأن لم أرى الردى ... يخط لجنب قبل جنبك مصرعًا
فإن لم تزل نفسي عليك فإنها ... ستنفذ أنفاسًا حرارًا وأدمعًا
فيا لائمي اليوم لا صبر بعده ... فطيرًا بأعباء الملامة أو قعا

ويقول:

لله نفرة وجدت لست أملكها ... إذا تذكرت إخوان الصفاء معي
يواصل الحزن قلبي كلما فجعت ... يدي بحبل من الأفران منقطع
ما لليالي يرنقن المجاجة من ... شربي ويو بين مصطافي ومرتعي
عدت عوادي الردى بيني وبينكم ... وأنزلتك النوى عني بمنقطع
وشتت شملك الأيام ظالمة ... فشمل دمعي ولبي غير مجتمع
أخيَّ لا رغبت عيني ولا أذني ... من بعد يومك في مرأى ومستمع

(١) في الديوان (جوانب).

وما هذه أشعارًا، إن هي إلا أنفاس حرار.

أيها السادة:

كان الشريف من كرام الأوفياء ومراثيه أصدق شاهد، وقد حدثتكم من قبل أنه كان بقي لأصدقائه فيرثيهم يوم الموت، وبعد أن يطول عهدهم بالموت ونحدثكم الآن أنه صنع مثل هذا الصنيع مع بهاء الدولة، فقد رثاه بالكافية التي سمعتموها من قبل، وبعد أن مرَّ على موته ثمانية عشر شهرًا حنَّ إليه فقال:

أظـــن الليـــالي بعـــدكم ســـتريع ... فلـــم يبـــق لي مـــن رائـــع فـــتروع
خـــذي عـــدة الـــصبر الجميـــل فإنـــه ... لكـــل نـــزاع يـــا أمـــيم نـــزوع
وقـــد كنـــت أبكـــي للأحبـــة قـــد أنـــى ... لقلبـــي ســـلو واطمـــأن ولـــوع
ولكـــنما أبكـــي المكـــارم أخليـــت ... منـــازل منهـــا للنـــدى وربـــوع
وهـــل أنـــا جـــاز ذلـــك العهـــد بالبكـــا ... ولـــو أن كحـــل المـــاقين نجيـــع

إلى أخر القصيدة.

أيها السادة:

لم يبقَ إلا أن نشير إلى أروع مراثي الشريف، وأروع مراثيه اثنتان: العينية:

منابـــت العـــشب لا حـــام ولا راع ... مـــضى الـــردى بطويـــل الـــرمح والبـــاع

والرائية:

ألقـــى الـــسلاح ربيعـــة بـــن نـــذار ... أودى الـــردى بقريعـــك المغـــوار

والعينية: من عجائب المراثي، والشاعر يجلجل فيها جلجلة قوية، تشهد بقدرته الفائقة على اقتراع المعاني، وانظروا كيف يقول:

منابـــت العـــشب لا حـــام ولا راع ... مـــضى الـــردى بطويـــل الـــرمح والبـــاع

القائد الخيل يرعيها شكائمها ... والمطعم البذل الديمومة القاع[1]
من يستفز سيوفًا من مغامدها ... ومن يجلل نوقًا بين أنساع[2]
يسقي أسنته حتى تقيء دمًا ... ويهدم العيس من شد وإيضاع
ما بات إلا على هم ولا اغتمضت ... عيناه إلا على عزم وإزماع
خطيب مجمعة تغلي شقاشقة ... إذا رموه بأبصار وأسماع
لما أتاني نعيٌ من بلادكم ... عضضت كفي من غيظ على الناعي
أبدي التصامم عنه حين أسمعه ... عمدًا وقد أبلغ الناعون أسماعي

وأما الرائية: فهي من غرائب الشعر الجزل، وقد شرحها ابن جني في حياة الشريف، واهتمام الأستاذ بشرح قصائد تلميذه من أطايب البر والرعاية، وقد عرف التلميذ لأستاذه هذه الفضل فمدحه ورثاه، وكان يعبر عنه في مؤلفاته بعبارة (قال شيخنا أبو الفتح).

وانظروا كيف ابتدأ الشاعر هذه القصيدة:

ألقى السلاح ربيعة بن نزار ... أودى الردى بقريعك المغوار
وترجّلي عن كل أجرد سابح ... ميل الرقاب نواكس الأبصار
ودعي الأعنة من أكفك أنها ... فقدت مصرّفها ليوم مغار
وتجنبي جسر المقنا فلقد مضى ... عنهن كبش الفيلق الجرار
وليغد كل معرّض من بعده ... مغرى بحل معاقد الأكوار
قطع الزمان لسانك العضب الشبا ... وهذا تحمّط فحلك الهدار
واجتاح ذاك البحر يطفح موجه ... وطوى غوارب ذلك التيار
اليوم صرحت النوائب كيدها ... فينا وبان تحامل الأقدار
مستنزل الأسد الهزبر برمحه ... ولى وفالق هامة الجبار

---

(١) الديمومة: الفلاة الواسعة.
(٢) الأنساع: جمع نسع بالكسر وهو سير تشد به الرحال.

وتعطَّلت وقفات كل كريهة أبدًا وحط دواق كل غبار

أيها السادة:

قد رأيتم ألوانًا من عواطف الشريف في مراثيه، ورأيت كيف صورت تلك المراثي فهمه لقيمة الحياة، ورأيتم كيف كان يتجلَّد، وكيف كان يرتاع.

وما أحسبني في حاجة إلى النص على قوة الشاعرية في مراثي الشريف ويهمني أن أذكركم بأن تلك المراثي جمعت خصائص الشمائل العربية، أو ما كان يتصور الشريف من الشمائل العربية، والرجوع إليها في الديوان يفتح أمامكم بابًا من فهم النفوس والقلوب والعقول، ويغريكم بالتطبع والتخلق بما كان عند أسلافنا الأسوياء من طباع وأخلاق.

ما كان الرثاء عند أسلافنا بكاءً ونواحًا، وإنما كان تسجيلًا لخلائق الأبطال وتذكيرًا بما يجب أن يتخلق به الرجال.

obeikandl.com

قصيدة الوداع

وقف الشريف على منازله قبل أن يموت بنحو عام واحد فقال:

أمل من مثانيها فهذا مقيلها ... وهذي معاني دورهم وطلولها
حرام على عيني تجاوز أرضها ... ولم يرو أظماء الديار همولها
وقد خالطت ذاك الثرى نفحاتها ... وجرَّت على ذكر الصعيد زبولها
حقوق رمال ما يخاف انهيالها ... وأغصان بان ما يخاف ذيولها
إذا ما تراءاها اللوائم ساعة ... فأعذرها فيمن يحب عذولها
رضينا ولم نسمح من النيل بالرضا ... ولكن كثير لو علمنا قليلها
شموس قباب قد رأينا شروقها ... فيا ليت شعري أين منا أفولها
تعالين عن بطن العقيق تيامنًا ... يقوّمها قصد السرى ويميلها
كهل من معيري نظرة فأريكها ... شريقي نجد يوم زالت حمولها
فطامية التيار يجري سفينها ... أو الفلج العلياء يهفو نخيلها[1]
ولم تترَ إلا ممسكًا بيمينه ... رواجف صدر ما يبل غليلها
دعوا لي قلبًا بالغرام أذيبه ... عليكم وعينًا في الطلول أجيلها
سقاها الرباب الجون كل غمامة ... يهش لها حزن الملا وسهولها[2]
نجائب لا يودي بأخفافها السرى ... وإن طال بالبيد القواء ذميلها
فكم نفحة من أرضها بردت حشا ... وبل غليلًا من فؤاد بليلها
منازل لا يعطي القياد مقيمها ... مغالبة ولا يهان نزيلها
خليليَّ قد خفَّ الهوى وتراجعت ... إلى الحلم نفس لا يعز مذيلها
فلست ابن أم الخيل إن لم أمل بها ... عوابس في دار العدو أبيلها
إذا انجفلت من غمرة ثاب كرها ... وعاد إلى مرّ المنايا جفولها

---

(١) الفلج: جمع فلجة بالضم، من الفلج وهو شق الأرض للزراعة.
(٢) الرباب الجون: السحاب الأسود.

يزعفر من عضّ الشكيم لعابها ... ويرعد من قرع العوالي خصيلها[1]
ونحن القروم الصيد إن جاش بأسها ... تغودر مرعى ذودها ومقيلها
بأيماننا بيض الغروب خفائف ... نغول بها هام العدا وتغولها
تفللن حتى كاد من طول وقعها ... بيوم الوغى يقضي عليها فلولها
قوائم قد جرّبن كل مجرّب ... بضرب الطلى حتى تفانت نصولها
وأودية بين العراق وحاجر ... ببيض المواضي والعوالي نسيلها
يمدّ بدفّاع الدماء غثاؤها ... ويجري بأعناق الرجال حميلها[2]
إذا هاشم العلياء عب عبابها ... وسالت بأطناب البيوت سيولها
مدفّعة تحت الرحال ركابها ... محفزة تحت اللبود خيولها
رأيت المساعي كلها وتلاحقت ... فروع العلا مجموعة وأصولها
إذا استبقت يومًا تراخى تبيعها ... وخلّى لها الشأو البعيد رسيلها[3]
وإما أحالت للطعان رماحها ... وشنّ عليها للقاء شليلها[4]
فثم عوال ما ترد صدرها ... وثم جياد ما يفلُّ رعيلها
وثم الحماة الذائدون عن الحمى ... عشيّة لا يحمي النساء بعولها
أبي ما أبي لا تدّعون نظيره ... رديف العلا من قبلكم وزميلها
هو الحامل الأعباء كلّ مطيقها ... وعجّ عجيج الموقرات حمولها
طويل نجاد يحتبي في عصابة ... فيفرعها مستعليًا ويطولها
إذا صال قلنا أجمع الليث وثبة ... وإن جاد قلنا مدّ من مصر نيلها
خليم إذا التفّت عليه عشيرة ... تطأطأ له شبانها وكهولها
وإن نعرة يومًا أمالت رءوسها ... أقام على نهج الهدي يستميلها

---

(١) الخصيل: على وزن أمير هو الذنب بالتحريك.
(٢) الحميل: هو من السيل الغثاء.
(٣) الرسيل: المراسل.
(٤) الشليل: الدرع الصغيرة.

وأنظرهـا حتـى تعـود حلومهـا ... وأمهلهـا حتـى تثـوب عقولهـا
ولم يطوهـا بـالحلم قـضل زمامهـا ... فتعثـر فيـه عثـرة لا يقيلهـا
فعـن بأسـه المرهـوب يرمـي عـدوها ... ومـن مالـه المبـذول يـودي قتيلهـا
أكابرنـا والـسابقون إلى العـلا ... ألا تلـك آسـاد ونحـن شـبولها
وإن أسـودًا كنـت شـبلًا لبعـضها ... لمحقوقـة أن لا يـذل قتيلهـا

وهذه القصيدة على قوتها ليست إلا زفرة شاعر مودِّع، ولا سيما هذه الأبيات:

محـا بعـدكم تلـك العيـون بكاؤهـا ... وغـال بكـم تلـك الأضـالع غولهـا
فمـن نـاظر لم تبـق إلا دموعـه ... ومـن مهجـة لم يبـق إلا غليلهـا
دعـوا لي قلبًـا بـالغرام أذيبـه ... علـيكم وعينًـا في الطلـول أجيلهـا

ونقل صاحب التبيان أن أبا الحسن النحوي قال: دخلت على السيد المرتضى طاب ثراه يومًا، وكان قد نظم أبياتًا، فوقف به بحر الشعر فقال: خذ هذه الأبيات إلى أخي الرضي وقل له تممها، وهي هذه:

سرى طيـف سلمى طارقًـا فاستفزني ... سـحيرًا وصـحبي في الفـلاة رقـود
فلـما انتبهنـا للخيـال الـذي سرى ... إذ الأرض قَفْـر والمـزار بعيـد
فقلت لعيني عـاودي النـوم واهجعي ... لعـل خيـالًا طارقًـا سـيعود

قال: فأخذتها ومضيت إلى السيد الرضي وأعطيته القرطاسة فلما رآها قال عليَّ بالمحبرة، وكتب:

فـردت جوابًـا والـدموع بـوادر ... وقـد آن للـشمل المـشت ورود
فهيهـات مـن ذكـر حبيـب تعرضـت ... لنـا دون لقيـاه مهامـه بيـد

فأتيت بها المرتضى، فلما قرأها ضرب بعمامته الأرض وبكى وقال: يعز عليَّ أخي، يقتله الفهم بعد أسبوع، فما جاء الأسبوع إلا وجاء نعي الرضي ومضى

إلى سبيله.

وهذه نادرة يستبعدها الناس؛ ولكنها طريقة، إذ تجعل موت الشريف بالشعر شبيهًا بحال من يخنقه أرج الأزهار فيموت.

وكانت وفاته رحمه الله في أوائل محرم سنة ٤٠٦ ورثاه أخوه المرتضى فقال:

يا للرجال لفجعة جزمت يدي ... وددتها ذهبت عليّ براسي
ما زلت آبى وردها حتى أتت ... فحسوتها في بعض ما أنا حاسي
ومطلتها زمنًا فلما صممت ... لم يثنها مطلي وطول مكاسي
لا تنكروا من فيض دمعي عبرة ... فالدمع خير مساعد مواس
واهًا لعمرك من قصير طاهر ... ولرب عمر طال بالأرجاس

ورثاه تلميذه مهيار بقصيدة يحفظها أكثر الأدباء:

أقريش لا لفم أراك ولا يد ... فتواكلي غاض الندى وخلا الندى

ورثيته أنا بقصيدة طويلة جدًّا، هي هذا الكتاب.

الخـــتام

الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله، ابتدأت كتابي باسم الله، وأختمه باسم الله.

وأعترف بأن هذا الجهد قليل جدًّا بالنسبة لما كان يجب لشاعر مظلوم مثل الشريف الرضي؛ ولكن ماذا أصنع؟ إن أعبائي في دنياي تكاد تقصم ظهري، فأنا أقوم بمشروعات أدبية كثيرة يضيق العمر عما يجب لها جميعًا من إحاطة واستقصاء.

ومن كان في مثل حالي يقبل المنصفون من القليل، وأنا قد وجهت الباحثين في سائر الأقطار العربية إلى عبقرية الشريف الرضي، وأنتظر أن تخرج المطابع بعد أعوام كتابًا أفضل من كتابي، ويومئذ تطيب نفسي.

وبعد عام ونصف ستحين الفرصة للاحتفال بمرور ألف سنة على ميلاد الشريف، فليذكر ذلك أهل الأدب، ولتذكر ذلك مجلة الهلال التي تستعد لإخراج عدد ممتاز لمرور ألف سنة على ميلاد المعرِّي، وليذكر العراق شاعره المظلوم الذي جاهد في سبيل المجد جهاد الأبطال.

وهنا كلمة أرجو أن يسمعها تلاميذي في مصر وفي العراق:

إن مثل هذا الكتاب لا يجب أن يصرفهم عن الرجوع إلى ديوان الشريف فهذا كتاب في النقد الأدبي،والنقد الأدبي ليس له غرض غير التوجيه والإرشاد، وقد كان الأستاذ أحمد أمين دعاني إلى تأليف كتاب عن الشعر في القرن الرابع ليكون صنوًا لكتابي عن النثر الفني في القرن الرابع، فليكن كتابي عن الشريف الرضي إجابة لبعض ما اقترح ذلك الصديق الأمين.

وبهذه المناسبة أذكر أني قررت في كتابي (النثر الفني) أن ما حُفِظَ من نثر

الشريف لا يكفي لحفظ مكانه بين كُتَّاب القرن الرابع وكنت أرجو أن تكون إقامتي بالعراق فرصة لمعرفة الشريف كاتبًا، وقد عرفت بالفعل أن له رسائل منشورة في المجلد الرابع من مجلة العرفان، وقد تفضَّل أخ صادق فنسخها ولكني رأيتها رسائل قصيرة حفظها الحافظون مراعاة لمكانة الشريف، وقد فهمت أنه كان يكتب الرسالة في المقام الهيِّن الذي لا يوجب الاحتفال بالقصيدة، فالشريف ليس من كُتَّاب الرسائل إلى أن تقوم الشواهد.

ولكني تبينت أنه من كتّاب النقد الأدبي بفضل كتابه عن المجازات النبوية، وكان في النية أن أختم كتابي هذا بفصل عن الشريف ناقدًا.

ثم عاقني عائق يحسب له رجل مثلي ألف حساب، فقد كدت أوقن بعد الدرس بأن الشريف الرضي له فضل في تثقيف عبد القاهر الجرجاني، وهذا الافتراض يوجب الانقطاع لبحث هذه القضية بضعة أشهر، يعوزني في هذه الأيام، ولعلي أملك الفرصة فيما بعد فأضعه بين كُتّاب النقد الأدبي في الطبعة الثانية من كتاب النثر الفني.

وكان في النية أيضًا أن أكتب فصلاً عن الشريف مؤلِّفًا، ثم رأيت الوقت أضيق من أن يجود بدراسة أنفع من الدراسات التي قام بها (منتدى النشر) حين طبع كتاب (حقائق التأويل)

ذلك ما جاد به الخاطر في التعريف بعبقرية الشريف الرضي، وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب.

محمد زكي عبد السلام مبارك

بغداد في ١٤ صفر ١٣٥٧

المراجـــع

- شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد.
- المجازات النبوية للشريف الرضي.
- مختار رسائل الصابي (طبعة الأمير شكيب أرسلان)
- ترجمة الشريف للأستاذ عبد الحسين الحلي (المنشورة تصديرًا لكتاب حقائق التأويل)
- يتيمة الدهر للثعالبي.
- الأعلام للزركلي.
- تجارب الأمم لابن مسكويه (طبعة القاهرة بعناية مرجليوث)
- تاريخ ابن الأثير (الجزء التاسع)
- النثر الفني.
- مختصر تاريخ بغداد للأعظمي.
- الموازنة بين الشعراء.
- القاموس المحيط للفيروز آبادي.
- معجم البلدان لياقوت.

تلك المؤلفات هي أهم ما رجعنا إليه للاستئناس أو الاستشهاد أو التحقيق، وهناك مراجع ثانوية قد نكون أشرنا إليها في الهوامش.

obeikandl.com

استدراك

مرت إشارة إلى قصيدة:

ما بعد يومك ما يسلو به السالي ومثل يومك لم يخطر على بالي

وقلنا: إنها في رجل كان له شخصية، ولا نعرف السبب في طي اسمه عن الناس.

ولكننا في الجزء الأول قررنا أن هذه القصيدة قالها الشريف في رثاء الطائع، فليعرف القراء أننا استندنا في هذا الحكم على ابن الأثير، فقد أشار إلى أن الشريف قال في هذه القصيدة في رثاء الطائع، وعبارة ابن الأثير توضح ما أبهم الديوان.

obeikandl.com